

أنيس فنالو

عمر كوكا شباب غائب



دار الشروق

عَزِيزٌ كَانَ شَابٌ فَلَمْ يَرْجِعْ

الطبعة الأولى

١٤٠٩ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثانية

١٤١٠ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثالثة

١٤١٣ - ١٩٩٢ م

الطبعة الرابعة

١٤١٤ - ١٩٩٤ م

الطبعة الخامسة

١٤٢١ - ٢٠٠١ م

مكتبة جريرا للطبع والتوزيع

دار الشروق

أسيوط - مصر - ١٩٧٨

القاهرة: ٨ شارع سعيد بويه المصري -
رابعة العدوية - مدينة نصر
من . ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ - من: (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: dar@shorouk.com

أنيس منصور

عذرك أنا شاب غافل

دارالشروق

كلمة أولى !

« .. كنت أحاور نفسي طويلاً وكثيراً وعميقاً :

- ثابت الخطوة يمشي ملكاً - أم كلثوم تقول .

- ثابت الخطوة ، ولست ملكاً ١.

* * *

- من رضى بقليله عاش .

- فإذا لم يرض ٢ .

* * *

- الجار قبل الدار .

- وأين هى الدار ؟ .

* * *

- النبي أوصى بساجع جار ؟ .

- كثيرون لا يسمعون كلام النبي ! .

* * *

- السهام لا تغطى ذهبا ولا فضة ..

- ولكن الأرض والعرض يفعلان !.

* * *

- السهام لا تغطى ذهبا ولا فضة ..

- ولكن السهام نسيتها منذ وقت طويل !.

* * *

- اللي يمشي عدل يختار عدوه فيه ، واللي يمشي عوج يختار حبيبه فيه ..

- ولكن لم نعد نعرف الفرق بين العدو والحب [؟] !.

* * *

- من صبر ظفر ..

- ظفر بياذا [؟] !.

* * *

- الصبر مفتاح الفرج ..

- ولكن ما حدود الصبر ؟ وما حجم هذا المفتاح [؟] !.

* * *

- كل الطرق تؤدى إلى روما .

- صحيح . ولكن لا طريق يؤدى إلى المستقبل !.

* * *

- الشاب نصف الحاضر وكل المستقبل ..

- .. ولكن أي نصف ؟ .

* * *

- إكرام الميت : دفنه ..

- وبعض الأحياء أيضاً .

* * *

الزواج للبنت «سترة» ..

- فإذا كانت السترة في حجم ورقة التوت ، فما معنى الزواج ؟ .

- الجنة تحت أقدام الأمهات ..

- مساكين أبناء المستقبل ، فآمهاتهم بلا أقدام ! .

* * *

- أناس يحب أن يقال لهم : من أين لكم هذا ؟ .

- وأناس يقال لهم : كثير عليكم هذا ! .

- وأناس يقال لهم : قليل عليكم هذا ..

- وأناس لا يقال لهم كثير أو قليل عليكم هذا .. فلا يصح أن يكون لكم وجوداً .

* * *

- أنا غاضب إذن أنا موجود .

- أنا موجود . فلماذا أغضب ؟ .

* * *

- هل يكفي أن تكون موجودا على أية صورة ؟ .

- نعم . يكفي أنأشعر بوجودي لكيأشعر بوجود الآخرين . . فأغضب على
الذين يجدون ولا يريدون ، وعلى الذين يريدون ولا يجدون .

- هذا هو الغضب السعيد ؟ .

- إنه الغضب من أجل أن أكون سعيدا . .

- إذن أنت تجد السعادة في الغضب ؟ .

- بل السعادة بعد أن يتحقق الغرض من الغضب . .

- غضب مؤقت ؟ .

- كل شيء مؤقت .

- حتى هذه العبارة ؟ .

- حتى هذا الحوار . .

- وما الفائدة ؟ .

- يسأل عن الفائدة من لا يعرف أن يفعل أكثر من التلاعب بالحوار .

- أنت متطرف . لماذا ؟ .

- وأنت لست متطرفا . لماذا ؟ .

- أنت ت يريد أن يصبح عاليها واطيئها ! .

- بل أن يصبح واطيئها عاليها ! .

- أنت تركب الموجة ؟ .

- الموجة كالبغال والحمير لتركبوها وزينة ! .

وكل يوم أفسخ باب الغرفة .. فأنا لا أفتحه .. إنه يتمسك ببعضه ببعض كأنه لا يريد أن ينفتح .. كأنه هو الآخر لا يريد لي أن أخرج .. وإنما أبقى وراءه .. وراء هذه المقبرة .. لكن أشعر كل يوم بمعجزة الميلاد .. ففي كل ليلة أصلى على نفسي ، فقد أموت غداً أو قبل طلوع الفجر .. فإذا صحوت شكرت الله أن أطال في عمري يوماً آخر .. وأمام الباب ، وبالضبط عند افتتاحه تنهال على حواسى الخمس فيضانات من الإحساسات .. إنها لا تدخل حواسى وإنها تغتصبها .. تقتضمها بالقوة .. كان حواسى مثل هذا الباب .. لابد من فسخها عند الدخول وعند الخروج أيضاً .. وكان فضيحة .. وكان عاراً كونياً يبدأ من هذه اللحظة .. وكل عناصر الدنيا تتعاون على ستر هذه الفضيحة .. فضيحة أن واحداً مثل شاهد على العصر الذى نريده ولا يريدهنا ! .

ولماذا الفلسفة ؟ .. بهذه الفلسفة التى فى رأسى لم تعد قادرة على أن تقدم لي كوبياً من الشاي ولا رغيفاً ولا نعلاً لخدائى ولا كلمة حلوة أقوها لفتاة صادقاً : إننى أثقنى أن أتزوجك ولكن كيف ؟ .

مثلاً : الحديد يتمدد بالحرارة .. أعرف ذلك ولكن ما الفائدة .. أعرف فى الليل أننى أنكمش من البرودة .. وأثقنى لو أكون قادراً على التمدد .. ولكن أين هى الحرارة ؟ ..

أعرف أن الخط المستقيم هو أقرب وأسرع طريق إلى نقطتين .. أى أنه أقصر من

الخط الملتوي هذا صحيح في الهندسة .. ولكن في الحياة فإن الخط الأعوج هو الذي يصل أسرع ويملاً جيك أكثر ..

وأعرف أن من « جد وجد » أى أن لكل مجتهد نصباً . صبح . ولكن ما حجم هذا النصيب .. فأنا أذاكر وأتعجب .. ولكن الذي يأخذ الدروس الخصوصية ، يحصل على درجات أكبر .. أما الذي يعيش فدرجاته أكبر وأكبر . وسوف يسبقني إلى الثقة الجميلة والعربة الأنثقة .. إذن : من جد وجد قليلاً ، ومن غش وجد كثيراً .

شم هذا الشارع الذي أمامي قد امتلاً بالناس والأصوات والروائح .. والوجوه مثل الأرض كالحنة شاحبة حزينة .. لقد اعتادوا كل يوم على أن تصففهم الظروف وتركهم القيم القديمة ، ويدوسهم أصحاب السيارات الصاصبون اللامعون المدخنون والخاشيون الرashون المرتشون ..

وسمعت صوت المؤذن ينادي للصلوة .. ولكنني لست متوضشاً . ولا أعرف إذا دخلت وصليت ما الذي أطلبه من الله ؟ .. أطلب منه ماذا ؟ إنه يعرف .. وموعدى يوم القيمة .. ولكن ما الذي أفعله إذا كنت أريد أن أعيش في الدنيا ؟ .. وأنه لا صيرلى على انتظار الفرج بعد الموت .. فأنا بشر .. وأفكارى تصدر عن جسدى ، وجسدى له مطالب . وهذه المطالب تصرخ كل يوم وأنشغل عنها .. وأنصنع النوم .. وأصحو وأملاً أذنى بفلسفات كثيرة ..

ويستهى الصراحة أنا أعلنت لنفسي : أن فلسفتي قد أفلست .. فالذى أحشر به دماغى هو : فقر الفلسفة !

أريد الفلسفة أن تحملنى أن تقللى أن تأخذ بيدي ولكنها بلا أطراف أريدها أن تعطمنى ولكنها جافة . أريدها أن تملأنى ولكنها فارغة .. أريدها أن تخيبنى ولكنها ميتة ..

إذن . . أبدأ في طرفي إلى الجامعه فأشمى على قدمى . . حتى المشي في الشوارع لا أستطيعه . . الحفر والنقر . . والماء يدخل في حذائى . . ورائحة الشواء والقهوة والشاي في كل مكان . . ونقرأ أن هذا هو التلوث . . إنه التلوث لمن كل وشيع . لمن يريد هواء نقيا ، ولا يريد الهواء النقى إلا الذى نام دافقا ، وشرب وارتوى ، وأكل وشبع ، وجلس واستراح في مقعده في سيارة . . ولما فتح النافذة ضايقته هذه الروائح . .

والناس على محطات الأتوبيس عندهم أمل . . وعندهم فلوس في جيوبهم تعطيمهم الحق في الأمل . . إذن لابد أن أواصل السير . . ولا أعرف كل يوم كيف يتنهى الطريق ؟ . . هل هو الذى يقصر فجأة ؟ . . هل قوة خفية تقلنى بسرعة من القلعة إلى شارع محمد على إلى العتبة إلى شارع عدل إلى ميدان التحرير . . إلى هيلتون عن يمينى وشبرد عن يسارى ؟ . . كيف بهذه السرعة ؟ . . إلى الكويرى الذى يجتاحه الهواء من الجانبين . . هل انسحب الشارع من تحت قدمى ؟ . . آه لو انسحبت الهموم من فوق دماغى . . آه لو كانت الكلاكستات حولى مثل ناي الساحر الهندى ، لا تقاد تسمعه الأفاعى في قلبي حتى تخرج إلى غير عودة . . أو تخرج روحى ، فقد تعذبت كل يوم برقية هذه الفضيحة الكونية : أن يولد واحد مثل حساسا ويتعلم ويتعدب ولا أمل له . . ويتعدب كل يوم دون أن تخف حدة الألم أو وطأة اليأس . .

ما علينا . . ثم هذه البيوت العالية جدا . . لابد أن يسكنها أنساس مثل . . جاءوا من الأرض . . من الريف . . وليسوا من سكان الكواكب الأخرى . . والنوافذ لامعة . . والأضواء حالة . . حتى أشباحهم بيضاء . . وهم لا يمشون إلى بيوتهم . . إنهم يركبون . . ولا يمشون إلى شققهم . . إنهم يصعدون . . ولا يশمون رائحة المطاعم الملونة ، عندهم مطاعم . . وهم

ينسون كيف كانوا مثلك .. ويضيقهم أن يذكرون أحد بذلك .. ويسعدهم أن يرددوا ألف مرة كل يوم كلمة «المستقبل» .. شباب المستقبل .. الذين هم ٥٠٪ من اليوم و ١٠٠٪ غدا .. أى أنهم سوف يجدون تعويضاً غدا .. من الذي قال ذلك؟ وكيف؟ ولماذا نصدقه .. أنا مثلا .. أنا نصف الحاضر؟ صح .. أنا أمشي في الشارع والنصف الثاني في السيارات .. أنا أسكن تابوتا، والنصف الثاني يسكن بيوتا ، أنا أترجر وأتصنت على الآخرين ، والنصف الثاني لا يفعل ذلك ..

شعور غريب يتجدد كل يوم عندما أرى قبة الجامعة .. ما هذا الشعور؟ إنه شعور السفينة افترست من الميناء بعد بحر عاصف .. إنه الشعور بوطن يتساوى فيه كل الناس أمام العلم .. فكلنا صغار .. ولكن بعضاً صغار جدا .. إحساسنا بأننا متساوون .. أنا متقاربون .. مثلاً أستطيع أن أستد ظهرى إلى أية سيارة واقفة .. دون أن يتمى أحد بأننى سوف أسرق الطاسات .. ودون أن يقول لي : أبعد أنت يا ..

أستطيع أن أهرب ظهرى في أية سيارة .. ويشعر صاحبها بالسعادة بأننى أمسحها بملابسى .. أستطيع أن أدخل المكتبة العامة وأجلس وأريح قدمى وساقى وظهرى .. أهم ما يميز المكان : أنه دافئ واسع مضى .. وأن له أبواباً مفتوحة .. وأن نوافذه في حجم الأبواب .. وأن كل شيء يدخل يأخذ .. الهواء يستأذن .. والضوء بالطلب .. والدفء على كيفك ..

ولا شيء يعذبني إلا عندما يجب أن نعود إلى بيوتنا .. أنا قلت بيوتنا؟ .. أن نعود إلى اللحد ، وهم إلى المهد - نحن نموت كل ليلة ، وهم يولدون كل يوم .. نحن نغتصب الحياة ، وهم يفوزون بها ..
وبعد؟ هل أقتل؟ حرام ! .

هل أقتل نفسي ؟ حرام ! .

هل نصفنا يقتل نصفنا الآخر ؟ كيف ! .

بعد أن آمنت بفقر الفلسفة ، لابد أن أمارس فلسفة الفقر . . .

أى لابد أن أعرف ما هذا الذى حدث لي ولغيري . نحن فقراء . لا شك .
ولن نسكت على ما نحن عليه . هذا مؤكد . ولكن وحدى لا أستطيع . صح
وبالآخرين ومعهم يجب أن نستطيع . فنحن ولدنا فقراء . ولكن الفقر ليس
مثل لون البشرة ، ثابت لا يتغير ثابتا . فكل هؤلاء الأغنياء كانوا مثلنا . ولكن
 شيئاً ما حدث قد جعلهم هناك ، وأبقانا هنا . صح . فما هذا الشيء ؟ .

من السهل أن أسرق . ومن السهل أن أدخل السجن . من السهل أن
أقتل ، وليس أسهل من إعدامى . ولكن الحياة هي الهدف . والحياة الكريمة
هي الأمل . والأسلوب هو العمل . وحدى ؟ طبعاً لا . . مع الآخرين ؟
نعم . ولكن كيف إقناع الآخرين ؟ .

هذه هي القضية . .

أول مبادئ فلسفة الفقر : الشعور معاً بحالنا . وأن نرضى مؤقتاً بما نحن
فيه . حتى نصبح غير ما نحن فيه .

وثاني المبادئ : أن يكون عندنا إيمان لا يتزعزع بأن آمالنا مشروعة . . وأن
تحقيقها هو إرادة الله . فالله عادل كريم . . إذن لابد أن تتحقق العدالة
والكرامة . . والله خلق الإنسان ليكون إنساناً ، لا حيواناً . وخلق الحيوان
ليكون حيواناً ، لا يعيش كالإنسان كريهاً رفيعاً ، بينما الإنسان يلعق أقدام
الكلاب ! .

ثالثاً : وأن نلتقط حول كتاب واحد . الكتاب له جاذبية هائلة . . قوة

ونور . إذا قربت منه فالراحة مطلقة ، وإذا قلبت فيه فالنور غامر . إنه الكتاب الشامل الكامل - يجب أن نراه كذلك . فقد جربنا تعدد الكتب والاختلاف الاجتهادات . . وضاع الناس بين الأئمة والمجتهدين . إن الكتاب الواحد الذي نقدسه هو الذي يجعلنا نرى وجوهنا في وجوه الآخرين . . وإذا جلسنا لم نحتاج إلى أن نتكلم . فنحن نعرف كل ما في روسنا . . وإذا خرجت أيدينا ، خرجت معا ، دون أن تتفق على شيء ، فإن أيدينا تعرف المدف ..

هل تعرف أن كل العازفين في الفرقة الموسيقية أمامهم نوته موسيقية واحدة . . فإذا جاء المايسترو ورفع عصاه في الهواء ، فإنهم يعزفون ، على آلات مختلفة ، لحنا واحدا . . وإذا نظرت إلى وجوه العازفين وجدتهم من كل لون وجنس وعمر وطول وعرض . . كل هذه الصفات الظاهرة لا تهم . . الذي يهم هو النوته التي تدرّبوا عليها وحفظوها استعداداً لهذا اليوم .

رابعا : هذا المايسترو . . ليس إلا صورة من شخصية أعظم . . إنه صورة تذكارية . . إنه نائب عن المايسترو الغائب . . الذي جاء بالنوتة الموسيقية ثم أمتعنا بها . . وأسعدنا بها . . ورأينا فيها وفيه خلاصنا مما نحن فيه . . إن النوته الموسيقية ليست ورقة . . إنها طرق نجاة . . إنها طاقة قدر . . إنها مظلة واقية . . إنها : افتح يا سمسم . . وبعدها جنة المكدوبيين والتعساء والبائسين . . إنها وثيقة التأمين التي تصرف لنا بعد الموت . . إنها حك الغفران والرحمة . .

لقد جربنا وتعلمنا من تعدد المايسترات من التغييرات التي طرأت على «القبلة» التي تتجه إليها عند الصلاة . . كل يوم إمام ، وكل إمام له شيخ ، وكل شيخ له طريقة ، وكل طريقة لها أناس ، وكل أناس لهم قبلة . . وكل إمام يفرض عدداً من الدعوات . . وتغيرت أجسام الناس أين يوجهونها ،

واقتربت السموات . . وبعدها . . وانحفرت الأرض كهوفا وقبورا . . وجرفنا
شعور عنيف بأننا ولدنا لموت . هذا صحيح . ولكن لموت بعد أن
نعيش . ولكن المايسترات أكدوا لنا أن عزف النوتة الموسيقية ليس إلا تسلية
قبل الموت . ليس إلا لحسنا جنائزيا يعزفه نصفنا أمام نصفنا الآخر . فنحن
في جنائزات دائمة . .

لابد من الموسيقار الواحد والمايسترو الواحد والنوتة الواحدة . .

هذا هو المضمون السريع لفلسفة الفقر . .

ولابد أن أضيف ، إذا اتسع وقت ، مبدأ هاما جدا . ولماذا لا يتسع الوقت
الآن؟ . هناك دائمًا وقت . من المؤكد ذلك . فالوقت نحن الذي نجعله
قصيرا وطويلا . سريعا وبطينا . كما أنها أحجار في أن نغتصب ونسخط في أي
وقت ، وعلى النحو الذي نريد ، فكذلك في استطاعتي أن أجعل الوقت
خادمي أو سيدى . أنا قاتله أو هو قاتلى . الآن وهنا سوف أكتب ما تبقى
من فلسفة الفقر . .

- يا الله . . يا أستاذة . . من هنا يا أستاذة . . عاززين نمشى . .

إنهم السعاة في مكتبة الجامعة . حان وقت العودة . . ولا مناقشة . لقد
توقف الزمن لا هو قادر على أن يطول أو يقصر . . مات الزمن في يدي . .
نظرت إلى السقف فوجدت حبلًا مكتوبا عليه الأرقام . . إنه الزمن وأمالى
مشنوقة فيه . . في لحظة واحدة . حكم السعاة ونفذوا الحكم ، وحتى تكتمل
أطراف هذه الجريمة أطفئت الأنوار حتى لا نرى تفاصيل الإعدام والدفن بعد
ذلك . . وأحسست أن المكتبة هي الأخرى مقبرة . . وأن هناك حانوتية
وسفاحين في كل مكان . ولكنهم قتلوا رغبة ، ولم يقتلوا أملًا ، شنقوا لحظة ،
ولم يعدموا الزمن . .

ونهضت .. والكلام في أصابعى . ووقفت وراء أحد الدواليب ووضعت
الورق أمامى ورحت أكتب وقد أظلمت القاعة تماما :

- بدلا من أن تلعن الظلام أشعل شمعة ..

- بل إننى أعن الشمعة إذا كانت واحدة ! .

وأغلقت الأبواب والنواذن والأصوات .. كل شئ أصبح سجينا .. الهواء
والكتب .. والهواء كأنه ستائر ثقيلة . والكتب أصبحت أكوااما من الورق ..
قوالب ورق .. والأفكار سجينه فيها .. ولكن أنا السجين الوحيد الذى
يعرف هذه الحقيقة .. والذى يشعر بأن شمعة واحدة لا تكفى لأن أرى
حدود السجن وأبوابه ونوافذه .. وأنه لابد أن أفض طلاسم هذه الكتب وأن
أستوحى معنى واحدة من الصورة :

أحد الصحابة .. ماركس .. خومينى .. يوذ .. لابد من شموع ..
شموس .. ولا بد أن تنفتح في السقف طاقة .. أو في الجدران .. ولا بد أن
يكون صوت يدوى .. يخطف العقول والقلوب .. ويكون الخطف منظما
موسيقا موحدا ..

فِي مَرْحَةٍ حَاجَلَهَا

.. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ..

أَوْمَنْ بِقُضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرَهِ ..

وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنِ جَئْتُ؟ وَلَا أَدْرِي إِلَى أَيْنِ أَنَا ذَاهِبٌ؟ ..

وَلَكِنْ أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَيْنِ كَانَتْ بِدَائِتِي الْيَوْمُ ، وَكُلُّ يَوْمٍ؟ فَإِنَّا أَسْكَنَ فِي غُرْفَةٍ مَا فِي بَيْتٍ مَا فِي الْقَلْعَةِ .. وَمِنَ الْقَلْعَةِ أَنْظَرَ إِلَى مَا تَحْتَ قَدْمِي ، فَاجْدَ كُلُّ شَيْءٍ صَغِيرًا .. وَأَرَى غَلَالَةً سُودَاءَ بِيَضَاءِ تَعْلُو فِي سَهَّاءِ الْمَدِينَةِ .. إِنَّهَا سَحَابَةٌ سَامَةٌ تَوْلِدُ مِنْ أَنْفَاسِ النَّاسِ ، وَمِنْ أَنْفَاسِ السَّيَارَاتِ وَالْمَصَانِعِ .. هَذِهِ السَّحَابَةُ هِيَ كَفَنٌ طَائِرٌ يَتَظَرَّنَا .. إِنَّهُ مِنْ نَسِيجِ النَّاسِ الَّذِينَ هُمْ هُنَّا كَلِيدَنَ النَّاسِ الَّذِي هُمْ هُنَّا .. أَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ ..

كُلُّ يَوْمٍ أَشْعُرُ بِأَنِّي قَذِيفَةٌ مِنَ الْغَيْظِ وَالْمَرَادَةِ وَالْيَأسِ تَنْطَلِقُ مِنْ مَدْفَعٍ .. هَذَا المَدْفَعُ مِنْ صَنْعِ كُلِّ النَّاسِ فِي حَارَتِنَا .. وَهَذِهِ القَذِيفَةُ تَمْجَهُ بِدَقَّةٍ وَإِتقَانٍ إِلَى أَنَّاسٍ فِي الزَّمَالِكِ وَالْمَعَادِيِّ .. وَيُسْرِعُهُ تَمَلِّعُ هَذِهِ القَذِيفَةِ بِغَازَاتِ مَسِيلَةِ الْلَّدَمْوَعِ .. فَعَنِّدَمَا أَعُودُ إِلَى حَارَتِنَا فَإِنِّي أَنْفَجَرُ فِي الَّذِينَ أَوْفَدُونِي وَانْتَظَرُونِي .. فَإِذَا أَنَا دَمْوَعٌ فِي عَيْنِهِمْ وَآهَاتٌ مِنْ قَلْوَبِهِمْ ، وَإِذَا عَيْنُهُمْ أَكْثَرُ لِمَعَانِي ، وَأَصَابُعُهُمْ أَطْوَلُ أَظَافِرٍ ، وَأَفْوَاهُهُمْ أَكْثَرُ أَنْيَابًا .. كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ

كل يوم؟ .. هذه هي معجزة المخلوقات .. وهذه هي البداية الشرعية لكل رغبة في التغيير والتبدل والانقلاب على ما نحن فيه ..

فما الذي يجعلني كل يوم أنطلق ذهاباً وإياباً؟ .. لقد وعدوني بالأمن الغذائي .. أنا وغيري بأننا يجب أن نشعر بالأمن .. لا جوع ولا موت جوغاً. وكل يوم أذهب .. أنطلق .. أمشحن هؤلاء الناس لأعرف بنفسي إن كانوا عند هذا الوعد .. وكل يوم أتأكد أنهم عند الوعد .. فقط أمام باب الوعد .. ولم يفوا بالوعد .. كل يوم يعدون ، وكل يوم أذهب .. لا هم توقفوا عن الوعد ، ولا أنا مللت اكتشاف هذه الأكذوبة ..

نحن الفقراء أغلبية .. ولكن نصيبنا من الحياة أقل من القليل .. وفرص الحياة لنا ضئيلة . إن الفقراء يتخبطون ، كما يتخبط الناس في الزحام .. الشوارع ضيقه والناس كثيرون .. الأرزاق ضيقه والأفواه كثيرة .. الفقراء في المدن أكثر .. والفقراء في الريف أقل .. فأى إنسان في الريف يمر بأحد الحقول يمد يديه يجد بعض ما يملأ به فمه .. لص؟ ليس لصا .. ولكن الناس مثله يشعرون بأنهم منهوبون .. سرقوهم .. أكلوهم .. شربوهم .. باعواهم .. وهذا الفقير مثلهم تماماً .. وهذه أرض الله .. وحضرات الله .. وأعشاب الله .. إنه مثل الغربان والفتران .. مخلوقات الله تعيش على مخلوقات الله أيضاً .. وإذا خلت الشوارع من الناس ، فإنها مثل الأكف مفتوحة وفارغة .. مثل الساء صافية ليس فيها مطر ..

فقير أنا؟ نعم .. وإن فقير وأب لفقير أيضاً . ولذلك فعندى شعور بالعجز ، عاجز أنأشتري . عاجز أن أبيع شيئاً أشتري به أى شيء . لست كهؤلاء الذين رأيتهم في الزمالك والمعادى .. كيف وجوه الناس لامعة .. مغسولة .. كيف ابتساماتهم عريضة .. كيف أحديتهم لامعة .. مع أن

تركيب الإنسان تحت الجلد واحد . الكتب تقول ذلك . ولكن كيف يتحول ماء النيل في وجوههم نورا وفي وجهي هكذا أصفر باهتا ؟ .. ما هذه الكيمياء ؟ . هل هناك كيمياء للفقراء وكيمياء للأغنياء ؟ يبدو ذلك .

هل أنا حاقد على هؤلاء الناس ؟ لا شك في ذلك .. هل أمد يدي إلى الأرض والتفط حجرا وأضرب سيارة أية سيارة .. أحداً أى أحد .. أريد ذلك . هذا هو المعنى . ولكن ما الهدف ؟ ما الفائدة ؟ وليس لي أصدقاء وهل للغير أصدقاء ؟ وهل للمربيض أصدقاء ؟؟ . إنني مثل شوال فارغ لا يقف ، ولكن ينحط .. هل هذا الذي في قلبي كراهية للناس ؟ نعم . احتقار لهم ؟ نعم . ولنفسى أيضاً فكراهيتى للناس نصف كراهيتى للسلطة التى تعد بالأمن ولا أجده ، وبالأمان ولا أجده .. وبالغد المشرق والمستقبل الوهمى ، والحب ..

إذن فأنا أكره رجال البوليس ورجال القضاء والقانون والمدرس ورجال الدين . لأنهم جميعاً قد شربوا من ماء واحد . وطم هدف واحد .. هذا الهدف هو أن يقطعوا يدى ، مع أننى لم أسرق .. وأن يقطعوا لسانى مع أننى كما ترى أتحدث إلى نفسى .. لأنهم جميعاً يريدون أن يقتلونى .. أن يدخلوا بيلى وبين نفسى فنكرون الثين : أحدهما يلغن الآخر أو يقتله .. لأنهم يريدون أن يتزعوا فتيل .. أو ينسفونى حتى لا أعود إلى أهل حارتنا أحكى لهم ماذا رأيت .. فأبكيهم على يومهم وغدتهم .. وأملاً قلوبهم بالنار ، ورموسهم بالشمار .. وأجعل بيوتنا أكثر ضيقاً بنا ، وحوارينا أكثر اختناقـا . فما الذى في حارتنا ؟ هدوء القبور ، وفي أرضها مطبات وطين ..

وتنتهي ليتنا ، كما انتهت قبل ذلك ألف الليالى : لا فائدة .. لا أمل ..

لقد تدربنا طويلاً على هز الكتفين ونمط الشفتين وإخراج اللسان..
وتكتوير الطين على شكل كرة وضربيها في الحائط .. تماماً كما نفعل برموسنا
والمعنى : عيشوا بغيظكم ، وموتوا بغيظكم .. فالغيظ حياة الموت أيضاً ..

وفي حارتنا تستطيع أن تكلم نفسك ليسمعك كل الناس .. لا توجد
فواصل .. الجدران لها آذان ولها ألسنة أيضاً ، فكل الناس مع كل الناس -
وكل واحد له لسان هذا اللسان يضرب في آذن جاره ..

وإذا سمعت صرخة في الليل .. في آخر المخارة فنحن نعرف ماذا حدث .
ولماذا؟ . إنه رجل يضرب زوجته .. طبعي أن يفعل ذلك . فهو قرفان
زهقان طهقان ليس في استطاعته أن يضرب صاحب الدكان الذي يعمل
فيه .. وليس في استطاعته أن يمسك الموسى وبدلًا من أن يخلق ذقن الزيتون
يقطع رقبة صاحب الدكان وكل الزبائن .. إنه أسهل له أن يغش غله في
زوجته .. إنها أغلب من الغلب .. فكل يوم يضربيها .. وكل يوم يجدوها في
نفس المكان وقد استعدت للضرب .. بل أكثر استعداداً .. فهى غسلت
ملابسها ووجهها وربطت شعرها بشرط آخر .. إنها تريد أن ترضيه .. أن
تغريه وهو يضربيها .. لعله قبل أن يضربيها يعاقها .. يقبلها .. أو بعد ذلك
عندما يضاف إلى وجهها الأبيض شيء من الأحرار بسبب الضرب .. ويقفز
من عينيها بريق جديد .. وقد اعتدنا أن نسمع ذلك كل ليلة .. ونسمع
أيضاً صرخات مكتومة .. إن رجالاً آخرين يفعلون نفس الشيء مع زوجاتهم
وأولادهم ..

.. إنهم في هذا الحضيض يكرهون أن يتهمهم أحد بالتقليد الأعمى ..
إنهم يجدون حريةهم الوحيدة في تجديد الضرب وتتجدد الصرخات .. إننا كما

تري نحاول أن تكون لنا شخصية مستقلة ولكن ليس عندنا فرص متساوية مع
الذين هناك .

وفي الصباح الباكر من كل يوم يتعالى صوت الأطفال يصرخون .. إن
أمهاهم تضرهم قبل الذهاب إلى المدرسة يستعجلون الأطفال ..

لهم يحملونهم الأمانة .. فالزوج قد ضرب زوجته ، فانتقمت من
أولادها .. إن الضرب هو الشعلة التي ينقلها الزوج إلى زوجته إلى أولاده كل
يوم .. إن حارتنا مثل عربة كارو لها حصان واقع على الأرض .. كلنا نضربه
بالكرياج .. لا الحصان قام ولا الحارة تحركت ولا الكرياج تقطعت .. ولا
نحن مللنا ..

أما هذا الذي أتعثر فيه كل يوم عند صلاة الفجر .. فهو سيدة تبكي ..
شابة صغيرة .. هجرها زوجها وهرب ، الأغنياء الذين يهربون من
الضرائب .. وقد هرب زوجها ووراءه ملايين اللعنات .. والأطفال حولها
تجمعاهم وتطردهم .. كل يوم .. ومثلها كثيرات .. في حاراتنا الرجال
يضربون النساء .. ولكن النساء هي التي تعمل وتدبر وتدير وتربى . فنحن
هنا أولاد أمهاهننا . أما آباءنا فلا نعرفهم . ولا نحب .. وقد رضينا من
أمهاهننا : الاستسلام والتواكل والتوكيل .. وكراهةية أن يكون الواحد منا آبا أو
زوجا .. بل أن يكون ابنا لأحد ..

- ما هو الغد يا أمي ؟ .

ويكون الصفع على المخد هو الجواب ..

- فما المعنى ؟ .

- اتلهم على عينك وعين أبوك .. يعني أبوك كان فلاح علشان تفلح
أنت !؟ .

وفي إحدى المرات سالت : لماذا تتعلم ؟ .

-لكنني تنفع نفسك .

-كيف ؟ .

-يعنى عاجبك أبوك .. أخوك .. عاجبك فريد .. حسن ..
شعبان .. إنهم «صيئ» .. أنت تتعلم لكنك تطفل من هنا .. إن شاء الله
دلوقت .. اهرب وابعث لنا بجهوبات تقول فيها إنك وجدت عملاً ووجدت
بنتاً لخلال ..

-الآن ؟ .

-هذه اللحظة ..

-وإذا سألك أبي ؟ .

-سوف أقول له إن القطار دهشك ونقلوك إلى أحد المستشفيات .. وهو
لن يستطيع أن يترك شغله ويبحث عنك ، وأنا لا أستطيع أن أترك أخواتك ..

-بس كده ؟ .

-طبعاً .. أنت فاكر نفسك مين ؟ .

-طيب أشوف وشك بخير ..

-ربنا ينور لك طريقك أ.

وكل يوم يدور بيبي وبين نفسى هذا الحوار .. وأنظر إلى أمى ..
ماكينة .. بقرة .. إنها تلد وتلقي أولادها على الأرض .. وتترضعهم وتتطلقهم
دجاجاً .. كلاباً في الشارع .. مسكنة إنسانة لا إنسانية فيها .. إن الإنسانية
عندنا نوع من الترف .. ما هي الإنسانية ؟ .. هي ألا يكون الإنسان كلباً .

ولكتنا كلاب . ألا يكون الإنسان ذبابا .. ولكتنا ذباب .. ما هي الرحة ؟ من الذي يرحم من ؟ وهل رحمني أحد لكي نرحم أنفسنا ؟ ما هو الحب ؟ أن يتتجاوز الناس ويشعر كل واحد بالدفء .. ولكن من يستطيع أن يتتجاوز مع إنسان لم يستحم .. مع إنسان كل شعر جسمه شوك .. إننا مثل حيوان القنفذ .. عندنا نوعان من الشوك .. شوك يتوجه إلى الناس ويبعدنا عنهم ، وشوك يتوجه إلى لحمتنا ويكون بالنار أعصابنا .. ما هي الكراهة ؟ نعم هي أوكسجين الهواء .. هي ملح الطعام .. هي السكر في الشاي المر الذي لا نجده .. لا السكر هناك ولا الشاي .. ومن الذي يضع السكر في الشاي ؟ إن وضع السكر في الشاي ترف . لأن المرأة في أفواهنا لا يقضى عليها السكر ولو كان في حجم المقطر والمهرم .. وما هي القناعة ؟ معناها أن أرضي بها هو عندي . فلأين الذي هو عندي لكي أرضي به ؟ .. إن صاحب هذه العبارة أراد أن يجعلها سلسلة من حديد ساخن حول أعناقنا حتى لا تتحرك .. حتى لا نمد يدا ولا عينا .. وإنها أن تقفي في داخل السجن عاجزين سعداء بها لدينا .. أو سعداء بأننا أحياء ، حتى لو لم نجد شيئا .. وكل الحكم التي على وزن : الصبر مفتاح الفرج .. من رضى بقليله عاش .. إن هذه الحكم هي أقلام وشلالات لكل من تحدثه نفسه بأن يطلب القليل ، أو ينظر إلى الكثير الذي يملكه القليلون من الناس ، بينما الأغلبية : ذباب وكلاب .

إننى أنظر إلى المرأة الآن فأجدنى أضحك .. ليس في وجهى ما يبعث على ذلك .. ولا في نفسي .. ولكنها عبارة قرأتها في أحد الكتب . إنهم عندما حاكموا أحد قادة الحرب الأمريكية الذى ضرب اليابانيون في ميناء «بيرل هاربور » - أكبر هزيمة للأمريكان دفعتهم إلى استخدام القنبلة الذرية وإنها

الحرب . - هذا القائد صرخ في المحكمة العسكرية يقول : ومن الذي أتى ببريل هاربور في هذا المكان ! .

أى أن كل شيء كان الممكن أن يقع على ما يرام ، لو لم تكن هذه المبناء في مكانها . . إنه يلوم القاتل ، ولا يلوم القاتل ، إنه يلقى اللوم على الضحية ، وليس على الذين كانوا سبباً فيها . . وكذلك يقال عنا أيضاً : ومن الذي أسكن هؤلاء الشبان في إحدى حواري القلعة . . ومن الذي بنى القلعة في هذا المكان . . ومن جعل للقلعة عنقاً طويلاً تخنقه سحب الدخان الأسود السام كل ليلة . . ثم يختشد هذا الدخان في قلوبهم ظلاماً وفي ألسنتهم سبباً . . إنهم يلومون الضحية ، ولا يلومون القاتل . . تماماً كما كان يحدث في العصور الوسطى عندما يركب صاحب الإقطاع حصانه ويدوس به الفلاحين . . ويدخل حوافر في بطون الأطفال والنساء . . وتتلوث حوافر الخيل بالدم . . ويشور صاحب الإقطاع ويحيىء الفلاحون يعتذرون له . . ويفسرون حوافر الخيل . . يعتذرون ويلعنون الضحية التي في عروقها دم ، والتي لها بطنون لاتقاوم حوافر الخيل ! .

في يوم قلت لأمى : عندي حل يا ماما .

- حل ؟ أنت عندك حل ؟ .

- أيوه . .

- قل لي يا ابنى . .

- نموت جميعاً الآن . .

- يا خبيثك . . طالع لا يدرك . . إنه سوف يفعل ذلك ! .

- طيب عندي حل آخر . . نقتل أبويا . .

- يخص عليك .. عاوز الناس يقولوا إنك ابن حرام - كتر خيرك يا ابني ! .

- إنت تعرف يعني إيه حرام يا ماما ؟ .

- أيوه أعرف يا بتابع كلية الحقوق .. الحرام هو إنك تسرق وتأكل ..
والحلال إنك تأكل بعرق جبينك ..

- وهوه فين الأكل ؟ .

- البركة فيك إنك .. علمتناك .. هات الحلال وغرقنا فيه .. اللي علينا
عملناه .. أنت بتعطي يا ابني ؟ الرجال تعطي ؟ .

- والله ما كان في نيتى .. دموعى نزلت غصب عنى ..

- تفريج يا ابني .. مسيرة تفريج .. إحنا كنا فين ؟ .

- كنا فين ؟ ! .

يعنى نحن الآآن في أحسن حال ؟! هل من الممكن أن يكون أحد أسوأ ما
نحن فيه ؟ . وما معنى كلمة «فيه» هذه .. هل هناك شيء نحن في
داخله .. لا بيت ولا جدران .. ولا حرارة .. ولا مكان ولا زمان .. لا يصح
أن نستخدم كلمة «في» هذه . بل كل المصائب فيها نحن ، وليس في أي
شيء .. لأننا لا شيء .. وأمى تريدى أن أصبر على اللا شيء الذي هو أنا
وأنت ونحن .. بينما «هم» كل شيء .. هم في كل شيء .. لهم كل شيء ..
وعندهم كل شيء ..

* * *

كل يوم أجذنی .. «في مهمة عاجلة» إلى الناس الذين هناك .. أروح
أتفرج وأترجع وأرجع أقول وأقول .. أحدث أهل حارتي عن العالم الآخر ..

عن جنة الناس على الأرض .. إنني أشبه الغراب الذي أطلقه سيدنا نوح ليعرف إن كانت هناك أرض بعد الطوفان .. وكل يوم أؤكد لهم أن هناك أرضاً وخيراً .. وأن الطوفان هو الذي أغرقنا .. وأن النجاة بعيدة .. أو لا نجاة .. أو كأننا جواسيس موسى عليه السلام الذين بعث بهم إلى أرض الميعاد - أرض المعادى والزمالك - ثم عاد الجواسيس يقولون له : عندهم عسل ولبن .. وأناس كثيرون أقوى وأكثر وأغنى .. ولكن أهل حارتنا ظلوا في أماكنهم .. كما ظل موسى عليه السلام ، رأى أرض الميعاد ولم يدخلها .. حتى قال على نفسه : أنا الغريب في بلاد غريبة .

ونحن الغرباء في بلادنا .. ولابد أن أقدم أوراق اعتمادى لهم .. لكي أحياش بينهم واحداً مثلهم .. واحداً منهم .. واحداً منهم .. ليس اليوم ولا غداً يا أمي - وإنها بعد غد .. وربنا يعطيك طول العمر .. لترى .. يومها لن ترى السحاب الأسود ، سوف تشاركون في سيمفونية إطلاق ثانى أكسيد الكربون إلى أعلى ليتنفسه الذين سوف نتركهم فوق .. لنعود فنتسلهم ..
لابد .. لا مفر .

بأمر الله ومشيئة منه تعالى .. *

وأنا لأطلب المسحيل !!

« . . من المؤكد أن أمي ساذجة فقد أدهشها كثيراً أن يطلقها أبي بعد ثلاثة عاماً من الزواج . . على الخلوة والمرة وراءه في كل مكان . . والنوم على جانب لا يريح . . والسرير طول الليل . . والقيام والقعود . . والحمل والولادة والرضاعة وغسل الملابس والجري وراءها فوق الأسطح عندما يكتسحها الهواء . . وبعد كل ذلك تجد نفسها مطلقة . .

مع أنه من الطبيعي أن يحدث ذلك . . فالحياة الزوجية إذا طالت كان من السهل التخلص منها . . فقد زهد الرجل والمرأة . . وقرف الإثنان . . وتحملاً من الأخطاء والسخافات ما لا حد له . . ثم إن الأخطاء إذا كانت بلا عدد ، والقرف بلا حدود . . فالصبر له حدود . . والاحتلال له حدود . . وقد احتملت أمي الكثير جداً في الثلاثين شهراً الأولى من الزواج . . ولكن بعد ثلاثة عاماً . . تباعد الإثنان . . حتى لم يعد أحدهما يرى الآخر . . أو إذا رأه وجده ضئيلاً تافهاً لا ضرورة له . . ولا أحدهما يسمع الآخر . . وإذا نطق أحدهما ثاءب الثاني . . وإذا حاول ، ولو مرة ، أن يكون اجتماعياً ، فإنه لا يكمل قصته ولا حكايته . . وقد سمعت أبي يقسم ألف مرة ، وأنا أصدقه ، أنه لم يستطع أن يكمل حكاية واحدة مرة في حياته . . إلى هذا الدرجة تكون الحياة الزوجية مملة . . ويكون الكلام له شكل الذباب وطعم التراب ، ولذلك

يجب أن تنسد في وجهه النواهد والأذن . . والحقيقة أن أمى كانت تفعل ذلك . . فما يكلم قوله أبى يغريها بأن تفتح الباب أو تقفله أو تناهى على أطفالها . . وأحياناً تفعل ذلك وهي تعلم أنهم جميعاً في المدرسة . . ولكنها تؤدى ذلك هرباً وقرفاً وضيقاً . .

وقد تعلمت من النظر إلى أبى وأمى أن المرأة تظل زوجة حتى تلد طفلها واحداً ، فإذا ولدت فهي أم مائة في المائة . . فكل طفل يجيء يكون خصماً من حياتها الزوجية . . وكلما كبر الطفل كبرت فيها الأم وتضاءلت الزوجة . . والمرأة قد ولدت أماً . . والطريقة المحتملة لذلك هي أن تتزوج . فالزواج هو الطريق الذى تقدسه الأديان من أجل ميلاد طفل . . والعناكب والعقارب عندما تأكل ذكورها أثناء عمليات التزاوج هو بالضبط ما تفعله كل أم . . بل إن الأم عندما استعداد أن تذبح زوجها طعاماً لأولادها . . إنها ليست شريرة . . ولكن هذه غريزتها . فهي أم أولاً . . وهى زوجة ثانياً . . وهى تريد أن تكون زوجة لكي تصبح أماً . فإذا أصبحت أماً ، فهي حريصة على أن تكون أمّاً مرة ثانية وثالثة . . والتى تحمل الدكتوراه والتى تحمل البلاص - كلتا هما أم ! .

أمى لا تعرف ذلك . . ولكن أبى كان يعرف . . وكان يقول . . ولكن أمى لا تسمع . فقد أعطت أذنيها لموسيقى الطبيعة : بكاء إخوتى الصغار ! .

شىء عجيب أن تكون المرأة زوجة تستخدم كل أساليبها في الفتنة والإغراء . . بنت الريف مثل بنت المدينة غاوية . . غازية . . بلقيس . . شجرة الدر . . حتشبسوت . كلهن عند الزواج قبله : خانيات . . من أجل الحمل الصحيح والولادة المربيحة . . فإذا ولدت ، أصبح دور الزوج ثانوي تماماً . . وحتى إذا مات ، فقد حل محله طفل صغير . . فعدد الناس لا ينقص . . بل إنه من رجل وامرأة يولد أطفالاً كثيرون . . فالطبيعة لم تنقص

بموت الزوج .. وإنها حياته ساعدت على زيادة النسل ..

وقد تأكّدت من أن أمي ساذجة .. فهي تتصحّن كثيراً بأنّ أفتح لي بيتي ..
أى أنزوج ليكون لي مثل بيتي وأحسن ، ويكون أولادي مثل أولادها ..
وبذلك يتجدد الملل والقرف بصورة مختلفة ..

ودون أن تعرف أمي فقد حاولت أنا .. فعلاً حاولت .. كان ذلك منذ
شهور عندما جلست أنا وزميلتي في كلية الهندسة نستعرض حياتنا
ومستقبلنا .. قلت لها : نحن تعلمنا أن نرسم وأن نخطط . فما هي خطة
حياتنا معاً . ١٩ .

قالت : بعد أن أحبيتها وأحببتك لم يبق أمامنا إلا الزواج .

هي التي قالت إنني أحبيتها .. وهذا يؤكّد لي أن المرأة لا تسمع الواقع ،
وإنها تسمع رغباتها .. تسمع غريزتها .. فغريزتها تقول لأبد من الأولاد ، وقبل
الأولاد الزواج ، وقبل الزواج الحب . ففي غير الحب لا يمكن أن تتصور لحظة
واحدة أن الحياة بغيرنا نحن الاثنين ممكّنة .. إذن فلا بد منها هي بالذات ..
وأن أكون أنا وحدي أباً لأولادها .. فالحب هو الجوابي وبالبطو في ليالي
الشتاء ، والذى هو المظلة في أيام الصيف .. فهو الشعور الذى يجعلنى أحتمل
البرد والحر والضيق والقرف والملل ورذالة الزوجة عندما تصبح أمـا .. وكيف
أتفادى أن أرى أمـى في زوجتى ، وأن أرى إخواتى فى أولادى ، وأراني فى
أبى .. لأنـ الحب وحده هو الذى يجعلنى أنسـى .. ويجعلنى أتنـزع هذه الصور
من حائط الذكريات وأعلق صورـاً من صنع زوجتى .. هـذ الصور تتصدرـها
هي .. صورـها بالألوان .. أما صورـى ف تكون بلون واحد أول الأمر .. ثم
سوداء بعد ذلك .. ثم باهـته .. ثم شـريط أسـود تحتـها وفوقـها .. أى أنسـى
المرحوم ..

وعندما أمسكت زميلتي الورقة وراحت ترسم الشقة وغرفة النوم وغرفة الطعام .. وتضع الدواليب وتصنف الكتب .. وتضع إلى جوارها سرير المولود ثم هي ترسم شقة أكبر ، فقد كبر الأطفال وزاد عددهم .. ثم ترسم شقة أخرى فيها غرفة لكل طفل .. وترجع أنا وهي حتى يكون لنا ركن في البيت .. البيت الذي لها ولأولادها - إننى لا أقول : أولادي . فالأولاد لها من أول لحظة .. وكنت أرى أبي عندما يتحدث عن متابعة الأولاد يقول لأمى : أولادك .. وعندما يتحدث عن نجاح بعض الأولاد يقول : أولادي ١.

والاحظت أن «هـ» عندما تتحدث عن سرير الطفل تقول : ابنى إلى جوارى ..

وعندما يكبر الطفل ويحتاج إلى غرفة أكبر تقول : وأين أضع ابنك ؟ .

وأحسست أن فسي قلبي فربما مشتعلًا .. وأخرجت من رأسي سكينا وأغمدته فسي قلبي ليكون حادا ساخنا ثم سددته إلى قلب «هـ» .. قائلاً : - كيف قفرت إلى هذه النتيجة ؟ .

قالت : أية نتيجة ؟ .

قلت : أن نتزوج ؟ .

قالت : ألم تتفق ؟ .

قلت : لم يحدث .. لا أنا قلت .. ولا أنت .. ولكن أنت بحكم الدراسة إذا وجدت ورقة وقلما رسمت شقة .. وتعجبك الشقة عادة فتجعلينها لنفسك .. لا وحدك .. ولكن مع الرجل الذي تحبين .. وتصادف أننى أجلس أمامك .. فمدت يدك ووجدتني إلى جوارك في غرفة النوم .. هذا هو كل ما حدث ؟ .

قالت : يعني إيه ؟ .

قلت : يعني الذي قلت لك والذي سمعت بوضوح شديد يا أمي ؟ .

قالت : أمك ؟ .

قلت : كأنك هي في هذه اللحظة . . إنها حكاية طويلة ! .

قالت : أصغر منك بخمس سنين وترانى أمك ! .

قلت : بسنة ونصف ! .

قالت : افرض . هل هذا يجعلنى أمك . . أو يجعلك أمى ؟ . .

قلت : هل تتصورين أن واحدا مثل عاش كها عشت ورأى ما رأيت
وتعذب كها تعذبت . من الممكن أن يكون زوجا وأبدا ! .

قالت : إذن فأنت ضحكت على . .

قلت : أنا ؟ ما الذي وعدتك به . . أنا قلت لك أنتي أحبتيك ؟ أبدا . .
أنا قلت لابد أن تتزوج ؟ أبدا . .

قالت : ما معنى خروجنا معا . . والكلام عن الشقق ومشاكل المدارس
وانحطاط المستوى الأخلاقي . . أليس هذا انشغالا بها يجب أن نفعله عندما
نتزوج ويكون لنا أولاد . .

قلت : تعالى نتكلم عن الأرض والقطن والعالة المدربة والهجرة وال碧ول
والمجاري ومرض الأيدز . هل لو فعلت ذلك يكون المقصود هو أن تتفادى
أسرتنا الصغيرة كل هذه المتاعب . . إنها قضيائنا عامة تشغل كل الناس . .
ونحن بعض الناس الخ . .

* * *

إنها لم تضف لي شيئاً جديداً عما كنت أعرفه عن المرأة .. صغيرة أو كبيرة ..
بنت ناس أو بنت نسانيـس .. تسـكن في حـارتـنا أو في شـارعـ العـروـبة أو شـارعـ
الـتـحرـير أوـ الـحرـية .. هيـ هي .. وأـحـسـستـ أنـ المـرـأـةـ عـقـلـهـاـ فـيـ حـجـمـ
الـسـمـسـمةـ إـذـاـ تـحـدـثـ مـعـهـاـ عـنـ أـىـ شـيـءـ آخـرـ إـلـاـ الحـبـ وـالـزـوـاجـ وـالـأـلـادـ .. وـلـاـ
لـوـمـ عـلـيـهـاـ فـهـيـ قـدـ خـلـقـتـ لـذـلـكـ .. وـتـدـرـبـتـ عـلـىـ ذـلـكـ وـتـحـلـمـ بـهـ وـتـعـيـشـ مـنـ
أـجـلـهـ وـقـوـتـ أـيـضاـ .. وـتـقـتـلـ وـتـذـبـحـ وـتـخـونـ وـتـبـكـيـ وـتـحـبـ وـتـبـكـيـ وـتـزـوـجـ وـتـكـونـ
آمـاـ أـلـفـ مـرـةـ .. وـلـاـ تـكـونـ زـوـجـةـ إـلـاـ مـرـةـ وـاحـدـةـ .. قـبـلـ أـنـ يـوـلـدـ أـوـلـ طـفـلـ اـ.

قلـتـ هـاـ :ـ فـيـ رـأـيـكـ سـيـكـونـ طـلاقـ بـيـنـتـاـ بـعـدـ كـمـ سـنـةـ ؟ـ .

قـالـتـ :ـ تـفـكـرـ فـيـ الطـلاقـ قـبـلـ أـنـ تـقـرـرـ الزـوـاجـ ..

قلـتـ :ـ تـعـاـماـ كـمـاـ تـفـكـرـيـنـ فـيـ سـرـيرـ الـمـوـلـودـ .. وـغـرـفـ الـأـلـادـ .. قـبـلـ أـنـ
تـزـوـجـ أـهـنـاكـ نـوـعـانـ مـنـ النـسـاءـ :ـ أـمـ وـغـانـيـةـ .. وـكـذـلـكـ نـوـعـانـ مـنـ الرـجـالـ :ـ
أـزـوـاجـ وـمـطـلـقـونـ .. كـمـاـ أـنـ النـسـاءـ يـوـلـدـنـ أـمـهـاتـ ،ـ فـهـنـاكـ نـسـاءـ يـوـلـدـنـ
غـانـيـاتـ .. وـالـرـجـالـ نـوـعـانـ :ـ آـبـاءـ وـعـشـاقـ .. صـدـيقـيـنـيـ أـنـيـ فـوـجـيـتـ بـأـنـيـ
أـبـنـ .. وـلـوـ كـانـ الـأـمـرـ يـيدـيـ مـاـ كـنـتـ وـلـدـاـ لـأـحـدـ ،ـ حـتـىـ لـاـ أـكـوـنـ آـبـاـ لـأـحـدـ اـ.

قـالـتـ :ـ تـقـصـدـ زـوـجاـ لـأـحـدـ ؟ـ .

قلـتـ بـالـضـبـطـ ..

قـالـتـ :ـ إـذـنـ ؟ـ .

قلـتـ :ـ طـلـقـيـنـيـ .. وـأـنـاـ أـطـلـقـكـ اـ.

قـالـتـ :ـ لـمـ أـكـنـ أـتـصـورـ أـنـكـ هـاـزـلـ فـيـ مـوـاـقـفـ الـجـدـ ..

قلـتـ :ـ بـلـ هـذـاـ هـوـ مـنـتـهـيـ الـجـدـ اـ.

ولم تفهم . ولم أقنعها . لأنني لم أحارو .. ولا يصح أن أحارو .. كيف أحارو إقناع امرأة ألا تكون أمّا .. كيف أطلب الطلاق منها ولم تزوج .. ولكن المرأة تولد زوجة لتكون أمّا بعد ذلك - والرجل لا يولد لا زوجا ولا أمّا - وإنها يصير زوجا ويجد نفسه أمّا .

وفي الصباح الباكر ذهبت إلى المسجد لكي أصل الفجر .. الدنيا بود .. والطريق نظيف مثل يد شحاذ غسلها حتى لا يقرف منها كل من يعطيه الحسنة .. ولم أشاً أن أجعل مقعدي وراء خطيب المسجد .. وإنما جلست في آخر المسجد بالقرب من الباب ، فقد أردت أن أستند ظهرى للحائط وأفكر وأتأمل .. ما الذى أطلبه من الله عند كل صلاة .. إننى أطلب منه العفو في الآخرة .. والجنة بعد ذلك ! كأننى في نهاية الحياة ، ولم يبق إلا أن أدعوه أن يجعل نهايتي على خير .. ولكننى لم أبداً حياتى بعد .. ومع ذلك لم أطلب من الله شيئاً لحياتى .. فقط أطلب «الستر» !؟ ولم أناقش فيما بينى وبين نفسى ، ولا فيما بينى وبين أحد معنى الستر .. فهل الستر معناه الغطاء عند النوم ، فلا أتعرى .. والغطاء عند السير فلا يكون حذائى ممزقاً وملابسى أيضاً .. والستر عند ركوب الأنوبيس فلا يسرق أحد مني ثمن التذكرة .. والستر عند الامتحان فلا أرسب .. والستر بعد التخرج فلا أظل عاطلاً طويلاً .. والستر عند الزواج - إن تزوجت ..

هذا هو الستر؟ .

ولكنى مستور الآن .. فلا أحد يعرف ماذا نأكل .. مع أن الذى نأكله فضيحة .. إنه ستر فقط لمن لا يعرفه .. ولكن عندما تمد أيدينا إلى أطباق لا يتغير لونها ، فهذه هى الفضيحة .. ماذا تقول لمن يخمسون الخبر فى ماء وملح !؟ هل هذا هو الستر أيضاً؟ إذا تшاجرت أمى - كانت تتشاجر مع أبي -

فإنها يخفي صوت حتى لا يسمعنا أحد .. ولم يسمعنا أحد .. فهذه هي المخالفة المستورة .. والفضيحة المكتومة .. وعندما أضع جوري في حذائي ، فإنني أجعل الثقوب تحت أصابعى ، وتحت الجزمة تغطى الجحوب والثقوب معا .. هذا هو الستر . فيها أتفه الستر ، وما أتفه الذي نطلب من الله .. وإذا ذهبت بالأتوبيس إلى الجامعة .. نزلت قبلها بمحطة .. لكي أمشي على قدمى ، لكي أوهم زملائى أننى أسكن في المناطق الأنية القرية من الجامعة .. ولم يكتشف أحد الحقيقة .. هذا - إذن - هو الستر !

هل تعرف الرجل «الرافاعى» .. إنه شخص معروف في الريف . إنه رجل يمد يده إلى جحور الثعابين ويمسكها . وينحرجها . وتلتف حول ذراعه ولا تلدغه .. وإذا لدغته فإنها لا تقتله .. هذا الرافاعى قد أخذ عهدا على شيخ الرفاعية .. ثم جاء الشيخ وبصق في فمه .. وكانت هذه البصقة هي سبب المناعة التي عنده ضد سم الثعابين ..

ونحن أيضا .. «رافاعية» .. نمسك ثعابين الجحوب والعطش والبرد واليأس والقرف والضيق بالناس .. كل الناس .. دون أن يصيبنا شيء من ذلك .. فقد بصدق الزمان في أفواهنا وعيوننا وأذاننا وفتح أدمغتنا وحطم قلوبنا وبصق فيها .. بل إننا بصقات الزمان .. لا أحد يضرنا ولا نحن قادرون على الإضرار بأحد .. ولا نحن ننفع أحدا . نحن هامش على هامش الحياة نفسها .. نحن «كمالة» عدد .. ولماذا لا يصدقنا أحد .. لماذا لا تصدقني «أه ..» عندما أقول لها : وحياتك .. أنا ولا حاجة .. أنا لا شيء .. ولدت وسوف أموت هكذا .. بينما أنت شيء وتنوي أن تكوني أشياء ..

نصيحة - قلت لها : إذا أنججت ولدا فأعطيه اسمى .. ثم أضربيه على قفاه

كل يوم .. ولكنك لن تفعل ذلك مع ابنتك .. إذن فلو كان عندك خادم
غيري اسمه واضربيه .. ولكن لا أحد هذه الأيام يستطيع أن يضرب
خادما .. إذن فلو كان عندك فقط .. لو كانت عندك مسحة أمام باب الشقة
فاكتبي اسمى عليها .. والباقي أنت تعرفيه وأنا أعرفه ..

تقول هي : لماذا كل هذا ! .

قلت : لكل الذي قلت لك ..

تسألني : وهل تظن أننى سأفعل ذلك ؟ .

قلت : طبعا ..

قالت : معك حق .. كان من المستحيل أن تخبني أو تتزوجنى ما دام هذا
رأيك .. إننى أحترم صدقك معى ومع نفسك ! .

قلت : آه لو كان الحب يحل لي مشكلة واحدة .. آه لو كان الزواج يحل
مشاكل الحب .. آه لو كان فى استطاعتك أن تكونى العاشقة الزوجة الأم ..

قالت : هذا مستحيل !! .

قلت : فأنا لا أطلب المستحيل .. ».

صار فقيراً .. هل لأنه فقير أصبح مؤمناً؟ .. هل لأننا وراءه نقف
مفتاحي الأفواه والأيدي صار متعباً؟ ..

هل أنا مؤمن؟ نعم .. هل أنا صابر على هذا الذي أراه ولا أفهمه،
والذي أفهمه ولا أحبه؟.

تمنيت في يوم من الأيام أن يكفي أبي عن الصلاة والدعاء ، وأن يستدرجنا
إلى النيل ويفرقنا جميعاً .. ويدعشنى أنه لا يفعل ذلك .. في يوم من الأيام
دار هذا الحديث بيني وبين والدى .. قلت له : على أن شيء نشكر الله؟ .

ولا أعرف كيف أصف لك وجهه .. ولا أين ذهب الألوان والأضواء ..
ولا كيف توارى الصفاء وظهر القلق والغضب .. ثم كيف استطاع أن يمسك
ذلك كله .. وقد تحول كل شيء في عينيه وشفتيه وأصابع يديه إلى أنياب
وأظافر ثم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .. يجب أن نشكر الله الذي أعطاني
الصبر .. فأسمع ولدًا من أولادى يكفر بالله .. ثم لا أقتله بعد ذلك طمعاً
الجنة ..

قلت : أستغفر الله يا أبي .. ولكنني أريد أن أسألك حقاً .. ألم تر الذي
أعطاه الله للناس في أماكن أخرى في حارتنا وفي الأحياء الجميلة في مصر ..
وفى المدن الأجلل والأروع فى أوروبا وأمريكا؟ ..

قال أبي : لا تكمل يا ولدى .. لا أعرف ما الذي أقوله لك .. أنت الآن
يا ولدى على باب الدنيا .. في استطاعتك أن تدخل من الباب .. وفي
استطاعتك أن تسلق الأسوار .. وفي استطاعتك أن تعلم ليكون لك بيت
أجمل وقصر أعظم ومستقبل أروع؟ الأمر لله .. والله قد أعطاك العقل والإرادة
والصحة والأمل .. أما أنا أعطيتك أقصى ما أستطيع .. حرمت نفسي

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة .

فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن

فيمن يلوذ ويستجير المجرم ؟

أدعوك رب كما أمرت تضرعا

فإن ردت يدي فمن ذا يرحم ؟

مال إليك وسيلة إلا الرجا

وخيال عفوك ، ثم إنى مسلم

لابد أن هذه الأبيات الصوفية الجميلة هي التي أعجبت والدى .. ولا يمكن أن تطبق كلها عليه .. وإنما هي هذه الذنوب العظيمة التي ارتكبها أبي ويريد من الله الرحمة .. ويشهدنا نحن جميعا على ذلك ؟ .. إنى أرى والدى بلا ذنب .. لا ذنب له في أن يكون زوجا وأبا لعدد كثير من الأطفال .. وأن يكون ضيق الرزق محدود الضحك نادر الابتسام .. منعدم الصحة والعافية .. فإن لم تكون هذه هي جهنم فهذا عساها أن تكون هذه الحياة؟ .. إننى أنظر إلى والدى في الفجر وهو يصل ويكسى .. فلا انفرجت حالتنا ، ولا دموعه جفت .. ولا افتتحت السماء وأسقطت بعض ما فيها من ذهب وفضة .. ولا تراجعت جدران البيت فاتسعت الحجرة والصالة وارتفاع السقف .. ولا ارتفعت الأرض فأصبحت مصطبة وسريرا .. إننى أنظر إلى والدى من تحت الغطاء فأجد أصابعه تضيء .. وأجد شعاعا من النور يخترق السقف ويحيط على جبين أبي .. وعندما يفرغ من الصلاة أرى الصفاء والرواء في وجهه .. كل ذلك يلقاه رجل مؤمن خلص متعب فقير .. هل لأنه مؤمن

صار فقيراً .. هل لأنه فقير أصبح مؤمناً؟ .. هل لأننا وراءه نقف
مفترحي الأفواه والأيدي صار متعباً؟ ..

هل أنا مؤمن؟ نعم .. هل أنا صابر على هذا الذي أراه ولا أفهمه،
والذي أفهمه ولا أحبه؟ .

تمنيت في يوم من الأيام أن يكفي أبي عن الصلاة والدعاء ، وأن يستدرجنا
إلى النيل ويغرقنا جميعاً .. ويدعشنى أنه لا يفعل ذلك .. في يوم من الأيام
دار هذا الحديث بيني وبين والدى .. قلت له : على أن شئ نشكر الله؟ .

ولا أعرف كيف أصف لك وجهه .. ولا أين ذهب الألوان والأضواء ..
ولا كيف توارى الصفاء وظهر القلق والغضب .. ثم كيف استطاع أن يمسك
ذلك كله .. وقد تحول كل شيء في عينيه وشفتيه وأصابع يديه إلى أنبياء
وأظافر ثم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .. يجب أن نشكر الله الذي أعطاني
الصبر .. فأسمع ولدًا من أولادى يكفر بالله .. ثم لا أقتله بعد ذلك طمعاً في
الجنة ..

قلت : أستغفر الله يا أبي .. ولكنني أريد أن أسألك حقاً .. ألم تر الذي
أعطاه الله للناس في أماكن أخرى في حارتنا وفي الأحياء الجميلة في مصر ..
وفي المدن الأجمل والأروع في أوروبا وأمريكا؟ ..

قال أبي : لا تكمل يا ولدى .. لا أعرف ما الذي أقوله لك .. أنت الآن
يا ولدى على باب الدنيا .. في استطاعتكم أن تدخل من الباب .. وفي
استطاعتكم أن تتسلق الأسوار .. وفي استطاعتكم أن تعمل ليكون لكم بيت
أجمل وقصير أعظم ومستقبل أروع؟ الأمر لله .. والله قد أعطاكم العقل والإرادة
والصحة والأمل .. أما أنا أعطيتك أقصى ما أستطيع .. حرمت نفسي

وأعطيت ، عذبت نفسي لكي أريح ، قهرت نفسي لكي أنتصر بك
رياحونك .. فإن خذلتني فللهم ما قدمت وما فربت ودببت ، والعوض في وجه
الله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

في ذلك اليوم وجدت أبي يغير المسار الذي أمسك اللافتة التي عليها هذه
الأيات الجميلة .. وفي تلك اللحظة أحسست بأنني أيضا يجب أن أطلب
المغفرة من الله .. فقد أذنبت عندما سألت، وقد كفرت بنعمة الله عندما
نسيت .

ومن يومها لم أعد أسأل أبي .. إيهانا بأنه أطيب الناس وأصدقهم فولا
وأعمقهم إيهانا وأجملهم صبرا .. وكلما رأيته وقفت له .. ولم أكن أفعل
ذلك .. وإذا وقفت إن كانت على يده أقبلها وجهها لبطن .. كأنني أطلب
مغفرته .. أو أطلب إليه أن يدعوا الله فيغفر لي .. وكأنني لم أجد دعاء والدى
كافيا .. ثم جعلت أقبل يدي أمي .. أول الأمر اندهشت ، ثم أسعدتها أن
تعتاد على ذلك .. بينما تضيق إخوتى منى ، فلم يكن أحد يفعل ذلك ..
ولا يرى له سببا وجيهـا .

وكانوا يتغامزون ويقولون : يا ترى ما الذى يريد منها ؟ .. وماذا أخذ
سرا؟ هذا المنافق الكاذب الذى لا يصل بانتظام والذى لا يصوم ولا يذهب
إلى المسجد إلا يوم الجمعة ويومين آخرين من كل أسبوع .. لقد أكل عقل
الأب المسكين والأم المريضة !

وفي يوم أيقظنى والدى وهو يقول : هذا أفضل يا ولدى .. فتح الله
عليك ! .

وكان والدى يشير إلى لافتة من ورق قد علقتها أنا إلى جوار اللافتة القديمة
وعليها هذا البيت .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتنقى صوله المستأسد الضارى !
ولما استوضحت والدى ، بعد أن شھضت وقتلت يديه ، أشار إلى اللافتة
الجديدة . . ثم أشار بأن أعود إلى النوم . وعدت .

* * *

هل أنا صادق في انضمامي إلى هذه الجماعة ؟ إننى أجدى بين هؤلاء الزملاء
نوعاً من القوة . . ولا أعرف ما الذى أفعله بهذه القوة . . إننى أشبع واحداً
أمطرت عليه السهام فوجده باباً مفتوحاً فدخل . . ووجد شباباً في مثل سنّة وهم
وغمّه فصافح وعائق وجلس وتحدث وأكل وشرب . . أما الشعور المؤكّد فهو
الدفء . . أما الطريق إلى البيت بعد ذلك . . وأما البيت وأما الأسرة وأما
المستقبل فكلّها جمِيعاً كما تركها في الصباح وبالأمس . . الشارع كالبيت بارد .
والبيت كالمستقبل مظلم ، والمستقبل كالحاضر كالماضي لا شيء ، ومع ذلك
أجدا واحداً مثل أبي يطلب من الله أن يغفر ذنبه . . أي ذنب يا أبي ؟ . .
ألا يكون وجودك هو الذنب ؟ . . هذا جناه أبوك عليك ، وأنت جنيت
 علينا . . وتريد يا أبي أن يغفر الله ذنبك وذنب أبيك ثم تطلب لنفسك
المغفرة ؟ !

وجاء دورى في أن ألقى «موعظة» الخميس . . فالذى أسممه من الإخوان
ليس إلا نوعاً من الوعظ والإرشاد . . إنهم ينصحوننا أن نتحرس من مرض
«الإيدز» . . وهم يعلمون أنه لا سبيل إلى ذلك . . كيف ننصح أنفسنا بالوقاية
من هذا المرض ونحن على يقين جميعاً من أننا لا نرتكب معصية . . وكل
الخطيب تدعى إلى مثل ذلك . . فواحد قد طلب إلينا أن نجعل المعدة : ثلثها
للهاء وثلثها للطعام وثلثها للهواه . . وألا نسرف لأن المعدة بيت الداء . . وأن

الجوع صحة والصوم عافية .. ثم واحد يحدثنا عن مسار الخمر بالصحة ..
ومع أن أحدا لا يشرب أو يفكر في ذلك ..

ولم أقل لأحد : امتنع عن الطعام أو عن الخمر أو ابتعد عن النساء ..
ولأنها قلت : أيتها الإخوان إما أن نعيش زماننا ، وإما أننا موتي .. فإن كنا
موتي فيها هذا الذي تقول ؟ .. فلا يعرف الغضب من كان ميتاً ، ولا يعرف
اليأس من كان حيا .. وأنتم أحياناً تمحدثون عن عذاب القبر ، مع أننا لم
نعش حتى نفكر في الموت .. وأنتم أحياناً تباهون بأنكم تنامون قليلاً
وتسيرون كثيراً عملاً بقوله تعالى : « تتjavاف جنوبهم عن المضاجع » .. يا
إخواني ليس هذا هو الطريق الذي يحقق آمالنا ، وأمال الناس معنا - إن كان
هناك أمل عند أحد منا أو أحد منهم .. فإن كنا أحياء حقاً - ونحن أحياء
فعلاً - فليس هذه هي الحياة التي يجب أن نقبلها .. ولا هذا هو الأسلوب
الذي نرفض به هذه الحياة التي تستدرجنا دائياً إلى الكلام عن الطريق إلى القبر
وعذاب القبر وعداب جهنم ..

قال شاب صغير في حاسة جنونية : اجلس يا كافر !
قلت : كيف يكفر من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله !؟ .
قال : أنا آسف .. وأستغفر الله لي ولك ..
وسألني أبي : ما الذي يشغلك يا ولدي ؟ .
قلت : هذا الذي بينك وبين أمي ..
قال : أنت صغير يا ولدي .
قلت : لست صغيراً للدرجة ألا أقدر على فهم ما يمكن أن تقول .

قال : لم أجده حلا إلا الطلاق .. ولكن هناك دائما .. فقط قررت أن أظل بعقل وقلبي وجسدي بعيدا عنكم .. يا والدى إن لم أفعل ذلك فسوف أسقط ميتا .. وليس بعد موته إلا الجوع لكم والتسلول لأمكم .. وأنت تعرف إيجوتها ، ما أقسامهم .. وتعرف اختها ما أبشعها .. ولو أقمت وحدى بخلافات أمك وأطفالها .. فكاننى لم أفعل شيئا .. ولذلك كان لابد أن أقيم حفلا من ألغام الحرام بيئتنا .. هذا كل ما هنالك . والله أحل الطلاق كما أحل الزواج يا ولدى ..

قلت : ولكن أمى لا تفهم .

قال : هذا واجبك .. إننى لست سعيدا .. والفرق بين الزواج والطلاق : أننى آنام الآن ساعتين أطول .. ساعة في أول الليل وساعة عند عودتى من العمل .. ثم إننى أتعذب بعيدا عنكم .. يكفى أننى لا أعرف ما الذى تفعله في هذه الجماعة التى تغير ملامح وجهك كل يوم .. والتى تجعل حدائقك جافا ، وتجعلك أكثر مرارة وحقدا .. ثم إنها لا تقدم لك ما يريح نفسك ويريح الناس حولك .. ولا أعرف ما الذى تفعلونه من أجل أنفسكم وببلادكم ودينكم .. إن كان الغضب والصرخ هو الذى تتزودون به كل يوم ، فليس أسهل من ذلك .. إننى أستطيع أن أقفل الباب على أصعبك لتصرخ اليوم والأيام التالية .. ولكن ما المعنى ؟ .. ما المدفء ؟ .. ما فائدة ذلك لك ولستقبلك ؟ - هذا هو السؤال يا ولدى ! وأنت تعرف أن الذئاب عاجم من لا كلاب له .. أما الذى يخفف الذئاب فهو : العلم والقوة والإيمان والإرادة والصدق والتضحية . فلأين أنت وأنت من كل هذا ؟ .

لم أجده ما أقوله . وسكتنا .. هو ينظر إلى السقف وأنا أنظر إلى الأرض . وبعد لحظات رفعت رأسى وأنزل رأسه والتقيينا في نظرة متبادلة .. نظرته :

الإيمان العميق والصدق الناصع . . ونظرتى : هي الحيرة والقلق واليأس . .
قللت له : إننا ننتظر .

قال تنتظرون من ؟

قلت : من يأخذ بيدنا . . لابد أن يكون هناك أحد . . لابد أن يظهر . .
أن يجيء . . ونقف وراءه طابورا . . أو نقف أمامه أوركسترا . .

قال : من هذا الذي يجيء ؟ . . تنتظرون واحداً من الكواكب
الأخرى؟ . . واحداً تنشق عنه الأرض؟ . . إن جاء أى أحد فلابد أن يكون
أنت أو غيرك . . لابد أن يكون من بينكم . . من نوعكم . . لابد أن يتقدم
بكم وعليكم . . لابد أن تفزووه كما يفزع اللبن القشدة . . كما ينشق الضوء عن
الشمس . . وكما تتولد الكهرباء من اندفاع الماء . . منكم . . من هذه
المجامعة . . من هذه الحرارة . . من هذه المدينة . . من مصر . . من
المسلمين . . إلا إذا كان من رأيكم أنه سوف يتزل من السماء؟ وأنه لكي يمشي
بين الناس فلابد أن يركب حارا . . وهذا الحمار هو أنت وزملاؤك . . إذن
فأنتم تلتقون كل يوم في زريبة تتبادلون فيها أجمل الكلام ، بينما أنتم أسوأ
المخلوقات . . أناس كرمهم الله ، فقرروا أن تكون لهم أنكر الأصوات . . «إن
أنكر الأصوات لصوت الحمير» صدق الله العظيم . .

فياضية العقل والدين ١١

وعندما أحننت رأسي أنظر إلى الأرض أحسست أن الأرض ليست إلا كوماً
من البرسيم . . ولا تلمست المقعد الذي أجلس عليه شعرت بضيق كائني
جلست فوق ذيلي . . وضيقني هذا العنف الذي اخذه أبي . . كأنه أحس
أني ذلك الحيوان وأن زملائي كذلك . . فجعل كلماته على شكل كرایيج

وانهال بها على ظهرى . . ولما لم يكن هناك أحد من زملائي الأربعين ، فقد أعطاني ما يستحقه الجميع . . فأنا الواحد الذي ناب عن جميع الحمير .

فقلت : فما الذي نفعل يا أبي إذا كنا عاجزين . . فلا نحن قادرون على رفع الظلم أو إقامة العدل ، أو تحقيق المساواة بين الناس أو نشر الرحمة . . ثم إننا عاجزون عن السكوت أيضا . .

فقال : وأين ذهب حديث الرسول عليه السلام : من رأى منكم منكرا فليقومه بيده أو بلسانه أو بقلبه وهذا أضعف الإيمان ؟ . . فهل ليس لديكم أضعف الإيمان ؟ .

قلت : بل هذا هو الذي نملك منه الكثير . .

قال : وهل أضعف الإيمان أن تقولوا لأنفسكم ما تعرفون ؟ . . إنها أن تقولوه للناس في كل مكان . . أن يكون هناك رأى عام من صنعكم . . فهذا هو أضعف الإيمان . . يانقصى العقل والدين ! .

* * *

ومن ذلك اليوم وأنا لم أعد أجد في نفسي الشجاعة على أن أتحدث إلى زملائي . . فأنا أضعف كثيرا من أبي . . فهو بركان ساكن . . ويكفي أن تجلس على مقربة منه وتعطيه أذنك لتسمع الغليان والدخان والتهب . . ولترى الحمم .

وكليا نقلت إلى زملائي ما سمعت من أبي تلفتوا بعضهم إلى بعض وتهامسوا . . فأحس كأنني لست واحدا منهم . . أو كأنني منشق عليهم . . وأنهم لذلك يعرفون مالا أعرف ، وأثنى بحسب لا أعرف ما يعرفون ، ويقولون في كورال غنائى : ليس الآن ! .

أى أنهم يعرفون كل الذى قاله أبي . ولكن يرون أن الوقت لم يحن بعد ..
أى أنهم فى حالة ضعف وعجز .. وأنهم أرادوا ذلك .. ولم يأت الوقت
ال المناسب لينكشف الغطاء عن البراكين والزلزال .. وأنهم أوركسترا قد حفظ
النوتة الموسيقية .. فإذا ظهر المايسترو المنتظر ، عزفوا لحنا ناريا واحدا ..

سألت : في هذا الجيل ؟ .

وفى «كورال» واحد قالوا : طبعا ! .

* * *

ولما قلت لأمى : أريد أن أعيش مع والدى فهو مريض وفي حاجة إلى
وجودى معه .

قالت وهى تبكي : طول عمرى وأنا أقول إنك ابنه ولست ابني .
وأقول لها : يا أمى أنت لا تعرفين ..

وتقول : أنت وحدك الذى تعرف .. وهل أنا تعلمت فى الجامعه ؟ ..
ومن أين يجيء البخت إذا كان لا بخت لي مع أولادى ! .. وأنت الذى كنت
أدخره للزمن . وأنت العقل والخنان .. حتى أنت .. الله يسامحه أبوك ..
افعل ما بدا لك يا ولدى .

وأقول وأمسح يديها فى وجهى : ولكنك يا أمى لا تفهمين ..

* * *

وقررت أن أكون الكلب الذى يحمى إخوتى من الذئاب . ولكن لن أكون
واحدا من الحمير التى تنتظر عودة المهدى المنتظر .. فهناك ألف طريقة أخرى
لفتح الأبواب والنواقل فى جدران المستقبل بلا دم ولا عتف ولا حقد - والله
أعلم .. .

نهاية كل نكسة بايجنة

«.. قالوها في الأمثال :

أعزب : سيد الناس

متزوج : ككل الناس :

مطلق : أتعس الناس » ..

ولكنني قررت أن أتزوج .. ولا شيء يدل على أنني إنسان مستقيم إلا هذه الرغبة القوية في أن أكون ككل الناس .. وقد لاحظت أنني كأعزب لست سيد الناس .. بل إنني دون الناس .. فأنا وحدي طول الوقت لا أجده أحداً أكلمه . وإذا كلمته ففي السياسة والاقتصاد والدين .. الكلام كله من لون وطعم ورائحة واحدة .. كله يبعث على القرف واليأس .. وإذا كانت هذه هي حال العزاب فكيف يكون حال المتزوجين؟ .. لابد أن نفترض الهم والغم معاً .. أو نضاعف كل ذلك .. ونرتبه وننظمه ثم نلقى بعضه في الزياالة ، والباقي أجعله عقداً يلتف حول رقبة المحبوبة .. أنا قلت محبوبة؟ وهل مثل يستطيع أن يحب؟ .. أتنى أن أحب ولكن .. ما الذي أقوله لمن أحبها؟ أقول لها : أحبك ..

فإذا قالت لي : كيف تحبني وأنت لا تعرفني إلا منذ لحظات؟ ..

فـسأقول لها : إنه الحب من أول نظرة ..

وتقول لي : وأنت تصدق ذلك ؟ .. من أول نظرة ؟ ما الذي رأيته من أول نظرة ، ثم قررت أن تجربني ؟ .. رأيت وجهي ؟ وهل الوجه يدل على أننى أبادلك الحب ؟ كيف ؟ هل الحب قرار من طرف واحد .. ويكون القرار للرجل لأنه أشجع وأجرأ ؟ .. ما رأيك إذا قلت لواحدة أنك تحبها وأنك قررت أن تتزوجها وتبني عشك السعيد وأسرتك ؟ .. نفرض أنك قلت لها هكذا فقالت : رح العب بعيدا .. ابحث لك عن وظيفة لكي تشتري لك حذاء أنظف وقميصاً أفضل وصابوناً أعلم تغسل به وجهك وحلقاً يقص لك شعرك .. ماذا تقول لها ؟ .. هل تقول لها أرجوك !؟ .

أقول لها : إن هناك نوعاً من الناس عندهم القدرة على أن يفهموا في لحظة واحدة ما يفهمه الآخرون في ساعات .. وأنا من هذا النوع من الناس .. رأيتكم ففهمتكم .. عرفت أعماليك .. فأحببتك وأعتقد أنك سوف تحببتنى .. فأنت جادة وأنت على خلق وأنت بسيطة وأنت من بنات الطبقة التي أنتسب إليها .

وسوف ترد هي على قائلة : هذا الذي تتحدث عنه يجيء في الأهمية رقم تسعة في قائمة الضروريات في حياتى . فالضرورة الأولى أن أتعلم . وقد تعلمت . والضرورة الثانية أن أعمل . والضرورة الثالثة أن أعطى لنفسى فرصة لكي أفهم الدنيا حولى .. والضرورة الرابعة أن أساعد أسرتى وإخوتي الصغار على إكمال تعليمهم .. والضرورة الخامسة أن أعالج أمى .. والضرورة السادسة أن ننتقل من هذا البيت الحقير الذى ولدت فيه إلى بيت فى مكان آخر لكي نطفئوا على وجه الدنيا بعد أن عشنا فى قاع الحياة . والضرورة السابعة أن أنتظر حتى تتزوج أختى الكبرى ، والضرورة الثامنة أن أجد عملاً بعد الظهر

لأن مرتبى كموظفة في الحكومة لا يكفى إلا الإيجار والشاي والسكر واللبن والنور . والضرورة التاسعة أن أجد صديقة واحدة قريبة مني . . في العمل أو في السكن . . وعلى هذه الصديقة أعتمد اعتمادا أساسيا في حياتي العلمية والاجتماعية . . ولا شيء يخفف من عذاب الدنيا كلها إلا الصديقة الصدق . والضرورة العاشرة هي أن أجد أولاداً حلال وأن اختار منهم الشاب المناسب أو العجوز المناسب الذي يدللنى ويعطينى المال ويتركلى الشقة ويرحل عن هذا العالم دون أن يتركلى أولادا . . والشقة هي الخطوة الأولى في سبيل الزواج من الشاب الذي أحبه .

وإذا قالت لي ذلك فلا أعرف ما الذي أقوله لها . . وسوف أجده أنسان سخيف جداً وأنا نفي وتألف ، وأنا أبحث عن وردة في سلخانة الحياة . . وأنا كالذى يجرى دماء الأثوبيس وهو يتلو قصيدة غزل في واحدة لا تعرف كيف تتضع قدمها على سلم الأثوبيس . . هنا يزغدها وهذا يقرصها وهذا يلتتصق بها وعينها طول الوقت على حقيقة يدها والسلسلة الذهبية في رقبتها .

وأحسست كأنني صفت نفسي بالقلم وركلت نفسي بالشلوت .
وبصقت على المرأة التي أمامي .

وقلت لنفسي : أنا الذي اخترت هذا الحوار . . واخترت هذا النوع من الفتيات ، ذات المشاكل التي تعيش من أجل غيرها . . والتى لا تفك لحظة في أن تكون أناانية مثل . شعارها : أنا وبعدى لا أحد . . أنا أولاً . . وإنحني وأمى رأبى ثانياً . . يجب أن أعيش بأى شكل وعلى أى درجة من القناعة . . وقررت أن أكون عملياً . ولا حب ولا رفت . فليس هذا زمان الحب . . عندما يكون الرغيف هو قمر ١٤ في كل بيت ، فالمعدة هي التي يجب أن

تكلم . . أما القلب فهذه الكلمة لا يعرفها إلا الذين أكلوا وشربوا وشبعوا وأرادوا أن يكملوا الصورة الإنسانية للحياة . . أما الأفاسى التي ترتفع على معدتها ومصارينها مثل ، فلا قلب ولا حب . . هذا هو الكلام . . وهذا هو المنطق .

ذهبت إليها . . إنها تسكن في بولاق الديكور . . أبوها بقال . . وهي تقف في الديكان بعد الظهر من كل يوم . . قلت لها : صباح الخير . .
قالت : أهلاً ، . . ما الذي أتي بك هنا ؟ .

قلت : هنا ! ولكن هنا مثل هناك . . في بولاق الديكور لا تختلف عن القلعة . . والطين تحت أقدامكم ، والهباب الذى فوق دماغنا هو طين معلق في الهواء في انتظار المطر . . والطين الذى تحت قدميك هو هباب أدركه المطر . . نحن متشابهان كما ترين . . ليس في هذا فقط . . ولكن في هذا الذى على لسانك ولسانك والذى في نفسك ونفسى . . أنا أعرف . . أنا على يقين . . فقد رأيتك ، لم تنطقى بكلمة . . ولكن رأيت وجهك وأراحتى الذى رأيت . . ونظرت إلى عينيك ، وجدت في الحزم مرشدًا سياحيًا إلى أعماقك . . وعرفت الذى عندك . . إنه الذى عندى . . والذى تخفيته عن الناس كالذى تخفيه أيضًا . . فلا أمل عندك ، ولا عندى ، وأنت تشعرين بالضياع . . أعرف ذلك . . تتعلمين وبعد ذلك تقفين في الديكان . . فهل تحتاجين إلى درجة جيد جدًا في البكالوريوس لكي تبيعي علبة كبريت أو قطعة جبن . . ولكنها عقدة أتنا فقراء . . وغلطة الدولة أيضًا أنها جعلت التعليم مجانًا للأبناء الفقراء . . لقد حولتهم من ساخطين جهله ، إلى غاضبين متعلمين . . لقد حولتنا من دجاج يلعب في الطين إلى صقر تلعن الطين . . من نباتات ينشئها الطين ، إلى حيوانات يعترفها الطين . . هل تعرفين ما علاجنا نحن

الاثنين؟ صدقيني .. إنني لا أخدعك .. ولا أكذب عليك .. لقد حوشت لك كل هذه الكلمات منذ رأيتها .. وربتها .. ونسقتها وتدرست على إلقائها أمامك .. وتخيلت كل ماسوف تقولين .. لا علاج لنا إلا الزواج .. انتظري حتى أكمل كلامي وسوف أتصرف دون أن أسمع منك تعليقاً .. ولن أراك بعد ذلك .. فانا أناى أردت أن أريح نفسي وأن أرى في عينيك اتهامى بالجنون .. فهو عقوبة أستحقها ، لأننى فاجأتك بكل شيء .. أنا أقول لك : لماذا الزواج؟ .. انتظرينى ..

وجهه واحد يشتري ورنيشا للأحدية .. وجاءت واحدة تسأل إن كانت تتبع بزيارة للطفل .. وجاءت عجوز تسجل عن بخور ..

واستأنفت كلامى ، والدهشة على وجهها تحول إلى ذهول .. إلى رثاء ، إلى استعداد لأن تسمع؟ وتنظاهرت أنى لا ألاحظ ذلك .. قلت : أنت هنا لماذا تعملين؟ .. أنت تنوبين عن والدك .. ولا بد أنه يقول عنك : إنك رجل .. وأسعدك هذا الوصف .. ولا بد أنه قد أوصاك على إخوتوك وقال لك : أنت الأب والأم وأنت أم لأمك أيضاً وأنت زوجها .. وأنت رجل البيت .. وقد أثبتت أنك قادرة على القيام بهذه الوظيفة .. وعمله هذه الأماكن .. أنا متأكد أن هذا قد حدث .. ولكن لن تستمرى في ذلك بعد حديثى معك .. لقد فكرت في كل شيء .. وإخوتوك لا بد أنهم ينظرون إليك على أنك كبير البيت .. ورجل العائلة .. وأسعدك أن يعتمدوا جميعاً عليك .. وأسعدك أكثر أن تكونى أمّا للمجتمع .. فلا شيء يسعد المرأة أكثر من الأمومة .. وأنت تجمعت فيك الأنوثة والرجلة والأمومة .. ولكن صدقيني : هذه رشوة .. هذا تزوير في أوراق رسمية .. عندما جعلوك أمّا متوجة ، سرقوا منك حقك في أن تكونى أمّا بالفعل .. أي زوجة لمن تحبين ثم أمّا

لأولاده .. ضحكوا عليك .. ناموا لتظل أنت ساهرة ، استراحتوا لتشقى ،
هم في البيت وأنت في الدكان ، وقبل ذلك وبعد ذلك في الجامعة .. أهدروا
حقك في أن تكون لك حياة أفضل .. لماذا تعلمت ؟ لماذا تفكرين في أن
تعمل ؟ أنت الآن لا تريدين أن تعمل ولا أن تستفيدي بها تعلمت لماذا ؟ لقد
جعلوك الأم المثالية والرجل المثال .. بينما أنت سعيدة بهذه الألقاب سرقوا
بطاقتك الشخصية وملاؤها على الوجه الآتي : متزوجة ولها أولاد من أبيها ،
ويموت من أجل أن يعيش إخوتها .. وهم يذكرونك بذلك لكي تنسى أنك
فتاة في العشرينات .. ولابد أن تكون لك حياة .. وأن تتزوجي من ترينه كفأ
لك .. وأنا أرى أنني كفء وأدعوك لأن تفكري في ذلك .. وأنا على يقين من
أنك لن تعرف النوم هذه الليلة .. فقد أقمت على كل خلية من خلاياك رجالاً
مسحراتيا يدق الطبلة ليوقظك لا لكي تتنفس عن الطعام ، ولكن لكي تتناول
إفطارك .. فقد جعلوك صائمة الدهر كله .. ولم يعد عندي ما أقوله لك ..
أتركك في عافية .. وأراك عندما تريدين في مكتبة الكلية .. وسوف أكون في
انتظارك دائمًا ، وأرجو ألا يطول .. أقول لك .. غدًا ظهرًا .

سافل .. حقير .. قلت هذا لنفسي .. إن بعض يشتم بعض .. إن
بعض يكذب بعض .. لم أكن سافلًا .. وإنما كنت فقط عمليًا أكثر مما
يجب .. ثم أردت أن أصدّمها .. أن أوقظها .. أن أوهمها بأنني فكرت
وفكرت .. ولم أطق صبرًا .. وكان لابد أن أبلغها بقرارى ..

ولابد أن يسعدها كثيرًا جدًا أن تشعر بأنني فكرت فيها .. وأنني
اخترتها .. وأنني وجدتها الأفضل .. وسوف يسعدها أكثر أن أكون هذا
الشاب الشجاع الذي استطاع من نظرة واحدة ومن مقابلة واحدة أن ينفذ إلى
أعمق أحماقها .. وأنا أعرف بالضبط ما الذي تحس به .. لقد كنت عنيفًا ..

لقد زلزلتها . . أطربت النوم من عينيها . . ففتحت عينيها على «الآخر» لترى نفسها عبداً ذليلاً يخدم الجميع وينسى نفسه . . إنها مستباحة . . إنها قطاع عام لأسرتها . . لهم حقوق عندها . . ولا حق لها . . كل ما تعلمه هو واجب عليها . . وإذا مرضت فكان الله في عونها ، ولا أحد منهم في عونها . . إنهم ينحصرون عمرها ويضيغونه إلى أحجارهم . . لا حق لها في أن تنام ولا أن تمرض ، ولا حق لها في أن تفك في أي شيء آخر إلا راحتهم . . وسوف ينهارون جميعاً إذا سمعوها تفك في العمل . . أو في الزواج . . فمعنى ذلك خراب البيت والدكان معًا . . مع أن لها إخوة أكبر . . ولكن لا يصح لهم أن يقفوا في الدكان . . هي فقط . . لماذا ؟ لم تسأل نفسها إلا اليوم . . ولماذا هي وليس إخواتها ؟ لقد تعلمت مثلهم . . ومن حقها ، مثلهم تماماً ، أن يكون لها بيت وأن يكون زوجها متعلماً ، كزوجاتهم المتعلمات . . لم تسأل نفسها قبل الآن : لماذا هي ؟ الآن فقط . . سوف تنهال هي عليهم بأسئلة كالصواعق . . وأول قرار لها : أنها تعبت وتريد من إخواتها صغاراً وكباراً أن يساهموا . . وأنها لن تقف وحدها لا في الدكان ولا في الحياة . . ولن تكون وحدها الضحية ، لن تكون عروس النيل التي جلوها وزينوها وزغردوا لها لكي يلقوا بها في النيل . .

فهي عروس الموت !

ليس بعد اليوم .

* * *

وفي المكتبة التقينا . .

لقد وجدت على وجهها الحزن الهادئ . . كأنها اتفقت مع نفسها على كل

شيء . أرهقتها المناقشة . وأعياها الاتفاق . وجاءت لكي «بضم» فقط ..

قلت لها : هيابنا .

هرت رأسها بالموافقة ..

قلت : هل تعرفين إلى أين ؟ .

هرت رأسها بعما معناه لا يهم أين وإنما المهم أن نخرج معنا إلى أي مكان ..

قلت : إلى المأذون .

هرت رأسها قائلة : فليكن ! .

قلت : كيف قررت ذلك ؟ .

قالت : وهل كنت تهزر بالأمس ؟ .

قلت : لا ..

قالت : إذن فقد اتفقنا .

* * *

وأمام المأذون قلت له : قل يا مولانا ما هي شروط الزواج ؟ .

قال : القبول .. الاتفاق فيها يبنكلها ما دمتها راشدين ..

قلت : هل لك أولاد ؟ .

قال نعم ..

قلت : لو كانوا طلبة في الجامعة هل توافق على زواجهم ؟ .

قال : طلبة يتزوجون ؟ ومن أين يأكلون ويسكنون ؟ وكيف يطعمون أولادهم ..

قلت : أنت تستضيفهم بعض الوقت .

قال : وإذا كان هناك أولاد غيرهم في المدرسة ؟

قلت : إذن فأنت لا تتوافق على زواج من هم في مثل سنتنا ولم يجدوا عملاً ..
بعد ؟ ..

قال : طبعاً لا ..

قلت : إذا نحن صمممنا على الزواج ؟ .

قال : أنتم أحرار .. واللى يشيل قربة على رأسه .. وأنت عارف المثل ..
وأنت يا ابنتى ليس لك رأى ؟ .

قالت : أنا من رأيه .

قال : وما هو رأيه .

قالت : أن تزوج ويعيش هو عند أهله .. وأعيش أنا عند أهلي .. حتى
إذا وجدنا عملاً انتقلنا معًا إلى عش الزوجية .

قلت : لم أقل ذلك .

قالت : فهذا قلت ..

قلت : تزوج وتعيش مع فضيلة الأستاذ . فهو بلا أولاد .. ثم إن زوجته
تدبر دكاناً .. أنا أساعده كماؤون وأنت تساعدين زوجته في الدكان حتى
يفرجها ربنا .

قالت : ألم يقل لك أحد قبل اليوم أنك سافل وحقير ؟ .

قلت : قبل الآن ؟ لا ..

قالت : سوف تسمعها كثيراً .. ولكنني لم يفوتنى أن أشكرك ، فقد

أيقظتني وفتحت عيني .. و كنت أنت أول وجه وصوت و شاب أراه .. و أول طراز من الناس يجب أن أبتعد عنه .. والحمد لله الذي فضحك وكشفك أمامي ..

قلت : ولكنني أداعبك .. فانا فقط أردت أن ترتبط .. وأن يظل هذا الرباط سراً بيننا .. وأنت تعلمين أنني شاب مؤمن بالله .. وأنما لم أخدعك .. صدقيني ..

قالت : إذا كنت تهزل في موقف يعتبر نقطة تحول في حياتي .. وفي حياتك .. فإنني لا آمن على نفسي إذا حدثت لنا مواقف أعنف وأعقد أن أجدهك قد هربت أو طلقتني أو تزوجت خيرى على سبيل المزار .. وعلى كل فعندي فرصة تتعلم فيها كيف تهزر وتهزل وتضحك وتنكت .. أما أنا فقد عرفت ما الذي يجب أن أعمله في البيت والدكان . سلام عليكم يا فضيلة الأستاذ ..

* * *

وخرجت . ولم أنس ليتها ولا أسبوعها ولا شهراً .. ماذا حدث ١٩ .
إذا كنت قد خبطة دماغها في الخاطط فسقطت منه المخاوف والأفكار السخيفة .. فهي قد فتحت دماغي نصفين : كل نصف يلعن الآخر . وقد تدللي النصفان ليتمكن الفم من البصق عليهما ..

* * *

وندمت كثيراً وبكيت .. فقد حاولت أن أكون خفيف الدم ، فكان الثمن فادحاً ..

امضِ حفْظَ حقوقِ السُّيُوفِ!

جلستنا مثل كل يوم .. كل واحد يقول .. ويستكث .. بيستنا واحد نطلق عليه اسم «المعايرجي».

أى الذى يزد كل ما نقول وينتار له اسمً .. ونترك القضية وتنافس فى مدى انطباق الاسم على المشاكل التى تحدث عنها .. وطال الكلام جبالاً لا ترى أوطها من آخرها .. وتناثر الكلام تراباً حجب عنا الرؤية .. فلم نعد نرى ما يقول الواحد منا ، إن كان يقول :

قال أحدنا : دعوني أقل لكم شيئاً مختلفاً ولا يهمنى ما الاسم الذى تطلقونه على الذى أقول :

لَيْتْ شَعْرِيْ هَلْ زَمَانِيْ

بَعْدَ ذَا الْبَعْدِ يَجِدُ

مَا أَرَى الشَّدَّةُ إِلَّا

كَلِمًا جَازَتْ تَرِيدُ

يَنْقُضُ يَوْمَ فَيَوْمٍ

فِي حَدِيثٍ لَا يَغِيَّدُ

فمني اليوم الذي
أبلغ فيه ما أريد ؟

وقلنا جميعاً : متى ؟ في المساء !

فعاد يقول : هذه الأبيات لم تعجبكم .. إذن فهذه :

أصبحت لا شغل ولا عطلة

مذبذبًا في صفة خاصة

وجملة الأمر وتفصيله

أن صرت : لا دنيا ولا آخراً !

قلنا : ياه .. يا يختة ..

قال : إذن فلم يعجبكم كلام أرق الشعراء : البهاء زهير .. أنا أعرف ما
الذي يعجبكم .. اسمعوا :

صغر الرغيف كأنها هو قطعة

من قلب تاجرها أو جلد البائع

هل صار وهمًا أو سخيلاً ، أنه

قد عاد غير مؤمل أو نافع

قد كان شيخًا للطعم فما له

قد صار شبه وليد شهر سابع

القمع أوفر غلة في أرضكم

والأرض لم تنكب بمحل فاجع

والنيل ما زال الوف بعهده
يجرى بسلسال وفيرة هامع
يا للرغيف ويا هول ضمورة
قد صار أمنية لبطش الشابع
جوعوا تصحوا واذكروها محنة
فالمجد لم يخلد لغير الجائع !

قال المعايرجي : هذه الأبيات لعبد الحميد الديب .. صعلوك القراء ،
وغير الصعاليك .. وهذه الأبيات لأنها قد جاءت على ذهنك فهي دليل على
نزعة الهروب المتمكنة عندك .. فأنت هارب جبان . فبدلاً من أن تهرب
بخدمتك ، فإنك تستعين أقدام الآخرين وتهرب .. بل إنك لم تستأذن أحداً في
الهروب بخدمته .. فأنت جبان لص .. وكل المصووص جبناء ..

قال أحدهنا : يريد أن يقول إن كل الأمانة شجعان .. فهل أنت شجاع
يا أيها الأمين على أفكارنا .. والأمير على نشاطنا ؟ .

قال المعايرجي : وهل أنا سرقت ؟ .

قيل له : أنت أمين لأنك لم تسرق فقط .. فأنت لص في الانتظار .. أنت
لص تحت التمرين .. ونحن لا نسمى الراهب في صومعته شريفاً .. ولكن
أقوى من الراهب وأعظم ، من يتعرض للفتنة كل يوم ثم لا يسقط .. هذا هو
الزاهد الشجاع ، هذا هو الشريف القوى .. وأنت شريف لأن أحداً لم
يمتحن قدرتك على المقاومة .. أنت الذي ينطبق عليه قول الشاعر :

لا يعف الناس إلا عاجزينا !

وقال أحدهنا : دعونا من الشعر .. والكلام الفارغ الموزون .. دعونا من العبث الموسيقى .. فلنعد إلى ما كنا فيه بالأمس .. هذه هي القضية .. هل تفضلون أن أعيد عرض المشكلة أو أن يتولى ذلك أحد غيري ..

قلت : أنا أعرضها .. ما هذا الذي تفكرون فيه .. ولماذا نحن نقف عند التفكير .. و اختيار الكلمات والعنوانين .. لماذا نكتفى بوضع مسميات الأشياء .. ولا نذهب إلى أبعد من انتقاء الألفاظ والاختلاف والاتفاق حول ذلك .. أنا لا يهمني أن نسمى شجرة القممع : شجرة قمح أو شجرة حنطة أو شجرة برق .. لا يهمني .. إنها شجرة فيها يدور نظرها وتصنع منها الرغيف الصغير أو الكبير الذي نجده أو الذي لا نجده .. إن موضوعنا هو لماذا الرغيف صغير .. ولماذا هو بعيد .. وإن كان الرغيف ضروريًا أو الجاتوه هو الضروري .. وإن كان «الغموس» متوافرا .. وإن كانت الدنيا قطاراً يمشي على عجلات وهذه العجلات هي الرغيف .. وإن كان الغضب والسخط والثورات من أجل ويسبب الرغيف .. وإن كان صحيحاً ما يقال : قل لي ما هو شكل الرغيف الذي تأكله ، وأنا أقوله لك من أنت .. هل صحيح ما يقال : كما تأكل تكون .. أو كما تفكرون .. أو كما تعبد تكون .. أو كما تحب تكون ..

قال المعايرجي : هذا هو المدخل الصحيح للقضية .. المدخل الاقتصادي.

قال أحدهنا : ليس اقتصادياً فقط .. إنه اجتماعي .. ديني ..

وقيل : وشاعري أيضاً ..

قلت : المهم أن نضع أيديينا على شيء محدد .. وأن يستقر أمامنا فنتظر إليه من كل نواحية ..

قيل : كل شيء يبدأ من فوق .. من السماء .. من الله .. إلى القلب ..

قال المعايرجي : آه .. هذا هو التفسير الديني للتاريخ .. لا بأس فالإنسان حيوان متدين .. فقد عبد الإنسان كل القوى الطبيعية .. ومصادر الحياة والموت .. ثم انتقل من عبادة الملك .. إلى عبادة الشمس .. إلى عبادة الله الواحد الأحد ..

قيل له : نريد تفسيرًا ..

وكان التفسير : ما لم نكن نعبد الله جيًّا ، ونعرف قلوبنا الرحة ، فلن نفرض العدل على الناس .. وإذا لم يكن عدل ، فلا رغيف في كل بيت .. أى وإذا لم يكن رغيف في بيتي ، نظرت إلى رغيف غيري ، وإذا منعت يدي ، فإن غيري لن يفعل .. وإذا سرق غيري ، فلابد أن نجد تفسيرًا أو تدبيرًا أو عذرًا .. هل إذا سرق الجائع يكون سارقًا ؟ وهل إذا سرق الشبعان يكون سارقًا ؟ ..

قال المعايرجي : نحن ما نزال على عتبة التفسير الديني للتاريخ ..

فقيل له : إن كل المذاهب السياسية لكي تسيطر على الناس تعطى نفسها مذاكًا دينيًّا .. فيقال : إرادة الشعب من إرادة الله .. أى أن الله هو الذي أراد ما يريده الزعماء السياسيون وفلسفه الاقتصاد .. وأتباع ماركس وأتباع خوميني وأتباع ماور جيًّا متعصبون وتعصبهم ديني .. كل واحد يرى أنه لا ينطق عن الهوى ، وإنما عن حكمة السماء في تحقيق العدل بين الناس .. بالدم .. أو بفرض الرأى بال الحديد ، وغسله بالدم وتبيشيره بمكان أنيق فخم في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .. وهذه الجنة بوابتها الكبرى في طهران وموسكو وبكين .. وهناك جنات أخرى لها مداخل أكثر فخامة في نيويورك وباريس ..

ويكفي أن ترى ما يسئل دما بين إيران والعراق .. إنهم جميعا رفعوا المصاحف على السيف .. ويموتون شهداء في سبيل الله .. وضحاياهم في الجنة ونعم القرار .. وهم جميعا من المسلمين : الإسلام دينهم والقرآن دستورهم ومحمد رسولهم والصلوات والحج الصوم والزكاة فريضتهم .. وأن لا إله إلا الله محمد رسول الله .. فهل هي مشكلة الرغيف ؟ أو هي مشكلة العداء القديم بين الفرس والعرب .. بين السنة والشيعة .. أو هو انتقام رجل واحد هو الخميني لما لقيه في العراق .. هل هي الختمية التاريخية لاستنزاف الأموال الكثيرة في الخليج .. في التاريخ حوادث عائلة .. فالمصريون عندما تكاثرت أموالهم ، أقاموا الأهرامات لتأكل أموالهم وطاقة شعبهم .. والصين أقامت الحائط العظيم ، استنزافاً لمواردها من المال والرجال .. والأمريكان والروس بددوا أموالهم في إطلاق الصواريخ وسفن الفضاء .. ألاف ملايين الدولارات قادرة على إطعام الجميع الأمريكيان الذين ينامون بالملالين على الأرض وفي المجاري تحت الأرض يأكلون الفتنان الشعابين - أفلامهم تقول ذلك ! هكذا ، نجد التاريخ قد فرض العدل والعنف بين الناس .. أي المساواة في الحقد والرغبة في الانتقام وفي العذاب وفي الدموع وفي الفقر .. وفي الموت قبل وأثناء وبعد ذلك !

قال أحدهنا : يعني إيه .. نريد كلاماً واضحاً .. أريد أن أجيب عن هذا السؤال : نحن نخرجنا في الجامعة .. ونعمل كلنا .. وفي نيتنا أن نتزوج زميلات عاملات .. كيف نعيش .. أين نسكن وماذا نأكل ؟ .. وماذا نفعل بأولادنا ؟ .. هل نبقى في مصر أو نهاجر .. هذه هي القضية .. ولا تخدشني عن طهران وبغداد ونيويورك وتل أبيب .. قل لي كلاماً مفيداً .. لا أريد أن أتوه وراءك ، فأنا تائه أباً عن جد ، قل لي متى يتنهى الضياع ؟ ..

وقل لي ما هو دورى؟ .. دورنا .. ما الذى يجب أن نفعله الآن وفوراً؟ ..
وإذا لم نجد كلاماً نقوله ، فليذهب كل منا إلى أى مكان آخر .. وينام
أوينقلب في فراشه بلا نوم ..

قال المعايرجي : نريد حلاً الآن .. الآن؟ وتريد مني أن أجد لك
الحل؟ .. وهل عندي كل المعلومات ، وإذا كانت عندي كل السلطات فهل
أنا وحدي الذى يفك ويفر؟ .. ثم من أنت حتى تطلب حلاً لمشكلتك
وحدهك؟ .. ومن نحن جميعاً حتى نعطي لأنفسنا كل هذه الحقوق على شعب
مصر وشعوب الأمة العربية؟ أنت نسيت أنك تجلس على برميل فارغ على
ناصية شارع ٢٦ يوليو ..

قال أحدهنا : يعني إيه .. يعني لا يصح أن نفك .. وهل إذا سألك
واحد منا ، احتقرت أمره .. ويكون هذا الاحتقار باعثاً لل Yas .. أنت تشبه
بنات الجرجون في الأساطير الإغريقية .. فالواحدة إذا نظرت إلى شيء جعلته
حجراً .. وهكذا كل ما حولها حجر .. الناس والنبات والماء .. ويوم قرروا
القضاء على الجرجون جعلوها تنظر في مرآة فلما رأت نفسها تحولت إلى حجر ..
وليس أمامك إلا أن تختقر من سألك .. مع أنك ولا حاجة .. أنت لم تقرأ
وأنت خنزير وأبوك رجل غنى .. وعندما ولدوك حللت الخادمة .. وأعطيتك
خادمة أخرى .. ثم توفيت أمك بعد ذلك . كأنها قد عرفت مستقبلك ..
خنزيراً من تربية الخادمات .. ثم أجلسناك على منصة الحكم لتقرر لنا
مستقبلنا معاً .. كيف تفعل ذلك وأنت لم تتقدم خطوة واحدة .. لا قرأت
ولا كتبت ولا فكرت ولا تعذبت .. أنا قد رأيت مثلك على جدران معبد الملكة
حتشبوس .. فقد رأيت عدداً من النadies .. يستأجر ونهن ليشنعلن الحزن
والأسى في قلب أهل الفقير .. وأنت نداية هذه المجموعة .. فأنت كذاب

الدموع ، مزيف الآهات .. لا عزيز لك ولا فقيد .. فهل بعد ذلك ما تزال
تريد أن تجلس في مقعد القاضي العادل الفاضل ؟ انزل واتركنا نفكر وحدنا
بعد أن استغنينا عن خدمتك المضلة ..

إذا كان لابد من استخدام الألوان للدلالة على نهاية تلك المناقشة ، فاللون
الأسود لا يدل علينا تماماً .. وإنها هوأسود مع قليل من الانحراف الذي هو
الأمل ، ومع قليل من الزرقة التي هي الشرف ، والقليل من الأحمر الذي هو
الغضب ، واللون الأصفر الذي هو بعض المراة .. تلك كانت ليتنا .. حتى
النجوم توارت .. فقد كانت مثل علامات الضم والفتح والكسر فوق وتحت
كلمات لا نريد أن ننطقها .. وإنها كانت تساقط منا دون أن ندرى بها أو
تدرى هي بنا ..

قال أحدها : نمشي ؟ هل نمشي إلى البيت ..

قيل له : يا أخي هل من الضروري أن تعود إلى البيت .. نمشي والسلام ،
نمشي كأنه ليس عندنا بيت - والحقيقة ليس عندنا بيت .. إنه مأوى ..
مخباً .. إنها مقبرة .. ندخلها أحياء وننام نصف أحياء .. ثم نصحو .. هذه
هي معجزة الخلق .. معجزة الإبداع اليومي لله سبحانه وتعالى .. نموت كل
يوم ، وتشاء رحمته أن تبعث فيها الحياة كل يوم .. أما غيرنا فالحياة قضية
مسلمة .. ينامون وهم على يقين من أنهم سوف ينهضون أحياء في اليوم
التالي .. أما نحن فلسنا على يقين من الحياة مرة أخرى .. ولكن الله يملئ لنا
ويحيينا كل يوم .. فما الذي نفعله ب حياتنا؟ !!

أقول لك ماذا نفعل بالضبط : نجلس متجلسين لا أحد يدير وجهه
للآخر .. فنحن نسمع ونردد .. دون أن ينظر واحد منا إلى الآخر .. هل تعلم
أنه في العام الماضي سقط أحدهنا على الأرض ساعة .. ولم نعرف أنه قد أغنى

عليه ، وأنه مات ، إلا عندما وجدنا أحد الكلاب الضالة يقترب منه ويتعلق وجهه .. في ذلك اليوم فقط عرفنا أنه قد مات منذ وقت طويلاً .. وأنه كان يتكلم وأحياناً يضحك وكثيراً ما يبكي .. وكثيراً ما كان يصرخ بلمعن اليوم الذي جمعنا .. مسكين لقد أحب فتاة وعدته بالزواج .. ولكنها تزوجت صاحب البيت الذي تسكنه أسرتها .. وهكذا لم يعد أبوها يدفع الإيجار .. ولذلك تمكنت أسرتها من إدخال إخوتها الصغار المدرسة وإجراء عملية لوالدتها في أحد المستشفيات الكبرى .. ثم أنها طردها وأسرتها من فوق السطوح ..

* * *

قل لنا يا معايرجي .. ما اسم هذا الذي حدث !!؟؟ ..

ولذلك.. لم تسع كلامي!

هذه المذكرات «أمانة» أوديها ، كما أرادها صاحبها . . وإن كنت أتدخل أحياناً في تصويب بعض أخطائها الإملائية والنحوية . . ولو كنت شاباً ما وافقت على بعض ما جاء فيها . . ولكن كل جيل له شباب ، وكل شباب له جيل . . فلا أنا شاب ولا هذا جيل . .

« . . لا تسألني كيف تزوجت . فإن أحداً لا يعرف كيف تزوج . ولقد سألت عشرات من زملائي . وكان جوابهم: وجدت نفسي قد تزوجت . وكانت يسألونني : وأنت كيف تزوجت ؟ وجوابي أيضاً : أنت لا أعرف . . وعندما أسترجع كل ما دار بيـنى وبينها أجـد أن الكلام كلـه لا يؤدي إلـى الزواج . .

مثلاً : كنت أقول لها : من آمالـي فـي الدـنيـا أـن يكونـ لي بـيت أـحسنـ من بـيت أـبيـ وأـمىـ . . وأـسـرةـ أـصـغرـ وأـلـادـ أـقلـ . . وأنـ تكونـ زـوجـتـيـ موـظـفةـ . . وأنـ تكونـ مـتـعـلـمـةـ لـيـكـونـ التـفـاهـمـ بـيـنـنـاـ أـسـهـلـ . . ولـنـحـمـلـ مـعـاـ حـاضـرـنـاـ وـمـسـتـقـبـلـ أـلـادـنـاـ وـنـكـونـ نـمـوذـجاـ لـلـشـبـابـ الـمـؤـمـنـ الـمـسـتـقـيمـ . . أـىـ تـكـونـ هـيـ مـؤـمـنـةـ ، كـمـاـ أـنـتـ مـؤـمـنـ . . وـيـتـفـجـرـ الإـيـانـ يـنـابـيعـ صـغـيرـةـ صـافـيـةـ نـقـيـةـ هـيـ أـلـادـنـاـ . .

وكـنـتـ أـنـتـهـزـ مـثـلـ هـذـهـ الفـرـصـةـ وـأـمـدـ يـدـهـ إـلـىـ يـدـهـ وـأـتـلـمـسـ أـصـابـعـهـ بـأـصـابـعـيـ . . وـأـعـانـقـ أـصـابـعـهـ بـأـصـابـعـيـ . . بـهـاـ يـشـيرـ إـلـىـ أـنـتـيـ أـعـانـقـهـاـ هـيـ . .

أو أتمنى ذلك .. ثم أرفع يدها إلى فم .. وأجعل من أصبعين من أصابعها على شكل شفتين متفرجتين وأقبلهما معا .. والمعنى مفهوم لدينا طبعا .. بل كل المعنى مفهومة .. ونحن فقط نشير .. ونرمز .. فأنما عندما ألف يدي حول وسطها ونحن سائران معا ، ويكون ذلك لمدة ثانية مع لفترة لامعة من العين وتنهيدة خفيفة ، فالمعنى واضح : أتمنى أن أعانقها وأن أضمهما إلى صدرى .. ويكون رد فعلها ابتسامة هادئة على وجهها وانحناء من رأسها فيها الهياق والتحجل . إذن فالمعنى الذي أردته قد بلغها . وسرى كالكهرباء في جسمها ..

بالله عليك كيف تؤدى هذه المشاعر العابرة إلى أن أجذنني أقول لها مرة واحدة : تتزوجيني ؟ .

فتقول : وأملك وأبوك ؟ .

أرجو أن تتوقف قليلا عند هذا الحوار الذى ولد ميتا .. أو ولد مبتبرا .. أى ولد قبل أن يتم نضجه .. فأنما عندما عرضت عليها الزواج كان قرارى : لابد أن أتزوجها .

أما قرارها : فكان لا مانع إذا وافق الآباء .. أو إذا أخذنا رأيهما ..

قرارى : نفسى أ .

قرارها : اجتماعى أ .

قرارى : ولا يهمنى الناس أ .

وقرارها : بل يهمها الناس أ .

فقلت : وما دخل أبي وأمى ؟ .

قالت : أنت نسيت ماقلته لي من ٢٣ يوما .. إن والدك هددك إذا فكرت في الزواج دون أن يعرف من هي البنت ؟ ومن هو أبوها وأمها ؟ . وما أسرتها ؟ وما وظيفتها ؟ .. ونسيت أن أمك قد عرضت عليك بنت اختها الجميلة الرشيقه خفيفة الدم التي أحببتك منذ الطفولة .. نسيت أن أستراك تتحدث عنكما أنتا الاثنين وأنكما ولديكما لتكونا زوجين .. أنت نسيت ؟ ونسيت أن أمك تعير إخوتك بفشل حياتهم الزوجية لأنهم لم يأخذوا رأيها .. وأنهم رفضوا كل بنات العائلة ..

قلت : ولا يهمني .. إن أبي وأمى لم يستاذنا مني في زواجهما .

قالت : أتمنى أن أتزوجك .. بل أحلم بذلك .. ولا أجد من هو أفضل ولا أقرب إلى عقلي وقلبي منك . ولكن أنت إنسان مندفع .. فأنت مرة تندفع مع والديك ، ومرة ضدّهما .. ومرة تأخذ برأيي ، ومرة تأخذ رأىي وترميه في الزيالة .. ومرة تقلب في الزيالة بحثاً عن رأى لي .. فأنت عاشق ولكنك لست زوجا .. وأنت تعرف أن ديني يمثّلني أن أكون عاشقة ودينك أيضا . ولكن من الضروري أن يكون الإنسان عاشقا قبل الزواج .. ولكن بعد الزواج يكون محبا ، ثم زوجا وأخا .. وأخيراً أبيا ولأولادي أيضا .

قلت : إذن نتزوج .

قالت : بعد كل الذي قلت لك .. أنت مصر على الزواج ؟ .

قلت : نعم .

ثم تزوجنا ..

أما الذي حدث بعد ذلك ، فشيء مكرر .. كما أن الحب مكرر والعشق مكرر .. فالطلاق مكرر أيضا . كيف حدث كل ذلك ؟ لا أعرف . فأنت لا

تعرف لماذا تتزوج ، ولا تعرف لماذا ترى أن الطلاق هو الحرية التي يعطيها الله لك . فالزواج من نفسك والطلاق من السماء ..

ومن الأمانة أن أنقل لك وجهة نظرها في الذي كان وما سيكون لي ولها اليوم أو غدا ..

وهذه واحدة من عشرات الرسائل التي بعشت بها .

«عزيزي .. حبيبي .. زوجي .. أبو أولادي .. زميل الدراسة .. أخي في الله حتى يوم القيمة ..

بسم الله الرحمن الرحيم والصلوة والسلام على أكرم المسلمين سيدنا محمد أكمل الخلق أجمعين ، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين .

وبعد . فقد استخرت الله أن أكتب إليك .

أنت الذي قررت أن تتزوج . وأنا وافقت . وأنا التي قررت أن ننفصل ولابد أن تتفق . انتهى ما بيننا . ولا أعرف ما هذا الذي كان بيننا ..

لم أقل لك كثيرا إنك إنسان متقلب . وكنت تغضب . وأرى أن زواجنا كان أكبر دليل على التقلب . فأنت كنت ضد الزواج .. ضد المرأة . ثم قررت أن تكون زوجا وحبيبا وأبا . وكان قرارك خاطئا صاعقا قاطعا . وكنت تتهمني بأنني «باردة» لا أنجذب مع عواطفك . ولم أكن باردة وإنما كنت واقعية فقط . هل أعيد عليك قصة من قصص العرب التي سمعتها منك .. وهي أن أبا الأسود الدؤلي اختلف مع زوجته أمام الخليفة . اتفقا على الطلاق . لكنه طلب من الخليفة أن يكون الأولاد في حضانته لا في حضانتها . قالت الزوجة : أنا حللت الأولاد وتعذبت . فهم أولادي .

قال زوجها : حلت الأولاد قبل أن تحمليهم .

وردت الزوجة : أنت حلت الأولاد في ظهرك قطرات معدودة .. وأنا حلت الأطفال ثقلا شهورا طويلا ! .
فحكم لها القاضي ..

فالأولاد لا ترهق الزوج ولكنها عبء على الزوجة : حمل وحمل وحمل ورحمة ومرض ولادة ورضاعة وحضانة .. كم الوف الساعات من التعب والقرف والضيق .. ضيق التنفس وضيق النوم على هذا الجانب وعلى ذلك الجانب وعلى الظهر وعلى البطن . درجات من العذاب لا يعرفها الرجال .. ولكن المرأة تتتحمل كل ذلك .. لأن إنجاب طفل هو أعظم ما تقوم به امرأة ، موهبة أودعها الله بطن المرأة وقلبها وعقلها .. إبداع عبقري أبيد لا يعرفه الرجال . ولذلك كان عذاب الحمل وللولادة والحضانة هو أول ما يتبادر إلى المرأة عندما تتزوج أو تفكّر في الزواج . وقد نبهتك وحدرتك .

فإذا كنت تقول ؟ .

تقول إن المرأة متقلبة متغيرة ..

وهي كذلك . ولكن لماذا ؟ لأن الظروف تتغير والمرأة كائن ضعيف لابد أن تواجه التغييرات في الحياة الاجتماعية بالتوافق والتكييف .. انظر إلى أي إنسان يقف في الطابور . والطابور يتقدم ويتأخر ويدور .. إنه لا يكف عن الحركة إلى الأمام وإلى الخلف ويدور حول نفسه . لا لأنه متقلب ولكنه يحاول أن يتواافق مع الطابور . أن يكون في الصف .

فما قولك في حياة بها ألف طابور وألف و ألف صف .. فكيف يتعالىش الإنسان وكيف يعيش إذا لم يتواافق .. إذا لم ينسجم مع الآخرين والآخريات .

هل أذكرك بما يحدث في عالم الحيوان والمحشرات والنبات .

إن الحيوانات في مواجهة الخطر لابد أن تتكيف في مواجهة الموت .. فبعض الحيوانات له درع متين مثل السلاحف ، إذا داهمها الخطر ، سحب سيقانها إلى ما تحت هذا الدرع الحجري .. وبعضها مثل القنفذ له جلد شائك . وإذا هددتها الخطر فإنها تسحب إلى الداخل وتصبح كرة من الشوك - إنها تفعل ذلك لكي تعيش . والمرأة أيضا .

وبعض الحيوانات تهرب إلى أوكرارها أو جحورها .

وبعض الحيوانات تتظاهر بأنها ماتت - مثل الثعلب . لا يكاد يحس خطرا قريبا حتى يتتحول إلى جثة هامدة ويستطيع أن يوقف تنفسه ثم يطلق رائحة كريهة . فإذا اقترب الحيوان الذي يهدده هرب من الرائحة .. وكذلك تفعل بعض المحشرات التي تتجمد وتطلق سائلًا كريها ساما .. وبعض الطيور إذا هاجمتها الصقر فإنها تلقى بنفسها مهيبة الجناح كأنها أصبيةت . فلا يكاد يقترب الصقر حتى تعاود الطيران بسرعة .. وتهرب ولا نهاية للأمثلة التي يمكن أن تفعلها الحيوانات والطيور والمحشرات في مواجهة الخطر والموت ، من تلوين لريشها وشعرها وتبديل وتغيير لسلوكها .. كل ذلك من أجل أن تعيش . ولا يمكن أن تصف هذه الحيوانات بأنها متقلبة أو متلونة أو كذابة أو منافقة .. وأنه لا مبدأ لها ولا خلق . إنها تحاول أن تعيش . وهذا حقها . وهي لم تكذب ولم تخدع - إنها فقط تقاوم الخطر وتتكيف مع الظروف المميتة والبيئة المدمرة .

أقول لك : ما الذي عملته معك ؟ .

هل تذكر يوم وقفنا أمام جبلية القرود؟ تذكر طبعا .

هل تذكر ما الذي أغضبك من كلامي؟ قد لا تذكر. فالإنسان ينسى ما يضايقه. أنا أقول عندما رأيت القردة «تفل» صغارها فتنزع البراغيث من شعرها.. قلت لك : أنا أفعل معلمك بالضبط مثل هذه القردة.

فقلت أنت : وهل عندك براغيث؟

قلت : بيل الذي عندك براغيث في عقلك .. وأنا أتولى القضاء عليها واحداً واحداً.

وأنت غضبت يومها.

مع أنى لم أكن أقصد سوى أن لديك أفكاراً تتغفل على عقلك المستير وقلبك الطيب. وأنت لا تعرف ذلك. لأنك لا ترى نفسك كما أراك... فمن هذه البراغيث : أنك ترى نفسك أعظم الناس .. ليكن . فالإنسان في حاجة إلى رصيد ضخم من الكبراء والاعتزاز بالنفس. وأنا أحب الرجل الواثق من نفسه . القوى . والمغرور أيضاً .. لأن الغرور هو مبالغة في قدراتك. ولا أحب الرجل الضعيف الذليل . وإذا خيرتني بين أن أثير حقد الناس وبين أن أثير عطفهم لاخترت أن أكون مصدراً لحقد الناس . لا سبباً في عطفهم وشماتتهم . لم تفهم . فحاولت أن أجعلك تفهم . فقلت لك : أنت تبني عظمتك على إدلالى .. أنت تبني مجده على أسلائى .. أنت تجد سعادة في أن تقول دالياً : إننى لا شئ وإننى لا أستطيع أن أفكر ولا أن أقرر .. وإننى متربدة .. وإنى أفهم بعد مرور الوقت . وأنك إذا قلت لي نكتة ، فإننى أضحك بعد ثلاثة أيام .. إلى آخر الذي قلته .. وأنت تعلم أننا زميلان في الجامعه . وأنى كنت أكثر تفرقاً . وأنك أنت الذى فرضت الزواج . وأنا التى خالفتك وتخرفت من هذه القرارات المصيرية السريعة . ووافقتك لكي

أرضيك . ولا أدعى أننى كنت أعلم التبيحة . ولكن كنت أحس بها وأتخوف منها .. وقد صارت حكمة بذلك .

ووافقتك يوم قلت : إنها الظروف السياسية التى تهز القيم الأخلاقية والاجتماعية وأنك ضحية لكل ذلك . ومعنى ذلك أنك تزوجتني لاعتبارات سياسية .. وانفصلنا لاعتبارات اقتصادية . أى لا دخل لنا في الذى حدث .. سواء في الزواج أو في الطلاق .. كان الزواج قد تم بناء على قرار من الرئيس الأمريكى والطلاق بناء على تعليمات الرئيس السوفيتى .. ونحن لسنا إلا لعبة في أيدي وأرجل الآخرين أو غيرهما من محركى الأحداث في العالم كله .

أنت قلت لي مرة : إننى طولية جدا .. وأنك منها ارتديت حذاء بكعب فلا أزال أنا أطول منك ..

وكنت أسألك هل أنا قد ارتفعت قامتي بعد الزواج ؟ .. وهل لم تكن ترايني بوضوح قبل الزواج ؟ .. ولكنك لم تسألنى : هل يضايقنى أنا أن أراك أقصر منى ؟ .. لم تسألنى .. ولكن وجدت أن كلامك هذا يدل على أنك لم ترب بوضوح .. ولا كانت روبيتك واثقة . فقرارك إذن لم يكن بالعقل ولا حتى بالقلب .. وإنها هو «بالتقريب» .. أو هو محاولة للتقرير بين العقل والقلب .. ثم إنك قلت لي مرة : هل لأنك من عائلة كبيرة . وأنا من عائلة مجهمولة .

ولكنك تعرف من هي عائلتى .. ورغم أن عائلتى أكبر وأشهر ، وأن إخواتى أكثر من إخوتى . وأن أبي وأمى ، كما تعلم قد تعلما في أمريكا .. فلم أسأك واحدا منها عن زواجى منك . ولا أجبت عن أسئلتهم التى ت يريد

أن تعرف من أنت؟ .. ومن هي أسرتك؟ .. ولاكم دخلك؟ .. ولا أين
سوف نسكن؟ .. وأنت تعرف بيتنا .. لا تؤاخذنى إن بباب عمارتنا يسكن
في غرفتين أحسن من شقتنا .

وبالأسن جمعت أبي وأمى وإنوثى وحكيت لهم حقيقة ما بيتنا وحتمية
النهاية . وقبلوني وعانقوني ومسحوا دموعى .. وجدت في ذلك عقابا
وعفوا .. عقابا لي ثم عفوا منهم ! .

نصيحة : أرجوك لا تظهر في بيتنا لأى سبب ، فالت لا تستطيع أن تقاوم
نظراهم التى تلمع وتبرق بالكرامه والاحترام .. في استطاعة ساعي البريد أن
يجعل لي ورقة الطلاق .

أما أطفالنا فهم أصغر من أن يعرفوا من أنت وأين أنت وماذا حدث لك
ولي وهم » .

* * *

ولما رأى زملائى في الشركة سألهونى :

ما هذه الكدمات على وجهك؟ .

قلت : إنها الجزمة !! .

ولم يقل واحد منهم : تستاهل ..

ولكن عيونهم والابتسامة الشامنة على وجوههم تقول ذلك ..

ولم يعرفوا أنها جزمتى التي أمسكتها وضررت بها نفسى .. ولما رأيت الدم
ينزف مسحت به أصابعى . ونظرت إلى أصابعى فأحسست كأنى ذبحتها ..
لأنها تستأهل القطع !! . وبدأت أبكي على أولادى » .

لا خلاص من الأعفاف !

غلطة كبيرة !! .. قلت لها لنفسى بعد أن جلست طويلاً أفكّر لعل أجد جواباً واحداً عن هذا السؤال : ولماذا التطرف الدينى ؟ وأنا لم أستخدم كلمة التطرف . وإنما هو تعبير التتصق بكل من مختلف معنا في الرأى السياسي أو الأخلاقى . . مع أن التطرف صفة لكل الناس . فأنا إذا قلت إنك متطرف ، فمعنى ذلك أنك تقف على الطرف المواجه للطرف الذى أقف عنده - فأنت متطرف وأنا أيضاً !.

ولكن ليكن هؤلاء الأئمّة متطرفين ! . . فلماذا هم كذلك ؟ .

لأسباب عديدة ، أولاً : العناء الاقتصادي الذى أذل الناس ومسح بهم الأرض . . ولابد أن حرص المصريين على نظافة الشوارع سببه أنهم لا يريدون أن يتسمخوا إذا مسحنا بهم الأرض - فنحن الزبالة ونحن المنشآت أيضاً .

وبسبب آخر هو : التفكك الاجتماعى . . تفكك الأسرة والعلاقات الإنسانية بين الناس . . وغياب الفوارق بين كل الطبقات ، فأنت لا تعرف : من الذى فوق ؟ ولماذا ؟ ومن الذى تحت ؟ وكيف ؟ . . فييتنا أناس يمشون على رءوسهم ، وآخرون على أيديهم ، والقليلون الذين يمشون على أرجلهم يمشون على أربع . . فما اسم هذه التركيبة الاجتماعية . . أو هذا الخلل من بناء المجتمع ؟ .

وسبب ثالث : أن الثقافة الغربية قد استولت على الناس وأفسدت عليهم حياتهم . . فلا نحن أمريكيان ولا نحن أوروبيون ولا شرقيون ولا مسلمون . وإنما كل هؤلاء معا . . أى غربيون متمسكون بالإسلام أحيانا ، أو مسلمون يميلون إلى الغرب أحيانا . انظر إلى فساتين السيدات ، انظر إلى مشروبات الرجال . . اقرأ ما تنشره الصحف والمجلات بحفاوة شديدة : إما هدم للمجتمع بإصرار وعناد . . وإما دعوة إلى الحياة الأمريكية بنفس الحفاوة والحراسة . . وترك الناس يختارون ما يعجبهم . . والناس لا يختارون وإنما يعيشون هذا التناقض الذي أضعف إرادتهم ورغبتهم في الحياة ، ويدد سعادتهم بها هم فيه . . وأكد يأسهم من أن يعودوا مسلمين ، أو ينقلبوا غربيين . .

ثم السبب الأخير هو : أن لدى الناس حرية التعبير عن الذي يؤمنون به . . فقد ظهرت هذه الاتجاهات الحادة في الدين والسياسة مع الديمقراطية . . فمن حق كل إنسان أن يقول وأن يتخيّل وأن يدعوا إلى ما يؤمن به . . أما هؤلاء المتطرفون فإنهم اختاروا «رفض» المجتمع . . ليرفضهم المجتمع . . اختاروا عالما انفردوا به والفرد بهم . . فعزلهم عن الناس . . ورأوا أنهم على حق ، وكل الناس على باطل ، أنهم وحدهم بشر وكل الناس شياطين ، أنهم العقلاه وكل الناس مجانين . . وبدلًا من أن يوحدوا صنوف الناس ، مزقوهم ، وبدلًا من أن يجعلوا الحقيقة واحدة قوية متكاملة متassكة ، جعلوا الحقيقة وهين : الوهم الذي اخترعوه لأنفسهم . . والوهم الآخر دفنا فيه بقية الناس . . فهم لم يخدموا الحقيقة وإنما شوهوها . . ولم يكسبوا موقعة وإنما خسروا معركة ! .

ولم أسترح إلى تحليل أسباب الصراع في القول والعنف في العمل ! .

فأنت - عادة - ترفع صوتك عند الكلام إذا كان جارك ضعيف السمع ..
أو إذا كنت تحدثه في ورشة .. فلا بد أن تجعل صوتك أعلى من صوت
الآلات .. فلا أنت بطبعك حاد الصوت ، ولا صديقك أطرش .. ولكنها
الظروف التي تدعوك إلى أن تصرخ .. وترفع صوتك ويدك ولسانك وسلامك
أيضا.

ثم إنه حاستك وإيمانك واستعدادك للتضحية ..
ولا حتى هذا التوضيح أقنعني .. فأنا لا أجد سببا واحدا يدعونى إلى أن
أدعوك بالقوة ..

القرآن الكريم يقول : لكم دينكم ولِّي دين ..
ثم إننا من دين واحد ..

والقرآن يقول : وجاءهم بما هى أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة
كأنه ولِّي حميم ..

وكنت قد استرحت فيها بيني وبين نفسي إلا يكون لي مذهب أتقيد به ..
فأنا مسلم وخلاص .. ولست على طريقة أحد من الناس .. فأنا أعرف
مبادئ الإسلام ، وأنا أطبقها سعيدا بأن أكون على خلق وفي سلام مع نفسي
ومع الناس ومع الله . يكفيوني .. فليس عندي طموح في أن أكون زعيما ولا
داعية ولا وزيرا .. ولا أريد أن أكون بطلا . فليست عندي صفة واحدة من
صفات الأبطال : لا أنا خطيب ولا أنا عبقرى .. لا سياسي مخضرم ولا
عسكري محنك .. وإنما واحد من ملايين الناس .. من الأغلبية الصامتة ..
أو ملايين الناس الصغار .. رجال الشارع والحرارة والمحفل والمكتب .. واحد
ككل واحد .. ليست لـ آية ميزة أختلف بها عن أي أحد .. الستر يارب ..

هذا هو دعائى ودعاء جارى وجارى وأمى وأجدادى من قبل ..
حتى هذه الرغبة في لا أتريد برأى أحد ، اكتشفت أنها وهم كبيراً .

فليس صحيحاً أننى طائر طلاق .. كنت في قفص وكسرت القفص أو انكسر القفص وانطلقت في سماءات الله بعيداً عن أرض الناس .. حتى هنا وهم .. فقد رأيت الطيور إذا انفتح لها القفص فإنها تقف فوق القفص .. ورأيت السجين يخرج من الزنزانة ويقف أمامها وينظر يميناً وشمالاً . ثم يتساند عليها ويجلس أمامها .. وكانت أظن أن السجين إذا خرج ، فإنه يرمي نفسه على الأرض ويقبل تراب الحرية .. ولكن وجدت السجين ينهار أمام باب السجن . لماذا ؟ لأنه حر .. أى لأن لديه ما لا نهاية له من البدائل .. أن يجري .. وأن يمشي على أربع .. وأن يزحف على بطنه وأن يلقى بنفسه تحت العجلات .. أى عنده اختيارات كثيرة .. ويسبب كثرة هذه الإمكانيات فإنه يختار على حريته .. وتدفعه الحرية إلى الدوخة فيقع .. كأنه بلا حرية ولا قدرة على الاختيار ..

ولكن المعنى أعمق من ذلك ..

وهو أنه لابد للإنسان من قفص .. لابد من قيد .. لابد من سلسلة .. فلابد لكل الأشياء من جاذبية الأرض تشدها .. وتشدنا أيضاً .. ونقاومها .. ثم ننظم هذه المقاومة .. فالمتشى هو تنظيم لمقاومة السقوط .. وكذلك الرقص .. والطيران .. كلها مقاومة للجاذبية بأشكال مختلفة .. أى مقاومة للقيود ..

وأنت عندما تقول : أنا أحب هذا النوع من الطعام .. وهذا النوع من السجائر .. وأشجع الأهل أو الزمالك .. وأفلام عادل إمام فقط .. وأهانى

أم كثلوم فقط . . وألحان محمد عبد الوهاب . . وأحاديث الشيخ
الشعراوى . . ولا أكل إلا السبانخ ولا أشرب إلا الشاي بعسل النحل . . وأنام
بمكراً لأصحو مبكراً . .

فما هذا الذي قلت؟ .

أنت بالضبط قد ذكرت الأعواد الحديدية للقفص الذي تعيش فيه . . أي
للقفص الذي هو حياتك . . فأنت لا تخرج عن هذه الأعواد الحديدية . . ولا
تحب ذلك . .

وكذلك عادات الأسرة وتقاليد المجتمع والمزاج العام لبلدك . . كلها
أقفال صنعنها لأنفسنا . وأحاطناها بالاحترام والقداسة . . والخروج عليها
هو تحطيم للسلال النبيلة والأغلال الشريفة التي تربطنا معاً . . وإذا خرجنا
عنها ابتعد الناس عنا . . فلا نملك إلا أن نعود إليها كارهين . .

لم يحدث أن أخذت إجازة ، فإذا بك تعود إلى مكتبك؟ فما المعنى؟ .

المعنى : أنك عندما تذهب كل يوم إلى مكتبك فأنت مضطر إلى
ذلك . . ولكن عندما تذهب في إجازتك فلنك تفاخر زملاءك بأنك في نفس
المكان ولكنك حر . . تخرج . . تدخل . . تشرب . . تقرأ . . تكتب . . فأنت
حر . . على هواك . . أنت فتحت القفص وخرجت . هذا صحيح . ولكنك
لم تفلح في أن تبعد عن القفص . . أنت مثل كل الطيور التي تخرج من القفص
وتقف فوقه . . فقد اعتادت أن تكون في داخله . . فإذا خرجمت وقفت إلى
جواره . . إنها مشدودة لهذا القفص . . أو مربوطة بقفص أكبر . . هذا
القفص الأكبر هو العادة والتقاليد وقوانين الحياة التي تسلسل كل الكائنات
العاقة وغير العاقلة . .

اسأل أى سجين وأى سجان : أهيا أكثر حرية ؟ .. سوف تجد أن السجان يلعن السجين ويحسده على أنه ليس مستولا .. فالمسئول عنه هو السجان .. فالسجين في زنزانة .. أما السجان فهو مربوط في سلسلة المسئولية .. فالسجان أكثر تعasse من السجين .. لأنه هو السجين حقا .. وهو الموضوع في قفص المسؤولية .. أما السجين فقد تحرر من المسئولية .. فالذى في داخل القفص سجين .. والذى في خارجه سجين أيضا - كلاهما في قفص ! .

والطيور والحيوانات الأخرى حتى الطليقة منها لها أقفاص .. فكل حيوان له «بيئة» نباتية أو حيوانية يعيش فيها ولا يخرج عنها .. والحيوانات والطيور عندما تترك مخلفاتها على الأرض ، فهي تتضع علامات مرئية ومشحومة لحدود البيئة ، إنها أعبواد القفص الذي اختارته .. إنها الحدود الإقليمية التي يجب أن تراعيها الحيوانات والطيور الأخرى .. واجتياز هذه الحدود عدوان على أصحابها يستوجب القتال .. وعلى الرغم من أن الأرض واسعة ، وفي استطاعة أى حيوان أن تكون له «بيئة» أو «حدود» خاصة .. أو «قفص» ، فإنه لابد أن يعتدي على الآخرين .. وأن يبشر نفسه في القفص الضيق .. وبذلك تدور المعركة .. فتحن إذن أمام نوعين من الضرورة : ضرورة العدوان وضرورة الدخول في قفص .. قفص من صنعنا .. أو من صنع الغير ! .

هذه الدبلة التي في يدك هي رمز ذهبي لقيود أخرى غير مرئية .. هي وصل استسلام يجب أن تشهده دائماً لأنك قد اخترت قفصاً وأنك سعيد بذلك .. وتسمى هذا القفص : عش الزوجية .. أو بيت السعادة العائلية .. أو الحب الدائم .. أو الرباط المقدس .. وكلها ذات معنى واحد : قفص من العواطف والقانون والتقاليد الاجتماعية والدينية ..

وإذا وضعت الدبلة في اليد اليمنى فهذا وعد منك بأن تضعها بعد ذلك في اليد اليسرى حتى الموت . . . وأنت الدبلة لا تسلسل إصبعاً أو يداً . . وإنما تسلسل حياة وأسلوبها وخلقاً . . . سواء كانت بالدبلة من ذهب أو من فضة أو من بلاتين أو فيها فصوص من زجاج أو من الماس . . . فهي عود من أعودات القفص اقتلعه المجتمع وجعله ملتوياً ، بيا يدل على أنك ارتضيت أن تلفه حول إصبعك بكامل قواك العقلية . وأنك جعلته من ذهب . . . أى أنه قيد غالى الثمن ، دفعت فيه الكثير من أجل أن تباهى به الناس . . . وإن هذه الدبلة ليست إلا مندوبياً لاماً عنها لا نهاية له من الدبلي الأخرى تحت الجلد .
جبل الرأس والقلب ! .

* * *

فليس غريباً إذن أن الإنسان عندما يموت ، يلفونه . . . كأنه سوف يهرب . . . يضعونه في كفن ملفوف . . . وفي نعش مغلق ثم في قبر مسدود . . . كأنه ما يزال حياً فاختاروا له القفص الذي يأوي إليه . . . فالإنسان خرج من ظلمات بطن الأم ، ظلمات بطن الأرض ، في قفص ولد ، وفي قفص يموت . . . من قفص طوله نصف متر إلى قفص طوله متر ونصف - كل هذا العذاب في الدنيا من أجل متر واحد ! .

ولا هذه المعانى أراحتنى . .

ولا استطعت أن أعدل رأسي . . . إن رأسي قد مال على كتفى ، كأنه انكسر . . . أو كان رأسي كان «حبلة» مصارعة ، لم يستطع أن يتحمل الضربات واللكمات تحت وفوق الخزان ، فانقلب عظاماً . . . أو كان رأسي علم منكس ، دليلاً على الهزيمة . . . أو على الحداد . .

وبعد أن طلع النهار وجدت الخل المناسب ..

بمتهى الصراحة : أنا لأشجرة ولا نخلة .. أنا عود برسيم في حقل به مئات الأبقار والحمير والماعز .. وأنا لا أستطيع إلا أن أميل مع الهواء .. مع الهوى .. يهرب شهلاً فأنحنى .. ويهرب يميناً فأنحنى .. ويتجه أحد الحيوانات فيدومني أو يقتلوني .. وهكذا تنتهي حياتي .. واحداً من ملايين الأعشاب في الأرض .. لا أكثر ولا أقل ..

وقد هبت عواصف كثيرة على الحقل فاقتلت النخيل وأشجار الجميز والصفصاف . أما نحن الأعشاب فيقينا وعشنا وترعرعنا ، وحدها ماتت عمالة الأشجار !!.

يعنى إيه ؟ .

يعنى لا يصح أن نلوم الحرباء إذا تلونت أصفر وأخضر مع البيئة التي تعيش فيها .. فالحرباء لم تفعل أكثر مما يفعله كل الناس .. كل الساسة .. إنهم يفطرون مع المحمل الوديع ، ويتغشون مع الذئب المفترس .. كذابون ! الحرباء ليست كاذبة ، إنها فقط تكيف وتتوافق لكي تعيش .. والطيور الصغيرة تساقط كأنها ماتت هرباً من الصياد - لم تمت وإنما تظاهرت بذلك .. والشعلب يتصنع الموت ويطلق رواحه كرية ، فإذا اقتربت منه حيوانات مفترسة ووجدها ميتاً ، تركته ليعيش .. فلا هو كذاب ولا منافق ولا سافل .. وإنما هو الحيوان الضعيف يساير الظروف لكي يتغلب عليها ويعيش .. إنه الصراع من أجل البقاء ..

هل أنا حرباء ؟ .

والله لا أعرف . ولذلك لابد أن أبعث بهذه السطور إلى «وفاء ..» زميلة

الدراسة والأحلام والأوهام . . وضحية الصاعقة التي أصابتنا نحن الاثنين . . فإذا بالواحد منها يسقط في حضن الآخر ويقول : أحبك . . وأعيش وأموت من أجلك ! .

لعلها تعرف أنني لا أعني ما أقول . . فلا أعرف إن كنت أحبها أو أكرهها . . أحب نفسي أو أكرهها . . هل أريد الحياة بها ومعها ، أو أريد الحياة بعيدا عنها أو لا أريد الحياة ! ? .

إنها تبكي كثيرا على حالي العقلية والعاطفية وتقول : خسارتكم ! .
خسارتكم في أي شيء ؟ .

مشكلتي : أنني لست على يقين من شيء . .

والحل : أن يدلني أحد على نفسي وله الأجر والثواب . . عند من ؟ .

والله لا أعرف . . نحن لا نعرف . . نحن الملايين من أعواد البرسيم في حقل الأديان والمذاهب . . والله الذي لا إله غيره ، إنني مؤمن كامل بالإيمان . . ولكن حيرتني هذه أقوى مني . . مشكلتي أنني وجدت القفص . . ولكن مصيبتي أن القفص فوقى ، فلا أنا في داخله ولا أنا فوقه . هل رأيت عذابي ! ? .

إلى الآخرين فالمهمة وتحتها

أُسندت ظهري إلى الحائط . . . كان الحائط بارداً . وشعرت بشيء من الراحة . . فاقتربت أكثر من الحائط . . وتنبّت لو أستطيع أن أصلب طولي على الحائط كله . . كأنني برض أو ثعبان وأنام واقفاً . . رأسي تحت . . وساقامي فوق . . وأحسست أثني في حاجة إلى حائط أستند إليه . . إلى ظهر . . إلى قاعدة . . إلى أي شيء متين قوي أقف أو أجلس أو أنام عليه . . فالليابانيون على حق عندما جعلوا السرير جافاً . . وعلى حق أكثر عندما تركوا السرير وتمددوا على الأرض . . أي اختاروا القاعدة الصلبة . . الظهر السليم القوي . . وأنا في حاجة إلى هذا الظهر الذي جاء في المثل الشعبي : إلى له ظهر لا ينضرب على بطنه . . فها بالك إذا كنت مضروري على بطني وعلى قلبي وفي عقلِي !؟ .

قل لي - قلتها لجاري وصديقي ونصف عمري زميل الدراسة .

قال : ماذا؟

قلت : كلمتني عن «الإيدز» :

قال : هنا في الجامع وقبل صلاة الجمعة؟

-نعم .

- وهل هنا مكان مناسب؟ .

- أنساب مكان . . . ويا ليت الخطيب يتحدث في شيء مفيد . .

- مثل الإيدز؟ .

- الإيدز بالذات هو أنساب شيء يقال اليوم وغداً . . ولنا نحن بالذات أى .

- وهل ترى أننا قطعنا السمكة وذيلها ، ولا يبقى إلا أن يحدونا نحن من هذا المرض؟ .

- نعم .

- لا أفهمك . .

إنه لا يفهمنى . وهل أنا أفهم نفسي أو غيري . . نحن جميعاً في مركب واحد على ظهر موج واحد في بحر واحد في ضباب واحد . . لا طمع علينا قمر ولا شمس . .
ما هذا الإيدز؟ .

هو مرض تظاهر أعراضه على الإنسان بسبب خلل في جهاز المناعة . . أى في جهاز الدفاع عن الجسم الإنساني ووظائفه . . يؤدي إلى ضعف الإنسان . . وما دام قد ضعف ففي استطاعة أي ميكروب أن يستولى عليه، وأن يوجهه على التحول الذي يريد ، وفي الطريق الأسرع إلى الانهيار والموت . .
كأن يصاب الإنسان بالهزال . . أو بالانتفاخ والتورم . . أو بالسرطان . . أو فقدان الذاكرة . . ولا يعرف الأطباء علاجاً لهذا المرض . .

يعنى بعبارة أخرى : لتصور لحظة واحدة أن دولة من الدول قد اختفى منها الجيش والبوليس والنيابة والقضاء . وأحس كل الناس بذلك . ثم اختفى

الضمير الذى هو صوت الله .. صو الحق .. صوت الإيهان . كل ذلك اخترقى .. فما الذى يمكن أن يفعله الناس بالناس .. ثم افرض أيضاً أن الأبواب والتواقد والمفاتيح والأفقال قد ذابت من كل بيت .. هذا بالضبط هو انعدام جهاز الدفاع والأمن والمناعة في الدولة وفي البيوت وفي الناس كلها .. غابة يأكل فيها الناس كل الناس ..

والتفت إلى جارى وقلت له : هل فهمت المعنى ؟ .

قال : قصتك أنا جميعاً مصابون بمرض الإيدز .. أو بشيء يشبه مرض الإيدز ؟

قلت بالضبط أ

قال : إذن ؟ ..

قلت : من أجل ذلك يجب أن نتحدث عن هذا المرض الذى أصابنا .. ولا يهمنى إن كانت البداية هي ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ أو نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ أو افتتاح أكتوبر سنة ١٩٧٣ أو التصدى والتردى في سنة ١٩٧٧ .. كل الذى يهمنى ويهمك ويجب أن يهمنا هو أن نواجه هذا المرض .. بل هناك مرض أخطر من ذلك ..

قال : تقصد من مرض الإيدز ..

قلت : نعم إنه نوع ملعون من الإيدز .. هو أن الدولة ترى أن الشباب مصابون وحدهم بهذا المرض .. وليس كل الناس .. ولذلك فالشباب في حاجة إلى من يدافع عنهم .. إلى من يتسلل إلى كرياتهم البيضاء ويعذبها لتصبح قادرة على مقاومة فيروس نقص المناعة .. نحن فقط .. ويررون أن

غضب الشباب مرض .. وأنه ليس إلا ارتفاعاً في درجة الحرارة بسبب مقاومة الفيروس .. أى بسبب الإصابة بهذا المرض .. ولا يرون أن ارتفاع درجة حرارة الشباب بسبب الصحة والعافية والطاقة ..

إنهم يرون الشباب مريضاً ، والحيوية ضعفاً ، والطموح جنوناً ، هذا هو المرض الذي أصابونا به .. إنه ليس مرضنا إنه مرضهم .. فنحن من وجهة نظر الأكبر سناً مصابون بالإيدز وبمرض آخر أقرب إلى الجنون .. وهذا يدلل على جهل الكبار ..

فليس من أمراض الإيدز الطموح والاتجاه إلى المستقبل والبحث عن علاج وافتقاد المثل العليا ..

وإنها من أعراض الإيدز : فقدان الذاكرة وزوال الغضب .. ماذا تقول؟ .

قلت : قلت لا إله إلا الله .. يا أخي أنت لازم تلاقى موضوعاً تن ked به علينا .. كل يوم .. أنت نافورة غم !؟ .

قلت : شيء غريب كأنك لست في حالة نكد دائم ..

قال : ولكن جئت إلى المسجد لكي أستريح ..

قلت : وهل يريحك نفسياً أن يحدثك خطيب المسجد عن «نواقص الوضوء» بدلاً من أن يحدثك عن الإيدز .. هل يرضيك أن يحدثك خطيب المسجد عن الأوصاف الدقيقة لجهنم أو الجنة - مع أنه لم يدخل هذه ولا تلك .. وبدلاً من أن يكلمنا بالعقل فإنه يتكلم كأنه رسام سريالي .. يقول ويتفنن في الأوصاف - ويتوهم أنه بهذه الصورة يقنعنا وينهيفنا على مصيرنا .. هل تذكر إمام مسجد إمبابة الذي اختلفت معه في موضوع : هل يجوز المشي

بالجزمة في المسجد والصلوة بالجزمة . . أنا قلت له جائز ما دامت الجزمة نظيفة . . فهي كالجوارب تماماً . فقال لي : من أين لك هذا ؟ قلت : بالعقل . . وقد قرأت أخيراً أن الإمام ابن تيمية قد سأله عن ذلك فقال إن صحابة رسول الله كانوا يمشون بتعالم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . . وقال ابن تيمية إن الإنسان يجب أن يفعل ما أمر به الرسول وهو أن ينظر في نعله فإن وجد به شيئاً كريهاً مسحه بالتراب . . وأكثر من ذلك رأيهم في بعض البلاد العربية ينزلون من السيارة ويصلون وقد ارتدوا أحذيةهم - لأن الأحذية نظيفة . وهذا كلام بالعقل والمنطق ، وفيه تخفيف عن الناس ومرونة في تطبيق الدين . . هذا هو الذي نفتقده في رجال الدين ، وفي رجال الدنيا ورجال التربية ، وفي النظرة إلينا نحن الشباب . فهمت ؟ .

قال : وتقترح ماذا الآن . . نخرج من المسجد ونستأنف المخالفات التي لا تنتهي بيننا ! ؟ .

قلت : لم أحدثك عن فاطمة ؟ .

قال : من فاطمة ؟

قلت : فاطمة . . زميلتنا . . هل تعرف ماذا فعل بها أبوها وأمها وإنوحتها . .

قال : ليس الآن ! .

قلت : بل الآن . . إنني أتحدث في نفس الموضوع .

قال : الإيدز ؟

قلت : الإيدز ؟

قلت : نعم . . إنها لم تصب بهذا المرض الخبيث . .

ولكنى هى مثل كل الشباب مصابة بهذا المرض من وجهة نظر آبائنا وأمهاتنا . . منعوها من الذهاب للجامعة إلا في صحبة واحد منهم . . وضعوا جدولًا لدخولها وخروجها . . ورتبوا حياتهم كلها على حياتها . . فأراحتهم جيًعا ، وتوقفت عن الدراسة . . وعن المذاكرة . . وقررت أن تتحجب وأن تختفي وراء خيمة اسمها الفستان ، ووراء قناع مثل قناع أرسين لوبيين والباتمان اسمه اللثام . . صارت يبعا في البيت . . لا ترى أحدًا ، ولا يراها أحد . . وقالوا لها إن يراك أبوك ليس حرامًا ، وإن يراك أخوك أيضًا . . ولكنها قررت أنهم جيًعا حرام عليهما . . وأن الجامعة حرام والدراسة حرام والخروج حرام . . وقررت أن تدفن نفسها بالحياة - فالحياة حرام ١١ .

وقلت بخارى : لماذا إذا تقلب الكبار بين الرأسمالية والإشتراكية الفاسدة (التدريجية) والإشتراكية العلمية والإشتراكية الوطنية والماركسيَّة لا يصيرون أنفسهم بالإيدز . . أى يتعرضون لكل المذاهب . . ولماذا إذا صدرت قوانين وقوانين مضادة وقوانين مضادة للمضادة ، لا يتهم أحدهم الآخر بالإيدز . . لماذا الشباب وحدهم ؟ .

وأنشغلت عن خطيب المسجد بهذا الذى دار بينى وبين فاطمة لآخر مرة . . هي أرسلت خطابًا تقول : أخي في الله . . لقد تباعدت المسافة بيننا . . بينى وبينك ألوف من الناس فى أيديهم السكاكيَّن وفي عيونهم النار . . إنهم يخالفون منك ويختلفون علىك . . مع أن الذى بيننا هو ما بين أخوين في الله . . نؤمن بالله وكتبه ورسله وأنه لا شريك له وأن محمدا نبيه ورسوله ، وإن الله وإن إلَيْه راجعون . . والله حسينا والقرآن سبيلنا . . وقد بدأت المشكلة بأن قلت لأبي على مسمع من أمى وإنحني الصغار : إن السكوت عن الكفر نوع من

الكفر .. ولابد أن يقول الإنسان رأيه وأجره وثوابه عند الله .. وقلت رأى .
ركان رأى أن نضرب إخوتى الصغار حتى يصلوا .. لابد أن يصلوا .. وأن
نقول لهم إن السجائر ضارة وأن الخمر حرام .. ولأنها ضارة فقد حرمها الله ..
ولأن وضع الأحمر والأبيض في الوجه لغير الزوج حرام .. وأن الخروج بالأحمر
والأبيض حرام .. لأنه يضاعف فتنة المرأة ويلفت العيون إليها .. ورأوا أننى
مجنونة وأن شيئاً قد أصابنى .. وأنهم العقلاء .. وقد اعتزلوني .. واعتزلتهم ..
ولم أعد أهتز كثيراً للدموع أمى .. بل أنا الحزينة عليها . قلت كلمتى وأبرأت
ذمتى .. والله المستعان .. أختلك في الله : فاطمة .

إنه الإيدز يا فاطمة !

لا أظن أن تاريخ الإسلام قد عرف رجالاً استطاع أن يمسك نفسه عن
الضحك مثل الإمام ابن تيمية . فما أسخف الأسئلة التي وجهها إليه المسلمين
في زمانه .. وبقيت الأسئلة في كتابه الشهير «الفتاوى الكبرى» .. ولو كان
ابن تيمية حياً بينما لضحك كثيراً على فهم المسلمين للإسلام وشباب
المسلمين .. ولا يصحكه أكثر أن يكون كل شبابنا مرضى . وأن مرضهم هو
نقص المناعة .. وأنهم لذلك مستهدرون من كل ناحية ومن كل عاصمة ومن
كل دين ومذهب .. وأنهم بلا أبواب ولا نوافذ ولا أقسام ولا مفاتيح ولا
حراس .. وأنهم هكذا «مستباحثون» .. مضيرون .. ضائعون .

مع أن الشباب قد وجد نفسه في رفض الذي لا يعجبه .. ورفض الذي لا
يراه مقنعاً . ورفض أن يكون مصاباً بنقص المناعة ..

مثلاً : ي يريد الشباب قطعة أرض في أي صحراء غربية أو شرقية . وعلى هذه
الأرض يبني أحلامه الجديدة هو وأسرته .. فكل شاب سمعت عنه قد تزوج .

أى أنه اختار الخطوة الصحيحة . . والبيت الصالح : زوجة وولد . . وأن يعمل الجميع من أجل مجتمع صغير اختفت منه كل عيوب المجتمع الكبير . ومن ألوف الأسر التي بنت مستقبلها على الصحراء ، سوف يولد مجتمع مثالي . . قائم على العلم وعلى الإيمان بالله . . وعلى الإيمان بالبداية الصحيحة . . وعلى الإيمان بأن الإصلاح والصلاح ممكن . . وأنه يبدأ عادة بخطوة في الاتجاه القويم . . وخطوة من هنا وخطوة من هناك تتكون مسيرة مؤمنة . . وهذه البيوت الجديدة هي «الكارانتينة» أى «الحجر الصحي» - فالمرض في المجتمع الكبير والصحة في مجتمعنا الصغير . . وقد ارتضينا جميعاً هذا القرار من الشباب ومن الدولة . . ولا يبقى إلا أن تساعدهم الدولة على أن يكونوا جزءاً سليماً في الجسد المريض . . وكما أن المرض يعدي ، فالصحة أيضاً . . وانقلبت الأوضاع : فالكبير المريض يختلف من الصغير السليم . . فبالله عليك من هم المرضى ؟ هل هو الصغير الضعيف أو الكبير القوي . . هل الصغير السليم ، لأنه صغير يعتبرونه مريضاً ، وهل الكبير المريض لأنه كبير يرونونه صحة ١٩ .

انقلبت الأوضاع يا فاطمة ، في بيتك وفي كل بيت وفي كل المجتمع العربي والإسلامي . . صدقيني يا فاطمة . . يا كاميليا . . يا كوثر . . يا ياعزة . . يا حواء . . صدقيني . . إن أكبر غلطة رتكبها الكبار في حقنا نحن الشباب : أنهم لا يصدقوننا . . أنهم لا يأخذوننا مأخذ الجد . . لأنهم يروننا صغاراً دائراً ، وإذا كبرنا اعتبروا ذلك تطاولاً عليهم ، وغروراً . . مع أنهم كانوا صغاراً مثلنا ، ثم طالت قامتهم وأيديهم وأرجلهم وأسთهم أيضاً . . ولكنهم نسوا ذلك . . ويريدوننا أن ننسى ما ضيئهم ، وأن ننسى مستقبلنا أيضاً . . صحيح أننا جميعاً مؤمنون . . ولكن المؤمن القوي - الذي هو نحن - أفضل عند الله من المؤمن

الضعيف - وهم ضعفاء إِنَّهُمْ ضُعَفَاءٌ يَا فَاطِمَةٌ .. أَنْتَ شَمْسٌ أَشْرَقْتَ فِي
بَيْتِكَ ، وَلَكُنْهُمْ لَا يَرُونَهَا فَهُمْ عُمَيَّانٌ .. وَهُمْ أَغْلَبَيْةٌ لَا تَرَى .. وَالدِّيمُوقْرَاطِيَّةُ
تَقُولُ إِنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ .. إِنَّهَا دِيمُوقْرَاطِيَّةُ الْإِنْسَانِ وَلَيْسَ دِيمُوقْرَاطِيَّةُ اللَّهِ ! .

ولما رجعت إلى البيت لم أنم .. وأخرجت من تحت المخدة ورقة وقلما .
ونزلت من السرير وجلست أمامه وأسندت الورقة إلى ركبتي وكتبت لفاطمة
أقول لها .. إنها أفضل منا جميعا .. إنها تحارب في جبهة ضيقة .. إنها أفضل
منا نحن الأحرار الذين ننتقل من مسجد إلى مسجد .. فهي مثل «المرابطين»
أو الجنود يحرسون أرض المسلمين وبيوتهم .. ولم أجد أفضل من أن أنقل إليها
ما جاء في كتاب «الفتاوى الكبرى» للإمام ابن تيمية :

فقد جاء عن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ حِرَاسَةَ لَيْلَةِ عَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ رَجُلٍ فِي أَهْلِهِ أَلْفَ سَنَةٍ .. وَقَدْ سُئِلَ الْإِمَامُ ابْنُ تِيمِيَّةَ
وَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ : سُكُنَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ النَّوْرَةِ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ بِقَصْدِ الْعِبَادَةِ
وَالْأَنْقِطَاعِ لِلَّهِ أَوْ سُكُنَى دَمْيَاطَ وَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابِلسِ بِقَصْدِ الدِّفاعِ عَنْهَا .
وَكَانَ جَوابُ الْإِمَامِ ابْنِ تِيمِيَّةَ : إِنَّ حِرَاسَةَ مَدِنِ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ مِنْ مُجاوِرَةِ
الْمَسَاجِدِ الْثَّلَاثَةِ . لَاَنَّ الْحِرَاسَةَ نَوْعٌ مِّنَ الْجَهَادِ . وَالْمُجاوِرَةُ نَوْعٌ مِّنَ الْحِجَّةِ . قَالَ
تَعَالَى : «أَجْعَلْتُمْ سَقَايَا الْحِجَّةِ وَعِرَارَةَ الْمَسَاجِدِ الْحَرَامَ كَمْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَبِجَاهَدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عَنْدَ اللَّهِ » .

وَقَدْ سُئِلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : إِبْيَانُ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . قِيلَ لَهُ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ حِجَّةُ مِيزَرِيَّةِ .

وَقَدْ رُوِيَّ عَنِ الرَّسُولِ قَوْلُهُ : إِنَّ غَزْوَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ حِجَّةً .
وَقَدْ رُوِيَّ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَوْلُهُ : رِبَاطُ (حِرَاسَةُ) يَوْمٌ

وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطًا (حارساً مجنداً)
مات مجاهداً وأُجرى عليه رزقه من الجنة .

ويقال إن الخليفة عثمان بن عفان خطب في الناس فقال : رباط يوم في
سبيل الله خير من ألف في غيرها من الأماكن .

وقال أبو هريرة : لأن أرباط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة
القدر عند الحجر الأسود !

وخشيت ألا يصلها خطابي .. وخشيت عليها أيضاً . فهي مريضة ،
وقد أكون أنا وما قلت وما سوف أقول سبباً في مرض أشد وموت أسرع ..
واحتفظت بها كتبت مع كثير من أوراق لا أرى الوقت مناسباً لنشرها على
الزملاء ..

* * *

حتى أنا لست قوياً كما أتصور .. فكثيراً ما قلت وترددت ، وكتبت
وشككت ، واندفعت وندمت . وتحيرت بيني وبين نفسي .. كأنني اثنان أو
ثلاثة أو أكثر .. لست مريضاً يا فاطمة .. لست واحداً يقبل القسمة على
ثلاثة ، وإنما أنا واحد مضروب في ثلاثة × ثلاثة = تسعمائة مليون مسلم في
القارات الخمس .. والله أعلم !

على الناصية حقوق مقدر !

متنهى أمل أن أجد فارا يأكل قطا .. بشرط أن يلاعه .. قبل أن يتهمه .. قبل أن يتهموني . أريد كلمة حلوة . لمسة رقيقة ، وبعد ذلك يفعلون بي ما يشاءون .. أريد أنأشعر ب الإنسانية قبل أن أموت كالكلاب على جانب من الطريق ..

قلت ذلك لنفسي وأنا أجلس على مقعد على ناصية شارع وعييني على البلكونة المواجهة وفي يدي مجلة تكرمشت وتمزقت . ولا أعرف لماذا أمسك هذه المجلة .. هل لكي يفهم الناس أنني أقرأ .. هل لأنني اعتدت أن أمسك الكتب في يدي .. ثم هذا المقعد الذي أحمله معى وأجلس عليه كلما شعرت بالتعب .. فقد قررت ألا أركب الأتوبيس وأن أمشي .. فإذا تعبت أزلت المقعد من فوق كتفى وجلست عليه ..

وفي بعض الأحيان كان الناس يتوهمن أنني مخبر وأنني أراقب أحداً من الناس .. أو يتصورون أنني نجار .. أو أنني سرقت هذا المقعد .. لم يقل لي أحد ذلك ، ولكن عيون الناس تقول كثيرا ، وأنا لست قادرا على ترجمة أمينة لكل ما يقال ..

ولم أرفع عيني عن البلكونة التي أمامي .. ففيها سيدة حلوة تنشر خليل

أطفالها .. الملابس صغيرة ومعلقة من ذيلها .. فالرأس والذراعان إلى أسفل .. وكانت أطيل النظر إلى الملابس الملونة النظيفة .. ولا أعرف عدد الأطفال ولا إن كانوا ذكوراً أو إناثاً .. ففي هذه السن الصغيرة من الصعب أن تفرق بين ملابس الأطفال .. ولم أر هؤلاء الأطفال مرة واحدة .. فقد اعتدت إذا مررت بهذا الشارع أن اختار الناصية وأن أستند ظهري لحائط حديقة صغيرة وأراقب هذه البلكونة .. ولا أعرف لماذا تظهر هذه السيدة دائمًا مربوطة الشعر وبالقميص الطويل في لون البشرة الوردية .. ولا أعرف بالضبط ما هذا الثوب فلم أر سيدة في غرفة نومها ولم أر غرفة نوم .. لأن غرفتنا هي مكان النوم والأكل والمذاكرة والضيوف واستقبال بائعة البيض والجرجير .. كلها في مكان واحد .. ولم أجده أي سبب لأن أغير ملابسي في أو وقت .. فالذى أرتديه في الصباح يظل حتى وقت النوم .. وليس هذا هو حال الناس الذي يسكنون في أكثر من غرفة وعندتهم مناسبات عديدة .. لكل مناسبة غرفة في البيت .. أو مكان بالقرب من الباب .. أمامه .. أو وراءه ..

وفجأة حدث تغير واضح في البلكونة .. اختفت ست البيت وظهرت خادمة ريفية .. وعلى كتف الخادمة طفل أيضًا نظيف مغسول .. والخادمة تداعب الطفل .. وتحليسه على حافة البلكونة وتوهمه بأنها سوف تسقطه ليبيكى الطفل .. وتحتفى به ، ولكن صوته يجيء عبر الشارع .. ثم يسكت .. وتظهر مع طفل آخر أكبر .. وتداعبه ولكنه أجرأ من أخيه فهو لا يخاف إن هي أدلت به من البلكونة .. إنه يضحك .. وكأنها لا تريده أن يضحك فتمسكه من ذراع واحدة فيصرخ وتغيب به في داخل الشقة وتعود بالطفل الأول .. ثم تحمل الاثنين على كتفيها .. ثم تختفى .. ولم أعد أرى ست البيت قط ..

وأصبحت البلكونة مثل فيلم قديم أراه كثيراً .. ووجدت المكان والقعدة

بايحة . ولم أستفد من النظر والتفكير شيئاً .. إلا أنني أحب أن أنفرج على هذه السيدة الجميلة وأحلم وأتمنى وأتوهم وأذهب بعيداً .. أبعد مما تستطيع يدي وشهادتي وطموحى ..

وحاولت أن أفسر لماذا هذه البلكونة . ولم أهتد إلى المعنى الحقيقي الذي شغلنى .. فانصرفت عن البلكونة وعن الشارع وعن الفكرة .. وقلت لنفسي : لعل السبب أن يكون هو انبهارى بالملابس الكثيرة النظيفة .. وبالأمس الجميلة والشقة الأنique - وكلها مما لم أعرف في حياتى ..

ودون تفكير وجدتني أذهب لأنخر مرة إلى نفس المكان .. وبدلًا من أن أجلس على الناصية الأخرى ، جلست تحت البلكونة وأمسكت المجلة لكي اقرأ ما سبق أن قرأت عشرات المرات ..

ونظرت إلى أعلى ورأيت الذراعين والعنق وجانيما من الصدر .. وسمعت صوتها .. وصوت الأطفال وهم يلعبون ويضحكون .. وكان للأصوات زين خاص .. يدل على اتساع المكان .. وعلى أشياء أخرى لم أتعودها .. بل وشممت رائحة هي خليط من العطر والطعم وما لا أعرف .. وفجأة وجدت أمامى الأستاذ «كامل ..» . إنه أمين مكتبة الجامعة .. ونهضت تحية له .. وإندهش لرؤيتها وسألتني كثيراً وبسرعة عن وجودى .. وأين أعمل .. ولماذا الجلوس هنا .. وإنها لصدفة سعيدة حقاً أن يكون ذلك بيته وتحت بلكونته .. وإنى ابن حلال وإن حماتي تحبني .. ولذلك فهو يدعونى إلى الغداء .. وإن شخصياً ميت من الجوع .. وإن والدته قد أرسلت له فطيراً مشلتتا من البلد مع العسل والجبننة القديمة .. إنه في حاجة إلى أن يحدثنى في مواضيع كثيرة بعد أن عرف أننى عضو نشط في إحدى الجماعات .. وأننى إن لم أكن الزعيم فأنا أحد الزعماء والقادة .. و .. و ..

وأعتقد أن الذي قلته كان قليلاً وتأفها . فلم يزد كثيراً عن : نعم صحيح .. ربما .. مبالغة فلست إلا واحداً من كثيرين .. إنهم أحسن حالاً مني .. فهم يعرفون من أين جاءوا .. ومن هو الأب الروحي ومن هي الأم المثالية .. أما أنا فقد انقطعت جذورى كلها .. أنا ورقة سقطت من شجرة لا أعرف اسمها ..

كان ذلك موضوع المناقشة الذي دار بيئي وبينه بعد الأكل في الغرفة التي لها بلكونة على الشارع الآخر ..

قال : ماذا جرى .. حدثني .. أريد أن أطمئن عليك ..

قلت : إنها مشكلة تربوية .. أنا على يقين من أمي وأبي . عشت بينها ومعهما . ولكن ما الذي تعلمت منهما . ما الذي قالاه .. ما الذي تركاه .. لا أمي علمتني شيئاً سوى الخوف من الأيام ومن الناس .. وأبى لم يعلمني سوى الصبر على المصائب والإيمان بأن الغد أفضل .. وعاش أبي ومات ولم أجده الغد أفضل من اليوم ، ولا اليوم أحسن من الأمس .. فقد كانت حياة أبي «أمس» متصلة .. بينما الأطفال اليوم تعلمهم وتلقنهم الخادمات .. فالأم تعمل والأب أيضاً . والخادمة هي «بدل فاقد» .. بديل عن الأم المتعلمة التي ليس عندها وقت .. فكأنها لا تعلم ولا قرأت ولا كتبت .. إنها نزلت عن عملها للموظيفة وتركت الخادمة تعلم أطفالها بالجهل والقهر والخوف .. ويتوالى التليفزيون دور الأم .. فالأم تجلس إلى جوار طفلها سعيدة بأنه لا يتكلم وترك للتليفزيون وظيفة الأب والأم والخادمة والمجتمع .. تمام؟ .

- تمام ١.

- ثم الكتب المدرسية تقول لنا إن الزعيم الخالد لم يخطئ .. والزعيم المؤمن

لم يخطئ وعراقي لم يخطئ وسعد زغلول لم يخطئ وكذلك رمسيس الثاني . فمن أين جاءت الكوارث وال المصائب : ومن أى نوع من الناس كان هؤلاء الناس .. كيف لا يخطئ الزعيم الخالد وهو ابن يتيم .. فقير .. وهو الذي انهزم وانكسر وضرب مصر وسجن من أبنائها مئات الآلوف .. قتل وخرب البيوت .. وكيف لا يخطئ الزعيم المؤمن ، وهو الذي يوماً أغضب كل المؤمنين بكل دين .. وهو الذي فضح كل عورات سلفه برقه ولطف .. وعندما أعلن أنه مسئول عن كل أخطائه ، كشف هذه الأخطاء .. وكيف لا يخطئ وقد تغير المجتمع المصري من العزلة والسجن إلى الانطلاق والانفتاح .. ألم يكن هو الآخر متطرفاً كما كان ضحية للمتطرفين .. ثم كيف رفع سقف الدخل العام وفتح أبواب الكسب على الأخر .. الحلال والحرام .. ثم سبق الضمير العربى مئات السنين وأكمل الصلة بينه وبين إسرائيل قبل أن يتخلص المصريون والعرب من الكراهية التقليدية لليهود .. ولما سبق الجميع في المشاري الطويل وقف يتظارهم فوجدهم ما زالوا في أماكنهم .. هل هو الذي خان الأمانة .. هل كانت الأمانة أن نمشي معاً فإذا به يجرى ، أو كان الاتفاق أن نجري معاً فإذا بأجنبية تثبت في ذراعيه فيكون نسراً يحلق بعيداً عالياً أمامنا وفوقنا .. فيها الذي لم تقله الصحف في مصر وغيرها عن الزعيمين : الخالد والمؤمن .. أو الخالد بلا إيهان والمؤمن بلا خلود .. وإذا كان الزعيم آباء الشعوب ، فأى نوع من الآباء هذان الرجالان : عبد الناصر والسداد .. وكيف قالت الكتب المدرسية إن عراقي لم يكن صاحب ثورة وإنها صاحبة «فورة» .. وإن سعد زغلول كان رجلاً مقاماً .. وإن ركب الأحداث وامتطى الموجة .. وبعملية حسابية بسيطة تجد أن آباء الشعوب ليسوا آباء .. وهذا مجرد الشعب من آباءه .. نجعله يتبعاً .. لقيطاً .. ويقوم بدور الخادمة والمربية : المؤرخون والصحفيون ..

قال : هذا الذي يشغلك .. ويعذبك .. و يجعلك تحمل مقدسك معك

فـ كـلـ مـكانـ .. تـمـاماـ كـأـبـنـاءـ الصـعـيدـ الـمـسـتـعـدـينـ لـلـتـضـحـيـةـ ، يـجـمـلـونـ كـفـنـهـمـ .. أوـ هـلـ أـنـتـ قـرـرتـ أـنـ تـكـوـنـ عـلـىـ الـهـامـشـ . عـلـىـ الرـصـيفـ .. لـاـ أـنـتـ تـقـشـىـ وـلـاـ أـنـتـ تـدـخـلـ أـيـ بـيـتـ .. إـنـاـ جـالـسـ كـأـنـكـ تـتـنـتـظـرـ .. وـتـتـنـتـظـرـ كـأـنـكـ عـلـىـ مـوـعـدـ .. وـلـاـ أـنـتـ تـتـنـتـظـرـ أـحـدـاـ وـلـاـ أـنـتـ عـلـىـ مـوـعـدـ .. وـلـاـ حـتـىـ اـخـتـيـارـكـ هـذـاـ مـكـانـ لـهـ مـعـنـىـ ..

قلـتـ : تـقـرـيـباـ ..

قالـ : إـذـنـ لـيـسـ دـقـيقـاـ هـذـاـ التـفـسـيرـ لـسـلـوكـكـ ؟ـ ..

قلـتـ : لـاـ شـيـءـ دـقـيقـ .. وـلـكـنـ كـلـ شـيـءـ بـالـتـقـرـبـ .. هـلـ تـذـكـرـ سـيـادـتـكـ الـأـطـفـالـ الـذـيـنـ أـرـضـعـتـهـ الذـئـابـ وـالـغـزـلـانـ .. حـدـثـ كـثـيرـاـ فـيـ التـارـيـخـ أـنـ وـجـدـواـ طـفـلـاـ يـجـرـىـ بـسـرـعـةـ بـيـنـ الذـئـابـ .. أـمـسـكـوـهـ .. وـجـدـوهـ يـطـلـقـ أـصـوـاتـاـ كـالـذـئـابـ .. لـاـ لـغـةـ .. لـاـ إـنـسـانـيةـ .. وـيـأـكـلـ اللـحـومـ وـالـجـيـفـ .. أـوـ ذـلـكـ الطـفـلـ الـذـيـ أـرـضـعـتـهـ غـزـالـةـ .. يـجـرـىـ مـثـلـهـ وـيـطـلـقـ أـصـوـاتـاـ مـثـلـهـ .. وـيـأـكـلـ الـأـعـشـابـ وـيـنـامـ بـيـنـ الـغـزـلـانـ .. وـلـاـ أـمـسـكـوـهـ لـمـ يـجـدـوـهـ يـنـطـقـوـنـ .. وـاـحـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـأـطـفـالـ أـمـسـكـوـهـ فـيـ مـدـيـنـةـ اـفـرـيـقـيـاـ بـفـرـنـسـاـ فـيـ نـهاـيـةـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ .. كـانـ عـمـرـهـ عـشـرـ سـنـوـاتـ .. أـخـذـوـهـ .. حـاـوـلـوـاـ أـنـ يـجـعـلـوـهـ إـنـسـانـاـ .. لـمـ يـفـلـحـوـ .. كـانـ بـلـيـداـ غـيـباـ لـمـ تـسـطـعـ أـمـهـ الغـزـالـةـ أـوـ الذـئـبـةـ أـنـ تـجـعـلـهـ إـنـسـانـاـ .. إـنـاـ كـأـنـهـ جـالـسـ عـلـىـ مـقـعـدـ بـيـنـ أـمـهـ الذـئـبـةـ الـحـاضـرـةـ وـأـمـهـ حـوـاءـ الـغـائـبـةـ .. وـالـتـفـ حـولـهـ الـأـطـبـاءـ .. وـجـعـلـوـهـ يـعـيـشـ أـرـبـعـينـ عـامـاـ .. وـلـكـنـهـ لـمـ يـتـقدـمـ نـحـوـ الـإـنـسـانـيةـ خـطـوةـ وـاحـدـةـ .. فـهـوـ لـاـ يـعـرـفـ كـيـفـ وـلـدـ وـلـاـ يـعـرـفـ كـيـفـ اـسـتـمـرـ ، وـلـاـ يـدـرـىـ كـيـفـ نـهاـيـةـ .. عـاـشـ كـمـاـ مـاتـ لـاـ هـوـ إـنـسـانـ وـلـاـ هـوـ حـيـوانـ .. لـاـ وـجـدـ أـمـاـ وـلـاـ أـبـاـ وـلـاـ خـادـمـةـ !ـ فـهـمـتـ سـيـادـتـكـ ؟ـ ..

ـ فـهـمـتـ ..

- فهل نحاكم الطفل الإنسان الذى لم يعد إنسانا .. هل نحاكم الطفل الذئب أو الطفل الغزال ، لأنه ليس ذئبا ولا غزالا .. وإذا حاكمته ، فها اسم القانون .. وإذا عرفنا اسم القانون فيها هي التهمة .. وهل هو الجانى أو المجنى عليه .. القاتل أو هو القتيل ؟ هل فهمت سعادتك ؟ .

- نعم فهمت ! وماذا ستعمل ؟ .

- أنا أعمل ؟ أنا مثل رجل مفلس يحلف على المصحف كل يوم أنه سوف يوزع ثروته على الناس بالعدل ! فأنا صادق عندما أحلف على المصحف ، كاذب عندما أعد الناس بأى شيء ! .

- حتى الأمل ؟ .

- الأمل ؟ .. اغتالوه ! .

- الحال ؟ .

- أنا عندي حل ؟ ! .

- لابد أن يكون هناك حل .. عندك .. وعند أمثالك من الذين يتعرضون لقضايا التوجيه والتصحيح .. والتقويم .. والتسير وإنما معنى كل هذا العناء .. أو هذا ما أتصوره .. وأتوقعه .. ولكن إذا نقلت دونك للناس ، فالناس ليسوا في حاجة إلى مزيد .. وإذا قلت إنك لست على يقين ، فقد أفسدت على الناس إيمانهم وأملهم .. وإذا أنت تشبه الزمار المعروف في العصور الوسطى باسم زمار «هاملن» .. الذي راح ينفعن في الزمار فمشى رواه الأطفال ظنا منهم أنه يدعوهم إلى السير به فإذا به ينزل بهم إلى البحر .. ليموتونا وراءه .. أو كالرجل الذى ادعى النبوة والألوهية فى أمريكا واستدرج وراءه عشرات الشبان ثم دعاهم إلى الاتجار الجماعى فى غابات الأمازون ..

أنت كالذى أقنع قوات عرابى أن تقيم حفلات الذكر طول الليل فى مواجهة القوات الإنجليزية التى أكلت ونامت واستراحت ثم هاجمت جنوداً أرهقهم الذكر والسهر طول الليل . . فمن الطبيعى أن ينهزوا . . بل لقد هزموا أنفسهم قبل أن يهزهم الإنجليز . . وقد حدثنا الخبرتى عن أناس مثلك واجهوا قنابل الفرنسيين بأن ظلوا يذكرون «ويقفرون» «فائلن» : يا خفى الألطاف نجنا بما نخاف . . لا أكثر ولا أقل ! .

- إننى أبحث عن آباء لنا وأمهات . .

- يا أخي وما حاجتك إلى أم وقد بلغت . . بل أنت تبحث عن بدديل عن الأم . . عن الزوجة . . التى تكون أمك وأختك وابنةك أيضاً . . أى عن التكامل العائلى . .

- يا سيدى ليس هذا بالضبط . . وإنما أفسر هذا الشعور باليتيم عندنا . . هذا الشعور بأنهم اقتلعونا من جذورنا . . فتحن أشجار مالت على جانب الحقل ، فقد نزعوها من أرضها . . ثم طالبوا بأن تعتدى . . كيف ؟ .

- وهل انعدمت القدوة في التاريخ . . أين الأبطال . . أين البرار . . أين الشهداء . . أين الرسول والخلفاء والصحابة . . أين كتاب الله . . أين الله ؟ . .

- الآن أنت افترست من المعنى الذى أريد . . كل ذلك يجب أن يوضع في كتب المدرسة . . في برامج الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات . . ولست أنا ولا أنت قادرین على ذلك . . إن هناك إصراراً على أننا لقطاء . . ويجب أن تكون . . يتأمى . من الضرورى أن نظل كذلك . . كأننا أبطال في أحد أفلام نجيب محفوظ . . أعطونا صورة للأب وطلبوا منا أن نبحث عنه وسط الملايين . . لا بأس . . ولكن من عجيب أمرهم يغيرون هذه

الصورة من حين إلى حين . . تعددت الصور والمهدف واحد . فكيف يكون الألب واحدا ، والصور كثيرة . . وقد أسلقنا اليأس من جدوى البحث . . ولذلك فنحن في انتظار المعجزة ! .

- موافق تماما . و لماذا تأخذ البحث عن الألب وفقا لهذه الصورة . . إن أحدا لا يعرف كل صور العظيماء في التاريخ ، فقد بقيت أعمالهم . . إن عملية الحملة الفرنسية قد نقلوا كل آثار مصر الفرعونية بأيديهم . . ولم تكن هناك كاميرات . . ولا ظهرت الكاميرات أزدonna إعجابا بهم ، فقد صنعوا المستحيل . . والقوات الفرنسية عندما ذهبت إلى الأقصر بهرتها الآثار العظيمة ، ولذلك ألقوا السلاح احتراما للتاريخ . . لم نر هذا الصورة ، ولكن نستطيع أن نتخيلها . فالحدث نفسه أبلغ من الصورة . . وفي التاريخ أحداث أعمق وأبلغ من أن يصورها قلم أو كاميرا . . إلا إذا كنت . .

- إذا كنت ماذ؟ .

- إذا كنت لا تعنى ما تقول . . إلا إذا كنت اخترت الرصيف . . إلا إذا كنت قد اخترت هذا المقد عكازا لكل جسمك وعقلك . . وأنك قد أنهيت مهمتك ودورك قبل أن تبدأ شيئا . .

وأخرجت من جيبي صحيفة الأمس وأشارت إلى الصفحة الأولى ووضعت أصبعي على خبر يقول : النار شبت في مخازن إحدى دور نشر الكتب المدرسية . .

فسألنى : أنت الذى فعلت ذلك؟

قلت : يعني أ .

قال : غلط . .

قلت : لماذا؟ .

قال : سوف يقال إنه ماس كهربى . . . وسوف يقال إنه فار دخل بين الأسلام . . . وسوف يقال عود كبريت . . . وسوف يقال إن الحارس عندما اكتشف سرقة بعض الكتب أشعل فيها النار . .

ثم أخرجت من جيبي ورقة أخرى . وطلبت منه أن يقرأها . . . فقال أنت الذي كتب هذا المنشور تعلن غضبك على هذه الكتب التي تجحد الشعب من أن يكون له أب . . . أو مثل أعلى . . . وتستذكر تزيف التاريخ الوطني .

قلت : لست أنا . . . ولكن لابد أنه أحد أعرفه . . . وهذا غلط أيضا . . فاسحراق الكتب ليس حلا . . . ولكن المهم أن يتولد شعور عام ويبلهان عام بضرورة الصدق . . . بضرورة أن نرى الإنسان إنسانا لا إله لها ولا ربع إله . .

قال : كيف ؟

قلت : لا أعرف . . . ولكنني أرى وأسمع موجات اليقظة . . . نسمات الصحيحة . . . فقد انكشفنا جميعا أمام أنفسنا . . . نحن لا نصدق أحدا . . . نحن جميعا يكذب ببعض البعض . . . ولا نثق في الذي يقال ولا في الذي نقول . . . ومن التكذيب المتداول والاستئثار المتزامن ، والكفر والتفكير سوف نصل إلى حقيقة واحدة هي : أنه لا خلاص لنا إلا بالصدق . . . بالاتفاق على حقائق ثابتة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ولا من قدامها . . . وليس ذلك بعيد . . . إنه في أيدينا . . . في قلوبينا . .

- فقط ؟

- وهل هذا قليل !؟ .

- هل تركنى أفكر ؟ .

- هذا كل ما أتنبه له ولذلك ولنا ! .

وانصرفنا وسمعته يقول : مجنون ؟ نعم مجنون ! .

الفخر والهوان والندم !

كل يوم أكتشف شيئاً جديداً في نفسي .. فأنما ما أزال غارقاً في أحماقى ، لم أفلح في أن أخرج منها بعد . ولكن أعتقد أننى سوف أستطيع .. لابد أن يكون السبب هو عبارة قرأتها قديماً تقول : اعرف نفسك أولاً ويعدها تستطيع أن تفهم الناس . صحي . ولكن المشكلة أننى أحاول أن أعرف نفسي .. فلم أجذنني قد نجحت كثيراً . فكيف أعرف الناس . حتى أصبحت مثل واحد ركبقطاراً وأخرج رأسه من النافذة لتضريرها أعمدة التليفونات واحداً بعد واحد .. وكل ليلة أعود إلى فراشى أحاول أن أجمع فتاقيت دماغي ومسحوق انكارى لعل أفهم شيئاً - إننى أحاول ..

أما الذى اكتشفته فهو أننى أذهب من حين إلى حين إلى جبلية القرود .. وأقف أتفرج على الإنسان فى صورته البدائية .. نفس الوجه والنظارات والتزحام وسيطرة القوى على الضعيف .. الأب أو الذكر يجلس عالياً كأنه عمدة .. أو كأنه قاطع طريق وبقية الشعب يجلس بعيداً .. والأمهات حائزات بالصغار .. وكلما شخط العمة ارتعدت الأمهات وتهدأ عدد من شباب القرود .. فإذا جاء الطعام تزاحموا وتقاتلوا ونسى الصغير حجمه وداس الشباب على الشيخ وانهارت الأمهات تحت الأقدام .. وليس بين القرود قانون - إلا قانون القوة والعضلات والحناجر ..

ثم أتفرج على طابور الجمعية .. إنه مثل جبلية القرود وقد دخلها بعض

النظام . . أما القوى الجبار فهو موظف الجمعية . . في حالة غضب دائم وقرف مستمر . . وهو لا يتكلم . . ولكن نظراته كرابيچ ، وصمته قاتل . . والناس يرون السلع تخرج بلا طابور . . ويجدونها قد التفت في أوراق أنيقة وسلمت إلى سيارات أكثر أناقة تقف بعيدا . . والمعنى واضح . . ولكن لماذا هؤلاء القادرون يجيشون ، مع أن في استطاعتهم أن يبعثوا بالخدم أو السفرجي يتولى ذلك عنهم . . ولكنهم لا يفعلون لأنهم يجدون متعة في إظهار عظمتهم وذل الناس ، وقدرتهم وهوان الناس ، فهم يجلسون في سيارة والناس وقوف ، هم يدخنون والناس يحترقون ، والسلع تسعى إليهم ، بينما الناس يكافحون حتى يصلوا إلى نهاية الطابور ليسمعوا : تعالوا بكرة . . إنها متعة الفرجة على تعذيب الناس واذلامهم ! .

أما بقية المشاري إلى البيت فمعروف وهو أننى أمر على مقابر الإمام الشافعى . . نهاية كل حى . . أرض السلام الأبدي . . لا أكل ولا شرب ولا عمل ولا عائلة ولا مستقبل . . انتهى كل شيء . . أغفلت كل الحسابات وقضى الأمر . . من الملك اليوم ؟ الله الواحد القهار . . آمنت بالله . . أين العمدة . . لا عمدة . . أين الرعية ؟ راحت عليهم نومة . . أين الطابور ؟ تحت الأرض لا طوابير . . المعنى : إن كل من عليها فان . . ولكن قبل أن يفنى كل من على الأرض لابد أن نعيش . . فقد ولدنا لنعيش ويعدها نموت . . وليس المشكلة كيف نموت ولا أين ومتى نموت . . المشكلة هي كيف نعيش وأين وكيف ومتى . . المشكلة هي جبالية القرود وطابور الجمعية وأتوبيس المدرسة والاستقبال في المستشفيات . . المشكلة هي أن نعيش اليوم ونموت غدا . . واليوم طويل جدا ، وغدا قصير جدا . .

أنا تعلمت . . وأريد أن أعمل . . وإذا عملت أن يكون عملى هو الذى

تحصصت فيه . . وأن أعرف بنت الحلال وأجد البيت وأتزوج وأكون قادراً أنا وزوجتي على تربية طفلين . . وفي نفس الوقت الذي نعلم فيه الطفلين ، تكون جميعاً قادرين على الحياة ، ليكون أطفالنا في صحة جيدة ، وفي حالة عقلية متوازنة . وبدلًا من أن نضاعف عدد البائسين ، نخلق جيلاً أكثر شجاعة وأعمق تفاؤلاً ، وأسع تساحماً ، وأقدر على بناء بلده أفضل من هذا البلد الذي ولدنا فيه ومتنا على أرضه . وهذا هو التطور . . ولكن لا نريد أن يكون أولادنا مثل الدود الذي خرج من المش . . ابن النكسة ، رضيع العار ، سلالة الفشل ، طين البرك . . وإنما نريد لكيافتنا أن يتولد عنده ما هو أجمل وأطفأ وأسلم . . إنني أرى الأطفال لا يكاد الواحد يرى الآخر حتى يتلامسوا ويدور حوار ويلعبون ويتعلقون . . إنهم ليسوا في حاجة إلى مجهر كبير ليتعايشوا ويتخابوا . . ولكن الشباب يحتاج إلى وقت أطول . . أذكر أنني ذهبت مع طفل صغير إلى حديقة الحيوان وانشغلت عنه بالنظر إلى الأفاعي . .

ولما بحثت عنه وجدت معه قطعاً من الشيكولاتة وبرقائق وحصاناً من خشب . . وسألته : من أين ؟ فأشار إلىأطفال آخرين . إنه لم يطلب . ولكنهم الأطفال يتعارفون ويتخابون ويشاركون بغير كلام ؟ هذا هو الحب وهذا هو السلام وهذه هي البراءة .

أنا أقول لك بالضبط ما الذي أحس به الآن . . إنني مثل عنكبوت أفرز خيوطاً . . شبكة . . مصيدة . . أفكارى ومشاعرى هى المصيدة . . ولكننى تعلقت فيها في حالة تريص . . والذى يرانى يحس أننى مشتوق . . معلق . . مصلوب من أفكارى . . ولكن هذه حال كل إنسان . . فكل واحد يفرز أفكاره ويتعلق منها . . يعيش بها ويموت بسببها أيضاً . هل هناك حل ؟ لا

حل . فكل واحد كالمسيح يحمل صليبيه .. يحمل مبادئه التي يعيش بها ويموت عليها ..

فإذا كان هنا رأى فما الذي يضايقني ؟ . يضايقك ؟ أنا أقول لك ..
يضايقك أن أفكارك ليست هي أفكار كل الناس .. فإذا كانت أفكار كل
الناس ، فلا يبقى إلا تطبيقها . على من ؟ على نفسك ثم على الآخرين .. أو
بالتضامن مع الآخرين .

- لا تنس أنني أكلم نفسي ! .

ولابد أن يجد كل واحد منا العمل المناسب في الوقت المناسب .. ولكنك
ووجدت العمل المناسب . هذا صحيح . ولابد أن يجد زملائى العمل المناسب
أيضا .

سؤال آخر من فضلك : أنت وجدت العمل فهل أمسكت قلماً وورقاً
وعملت بقرش واحد مما تقاضاه في نهاية كل شهر ؟ . أنت نسيت . أنت لم
تفعل أي شيء .. أنت تشخط في الناس الذين يتحتم عليك أن تخدمهم وأن
تتذكر كيف كان الموظفون يعاملونك يوم ذهبت تستخرج شهادة وفاة .. هل
نسيت ؟ هل نسيت ما وعدت به نفسك وتعهدت به أمام الله أن تكون «قدوة»
لأنك صاحب رسالة .. فلا أنت كتبت ولا أنت رحبت بأحد ، ولا أنت
رفيت بها وعدت وتعهدت .. فليس صحيحاً أن لك شكوى وإنما أنت
تبحث لك عن مبرر .. هذا المبرر هو ألا تعمل في انتظار أن يعمل كل
زملائك .. كأنك قبطان في سفينة تغرق .. لابد أن تكون آخر من ينجو من
السفينة .. والحقيقة أنك لا قبطان ولا هناك سفينة تغرق .. وإنما أنت الذي
أقام السفينة وأغرقها وجعلت نفسك قبطاناً لها ..

أنا أصارحك بحقيقةك - كل هذا حديثي مع نفسى وهو حديث طويل
عنيف ..

الحقيقة هى أن الذى تحقق فى بلادنا كثيرا جدا .. فائت كل يوم تفتح
الخنفية فينزل الماء وتضىء الغرفة وإذا ذهبت إلى البقال وجدت أكثر ما تحتاج
إليه .. وكذلك عند الفرن وفي الأتوبوس والقطارات مقاعد .. وفي المدارس
والمستشفيات .. كل شئ موجود .. أو أكثر مما تحتاج إليه موجود .. لا
تقارن بين مصر وأمريكا . لا منطق .. لا سبب . ولا تقارن بين مصر
وبريطانيا . لا وجه للمقارنة . والأرض محدودة والأرزاق .. والناس
يزيدون .. ولا أحد يريد أن يتوقف عن زيادة أفراد أسرته .. وجاءت الحروب
وأكلت الناس وأرزاهم .. والتهمت آمال الناس وأطاحت بأحلامهم .. إن
أوروبا عرفت حربين في هذا القرن .. ولكننا عانينا في ربع قرن أربع حروب
مضافا إليها الحربين العالميين أيضا .. أى ست حروب .. والآن عندنا حرب
في مكان ووقف إطلاق النار في مكان آخر .. ثم الحروب بين العرب .. وبين
المسلمين .. ثم استنزاف الطاقة البشرية واستنزاف للأموال وإحراق
لالأعصاب وتبييد للعقل .. وكل ذلك ليس بعيدا عنا .. ونحن الدولة الأفرو
آسيوية الوحيدة في العالم ..

وأنت تشعر بالفخر كثيرا عندما تتحدث عن مصر ، أمام أحد من الأجانب
العرب أو الحجاجات .. تشير إلى الأهرام والحضارة القديمة والنيل العظيم ..
وإنما لم نبرح هذه الأرض من ألف السنين .. بينما الشعوب اليهودية في
إسرائيل قد اقتلعوا من كل أرض وجمعوها وحشروا في قلب الوطن العربي
.. وعادوا يغرسون جذورها في أرض غريبة .. لقد كان موسى عليه السلام
بالغ الحكم عندما وصف نفسه بأنه «غريب في بلاد غريبة» .. وهم غرباء في

أرض غريبة .. ولکى يذيبوا الفوارق المذهبية واللغوية بينهم ، كان لابد من اسكتاھم بالحرب - أى بأن يصبحوا جنودا يوجهون سلاحهم نحو عدو واحد دون أن ينطقوا بكلمة . ولو نطقوا فلن يفهم أحدهم الآخر .. ولو تحقق السلام فجأة بين إسرائيل والعرب لقطعت إسرائيل ألف قطعة وألف لون ومذهب في الدين وفي السياسة وفي اللغة . ومع ذلك فنحن لا نريد السلام - وهي غلطتنا .. وهم يريدون السلام - وهي غلطتهم .

فأنت تشعر بالفخر أمام الأهرامات وأمام الكفاح المصري المسلح والكفاح من أجل السلام والاستقرار .. ويكون شعورك هذا معناه ، أنك راض عن كل شيء ، لأنك ساهمت في كل شيء .. فأنت لم تساهم في بناء الهرم ولا الحضارة المصرية .. ولكنك تقول : أجدادى فعلوا .. أجدادى ابتكروا .. أى أنك واحد من هؤلاء الذين حققوا العظمة المعمارية والأبهة التاريخية .

ويقابل ذلك شعور بالعار .. فعلى الرغم من أنك تفخر بأن أجدادك هم الذين صنعوا الحضارة القديمة ، فإن أباءك لم يفعلوا شيئا من ذلك .. وتفز إلى ذهنك حروب ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ .. وكلها هزائم بسبب سوء الفهم وسوء الاستعداد والضغط عليك من داخلك ومن خارجك .. صحيح أنك لم تخرب .. ولكن أباءك هم الذين فعلوا ذلك .. فأورثوك الخزي والقرف واليأس .. فإذا قرأت عن الذى فعله الروس والإنجليز والذى فعله الأميركيان والألمان واليابان ، أصبح شعورك بالعار عميقا .. فلا صبرنا ولا نابزنا ولا ضحينا ولا غضبنا ولا ثرنا على القاتل والسفاح .. ولا تجمعت أيدينا في يد واحدة .. ولا توحدت أصابعنا في إصبع واحدة تشير إلى رجل واحد وتقول : الخائن .. اشتهرو .. بل وزعوا علينا خلاياه لنشنقها في كل بيت .. هذا هو العار .. هذا هو الانكسار للرأس ، والعنق والظهر .. وهذا هو العار الذي

أغرقنا في كل مرة نتطلع إلى القادة فلا نرى إلا دخان الحشيش والإشذوذ الجنسي والماخبي .. وإلا رجلاً أكرهوه أن يؤذن غير متوضئ لصلاة الفجر عند منتصف الليل .. ثم تقرأ في الكتب وفي الصحف أننا انتصرا ، وأننا عندما أعطينا العدو قفانا تركناه يصفعنا حتى أوجعته يده .. وتركناه يبصق علينا حتى جف ريقه .. ثم دعونا عليه أن يخرب الله بيته ، ويشرد أولاده والأهالي بهم إلى هذا البلد - جراء وفاقاً لما فعل بمئات الآلاف من الشباب ماتوا بغيبتهم وغيبتهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم .. وعارضنا !.

أنت تريد الآن أن تصنع لنفسك كوبًا من الشاي؟! اجلس ! أنت تريد أن تهرب مني .. من نفسك . اجلس دعني أكمل كلامي .. فالكلام المؤلم هو الذي سوف أقوله الآن .. اسمع - إنشي أكلم نفسي .. أؤلم نفسي :

والشعور الثالث : هو الندم .. أي شعورك بالذنب . أنت مذنب .. لأنك لا أحد بريء .. تقول إنك لم تحارب . تقول إنك لم تكن مسؤولاً عن شيء . وإنها وجدت أيامك يعبدون الثور . فمضيت تعبد الثور والحيوانات الأخرى . إن أجدادنا الذين أقاموا الهرم كانوا يعبدون العجل . وعبادة العجل لم تمنعهم من إقامة الحضارة الفرعونية كلها .. فقد قامت على قرني ثور . وأساطير الأغريق تقول إن الأرض يحملها ثور على قرنيه .. والزلزال والبراكين تقع عندما ينقل الثور الكوة الأرضية من قرنه الأيمن إلى قرنه الأيسر ..

ولتكنك ندمة يا سيدى .. فأنك ترى كل ذلك وتسكت .. هذا ذنب . أن تقرأ عن كل هذا وتبلع ريقك ، هذا ذنب .. أن تنسى ذلك بالتردد على جبلية القرود ومقابر الإمام هذا ذنب .. أن تجد عملاً ثم تشغله بزملاطك الذين لا يعملون ، هذا ذنب .. أن توجل عمل اليوم إلى ما بعد غد هذه خطيبة . وأن تعتاد على هذا الشعور وأن تقف محلك سر .. فأنك نادم على

ذلك . . وأن تدعى الناس كلها لكي تستشعر المشاركة التاريخية في كل ما يدور حولهم من أحداث السياسة وال الحرب والخلافات بين الطوائف والقبائل . . هذا واجب . ولكن أن نكتفي بهذا القدر من المشاركة والمصالحة والنظر إلى الوراء في يأس وإلى الإمام في غضب والسكوت عن الحاضر هذا هو الإثم . . وأن تستمرى هذا الشعور بالذنب والتوقف عند ذلك ، فهذا هو المرض . أخطر أمراض العصر : أن تشعر بالندم ، وأن يجعل الندم سلوكاً عاماً . فتضيع فرامل على طاقاتك وعلاقاتك . . ثم تشكو من عجزك عن فعل شيء . . وتدعى أن الذين عمقوا فيك الندم هم الآخرون . . وأنهم آباءك وأجدادك قبلهم . . وهكذا تؤمن - كاذباً - بأنك ضحية . . الجيل الضحية . . الجيل الفريسة . . الذي قصفوا أظافره وزرعوا أنبيائه وسرقوا حجرته ، وسدوا معدته - مع أنك تأكل وترثب وتضحك وتحب وتکذب وتتخيل وتجلس في مقاعد الزعماء . . وتصل وتطلب من الله أن يعينك أنت والآخرين على مواجهة الممكن والصعب والمستحيل - وأنتم جميعاً كاذبون . . في حياة كل منكم مشاكل صغيرة - مثلاً : هل دفعت فاتورة النور . . الفلوس في جيبك . ولكنك لا تذهب . . هل سددت البقال . . لم تفعل . مع أن الفلوس في جيبك . . هل ذهبت تقرأ الفاتحة على روح والدتك يوم الخميس الماضي . . لم تذهب مع أن المقابر في طريقك ذهاباً وإياباً . . هل في استطاعتك أن تقول اسم الدولة العظمى التي منعتك من تعاطي المضادات الحيوية حتى لا يكبر الدمل في عينك . . هل تدلنى على اسم القوى الاستعمارية التي جعلتك تقفل التليفون في وجه أختك ، مع أنك أنت الغلطان . . ثم من هي العصابة الشيوعية أو الشيعية التي جعلتك تکذب على فتاة مسكينة غلبانة قوية اخلق متفوقة عنك في الدراسة وفي الظروف المادية فتعدها بالزواج ١٩

جعلت أتلمس رأسي وعنقى . . فقد انهالت الضربات على كل مكان . .

فوجئتني مذشدا .. وفتحت صدرى للهواء القليل الذى جاء من ناحية المقابر .. ونظرت إلى وجهى ف المرأة : مجرم أنا؟ كذاب؟ لا أمل في شيء .. ولم أشأ أن أشرب الشاي وإنما وضعت إصبعي وتركتها تحرق .. ولا أعرف كيف سيطرت على شعوري بالألم .. وقتنى أن أقفز في هذا الكوب وأحرق مثل إصبعي .. ليتهى كل شيء ..

ثم تركت الشاي والبيت وخرجت لكي ألقى بنفسى بين الناس هاربا من نفسى .. ورحت أنظر إلى كل شيء حتى لا أنظر في نفسى .. وحاولت أن أحشر الدنيا كلها بيى وبيى نفسى حتى لا أسمع شيئاً و حتى لا أقول شيئاً .. وعند أقرب محطة أتوبيس جلست .. مع أننى لا أركب الأتوبيس .. وأخرجت منديلا من جيبى وحررت جانبا من الساق وربطتها .. فقد وجدت سيدة تحمل رضيعا على صدرها وفي يدها طفل .. فحاولت أن أبدو أمامها عاجزا عن الوقوف .. إنه كذب على نفسى وعلى الناس .. وخجلت من نفسى فنهضت .. ومشيت ومشيت ..

ولا أعرف كيف وصلت إلى بيتها .. تلك المسكينة التى وعدتها بالكثير .. وفتحت هى الباب .. وقلت لها : تعالى معى أ ..

قالت : إلى أين؟ ..

قلت : إلى المأذون! ..

قالت : المأذون هنا؟ ..

قلت : هنا؟ كيف؟ ..

قالت : اليوم كتب كتابى ..

قلت : على من؟ ..

قالت : لا يهم ادخل .. أختك هنا ..

قلت : أختي ؟ هنا ؟ ! كيف ؟ .

قالت : أنا أعطيتك مهلة ستة شهور .. ومضت تسعة شهور !

قلت : تسعة شهور ؟ ! يعني إيه ؟ .

قالت : يعني أنك ، مثل الآخرين ، عاجز عن اتخاذ قرار واحد في حياتك .. أنت تنتظر دائياً من يقرر لك . ثم تحتاج وأخيراً تستسلم تماماً . وهذا ما حدث .. لقد قرر شخص آخر أن يتزوجني ! .

قلت : صحي .. صحي .. الفخر بك والعار بعدهك ثم الندم عليك ..
صحي .. مع الأسف ! .

أَفْكَارُنَا الْمُسْتَحَارَةُ

أصبح من عاداتى أن أندم على الذى قلت ، وأندم أكثر على الذى فعلت ، وأندم أكثر وأكثر على أنى لم أقل أشد ولم أفعل أعنف . لقد انقلبت على نفسي : واحد يلوم والثانى يرد أغلفظ .. ولم أعرف أى هولاء أنا .. لقد انقسمت على نفسي .. وهو شعور كريه .. يجعل الإنسان ضعيفا .. بليدا .. عاجزا عن القيام والقعود والنوم ..

وقد صاحت نفسي ، على نفسي . قلت : لم أكن كاذبا ولا خادعا . وإنها هي الضرورة . فليس من الحكمة أن يقول الإنسان ما يعتقد .. ولا أن يكون صادقا مع الناس .. وإنها فقط أن يتغادى الناس .. وأن يسايرهم وينجاريهم ويواريهم ويداريهم ..

هل كذاب أنا؟ .. بل كان من الواجب أن أكذب !

وليس هذا هو الكذب . وإنها هذه هي «الثقة» .. أى مسايرة الناس فقط وإيهامهم بأن رأيك هو رأيهم . وأنك مثلهم تماما . والحقيقة غير ذلك .. ومبدا «الثقة» من أهم مبادئ الشيعة . والمثل عندهم يقول : لا دين لمن لا تقة له .. ويقال إن رجلين سئلا عن رأيهما في الخليفة فقال واحد : أحبه . قال الثانى أكرهه .. فتركوا الأول وقتلوا الثانى .. والأول فقيه في الدين والثانى قد تعجل دخول الجنة !

وكان الخلاف بيننا أن أحد الأصدقاء يريد أن يهاجر إلى استراليا . ولم
أفهم . فهو غنى الأب والأم . البيت عنده الأرض والأموال والشباب
والوظيفة . وإذا أنت سمعته أيقنت أنه فقير ابن غير ابن غسالة . و أن مصر
لا تريده .. ولذلك فمن الأفضل أن تبحث له عن أقرب صندوق زبالة . ولم
أطق صبرا على ذلك . فقلت له : هل تسكن غرفة فوق السطوح ؟ .. هل
تقف في طابور الجمعية ؟ .. هل تمشي على الصراط المستقيم بين الحلال
والحرام .. تخاف الحرام ولا تقدم على الحلال ؟ .. هل تهرب من كل بنت
يميل لها قلبك حتى لا تميل كلث و حتى لا تتحدثا في الزواج ؟ .. هل
أرسلتك الخدمة العامة إلى أسيوط بينما يجب أن تعمل في القاهرة في الصحافة
بدلا من الحكم المحلي ؟ .. هل أبوك يتظاهر يوم تعينتك لسداد ديون أمك ،
ومصاريف اخوتك ؟ .. أنت كذاب .. حتى مشاكل القراء قد استوليتهم
عليها .. أنت لا تتحدث عن مشاكلك .. إنك استعررت هذه المشاكل من
البواب والسفرجي .. أنت سمعتهم وتبنيت قضيتهم ، لا كأحد المحامين
ترافق عنهم . وإنما استعررت مشاكلهم وشكوا لهم ونسبتها إلى نفسك .. أنت
كذاب ولص .. وتريدنا أن نصدقك لكن نكره حياتنا ونكرف بيادنا ونتعجل
مستقبلنا بدخول السجن أو دخول النار .. أنت وقومك كارثة علينا ..
ثرواتكم تبعث على اليأس ، وكذبكم يعود إلى القرف .. حتى الشكوى من
الزمان والتفكير في التكفير والهجرة قد استحوذتم عليه ، فلم يعد لنا إلا شيء
واحد : أن ننصركم إليكم ونلعن آذاننا إذا سمعت ، ونقولنا إذا صدقت ،
وأياما إذا طالت ..

ونسيت مبدأ «الحقيقة» .. فالحقيقة تحتاج إلى قدرة ومرونة .. قدرة على
إخفاء مشاعرى ، ومرنة في مسايرة من لا أصدق ولا أحب .. أعترف بأنى

مندفع .. واعترف بأننى حاقد على الآخرين ..

ولذلك لابد من الهجرة . عندي ألف سبب لذلك .. هل يشتد من رحمة الله ؟ .. لم أياس من رحمة الله ، وإنما يئست من قدرتى على انتظار هذه الرحمة: تحيى أو لا تحيى . في الحياة أو بعد الموت .. ولا أعرف كيف قال عمر بن الخطاب هذه الآيات عندما حضرته الوفاة:

ألم تر أن ربك ليس تخصى أيداده الحديثة والقديمة
تسل عن الهموم فليس شيء يقوم ، ولا همومك بالقيمة
لعل الله ينظر بعد هذا إليك بنظرة منه رحيمة !

كيف يا خليفة الله ؟ .. كيف هذا المدحوه وهذا الصبر وهذا الأمل في الرحمة؟ من أين لهذا الصفاء والسلام ؟ .

وقررت أن أذهب إلى صديقى الغنى جداً هدا وأقول له : أنا أأسأت إليك .. أنا فهمتك فيها خطأنا . لقد فكرت وفكترت . فوجدت أنك على حق . وأنه لابد أن نتبني قضيائنا الفقراء . وأن نندمج فيها كأنها قضيائنا حتى تكون قضيائنا .. وبعد ذلك لا أمل في حل .. فليس غريباً أن نجد عدداً من أصحاب الملائكة هم أنفسهم زعماء الشيوعية .. إنهم نسوا أمواهم ولم يذكروا إلا فقر الناس .. إنهم نسوا قصورهم ولم يروا إلا أ��واخ الناس .. ضاقوا بالأمن ، وملوا الشبع ، ومزقوا أنفسهم حزناً على الخائبين والضائعين والجائع .. فمن الصعب أن ننظر إلى مواجه الناس كما يانظر الأطباء إلى مرضائهم .. فالطبيب لا يستطيع أن يندمج متأثراً بمرضاه لدرجة أن يصاب بنفس المرض .. ولو فعل كل طبيب ذلك ، ملت في أول لقاء مع مرضاه .. ولكنه يجاملهم حتى يفهم ويعالجهم .. تماماً كما يعالج الميكانيكي سيارة ..

يفهم وليس بإحساس ومشاركة وجداً .. فقط يسمع ويرى وفهم
ويداوى .. ولكن لا يكفي معه وعليه .. هذا ما لا تستطيع مع مشاكل
الناس الذين يملأون عيوننا وأذاننا ويفرزون أحلامنا .. الذي تراه ليس
مشهداً تمثيلياً ييكيناً ثم نصفق له في النهاية .. إنه مشهد لا ينتهي وعداب بلا
حدود، وفداء في الآخرين من أجل إنقاذهم ..

ورأيت الدموع في عينيه ووجلتني بين ذراعيه .. وقلت لنفسى: أنت
كذاب .. حقيقة !

ورددت على نفسى : لست كذاباً ولكنها التحية .. ولا إسلام لمن لا تقيمة
له .

فما الذي أريده منه ؟ لا شيء إلا أن يساعدنى أنا أيضاً على الهجرة من
مصر . له صلات وأقارب في كل مكان ، فقط أريد أن أغلق باب الطائرة
ورائي وأستمع غارقاً مسحوراً إلى صوت المضيفة القبيح وهى تقول :
أهلًا بكم سيداتى وسادتى على متن الطائرة المتوجهة إلى سيدنى .. الكابتن
عرض الله وطاقم الطائرة يتمنون لكم رحلة سعيدة .. وسوف تقطع الرحلة في
١٩ ساعة تتوقف خلالها في الرياض ودلهى وبانكوك وجاركارتا وداروين ثم
سيدنى .. أتمنى ..

وسوف يكون سعيداً أتمنى صدقته .. وأنه أدى خدمة لأحد .. سوف
أكون سعيداً بأننى سافرت . طفشت استرحت من قذارة الشوارع والناس
وطوابير الجمعية وخطب الوزراء .. والمجتمعات الجديدة التي ليست
جديدة .. ووجوه الوزراء وأصواتهم المتشابهة ، حتى لم يعد أحد يعرف من
الذى ذهب ولا من الذى جاء .. ولم يكن ساذجاً ذلك الفلاح الذى سمعناه

يدعو لسعد زغلول بطول العمر . . مع أن سعد زغلول مات من كذا وخمسين عاما . . لقد التصقت في عينه صورة وصوت سعد زغلول ، ولم يعد يرى أو يسمع غيره . . فهو وحده الذي كان له ما يميزه . . أما هؤلاء فلا ميزة لهم . . وهم جميعا «بدل فاقد» . هكذا تصور الفلاح الساذج . . ولم يكن بعيداً عن الحقيقة . .

إذا اتفقنا على الهجرة من مصر إلى بلاد السعادة والرخاء . . وعمرار يامصر . هذا واجب القادرين على أن يقيموا فيها ويحرسوا ويعمروها : أما نحن - أنا والزماء الأربع - لستنا قادرين ولا مؤهلين . لقد فسدنا تماماً : فقد انصرفنا عن النظر حولنا . . وأمامنا . . فقط وراءنا في غضب وحزن و Yas . إننا نمشي في الدنيا بظهورنا لا نرى إلا الماضي ، وننزلق على الحاضر . . ثم لا مستقبل لنا . لقد أدخلنا الإحساس بالحاضر والمستقبل إلى استراليا . . أما مصر بلد الأهرامات وأبي الهول والكرنك مصر التي مضت ، فهي التي نعرفها . . حتى السد العالى نحن نراه هرما قد اعترض المجرى المائي . . أو هو بلاطجي جرد النيل من الطمى ومن ثروته المعدنية والحيوانية . ثم سد الطريق إلى الوجه البحري .

حتى هذه القضية وجدت نفسي أنا الآخر قد استعرتها من زملائي . . فليس صحيحاً أنني قادر على الهجرة . كيف ؟ إننى مرتبط باللغة العربية فأنما تخصصت في الأدب الجاهلي والعباسي والحديث . . وأفنيت نور عيني في دراسة العروض وفعل فعلون مستفعلن وألفية ابن مالك . . والهمزية . . وبيان سعاد . . وهبطت إليك من محل الأرفع . . وقفنا بيك . . وخدعواها بقولهم حسناء . . وكيف ترقى رقيك الأنبياء . . إلى آخره . . ما الذي يفيد أهل استراليا من مثل هذه القصائد التي حفظتها . . لافتادة طبعا . إذن فلا بد

أن أعمل أي شيء .. ساقها .. مكوجيا .. شيئاً .. في بار .. فلا حا ..
أبداً من الأول .. وكأنني لا تعلمت ولا قطعت نفس أهلي ينفقون على
ملابسى وعلاجي وكتبي ، أعطوني ما في أفواههم وما في جيوبهم وما في
عيونهم من نوم ونور لكي أكون شيئاً . فلما حان الوقت ، تخليت عنهم ..
وأوصلتهم لنصف البير وقطعت الخيل فيهم - كما تقول الأغنية اللبنانية ..

إذن قضية الهجرة ليست قضيتى ، إنها قضية استعرتها من الآخرين ..
إنى مثل بعض الطيور التى تتسلل إلى أوكرار طيور أخرى وتطردتها وتنام على
بيضها .. حتى يفقس البيض .. ثم تدافع بوقاحة عن صغارها .. وهى
ليست وقحة إنها تدافع عن قاعدة إنسانية في الوراثة الجاهلية : .. قاعدة أن
الابن للفراش .. فهى في الفراش وما يتحرك تحتها من صغار هى صغارها !.

وكذلك أنا ..

تلعبت المعانى في رأسى .. وتضاربت الدوافع ، وتدخلت إرادتى
وإرادة الآخرين .. ولم أعد أفرق بوضوح بين الذى أريده وبين الذى أقناه ،
وبين الذى أقناه لغيرى ، أننى مثل بيت «مسكون» .. ففى داخل قوى لا
أعرفها تحركنى يميناً وشمالاً . ولا سلطان لي عليها .. هل تعرف البيوت
المسكونة التى تنكسر فيها الأطباق على الأرض .. وتتشظى فيها الأبواب ..
وإذا نظرت إلى الأرض لم تجد بقايا الأطباق ، ولم تمر الأبواب تتحرك .. أما أنها
أصوات فهذا مؤكد .. أصوات بلا صورة .. أنا هذا البيت المسكون ..

بل كل الناس كذلك .. نسمعهم ولا نعرف إن كانت هذه أقوالهم .. أو
إذا كانت هذه أفعالهم فمن فعلها؟ وكيف؟ تعجب؟ فعلاً تعجب من نفسي
ومن الذى في داخلى .. وتعجب من الذى خارجى .. وأصبحت أرى كل

إنسان اثنين أو ثلاثة أو ثلاثة .. شئ ما أصحاب نظري ونظريتي ، أو شئ ما أصحاب الدنيا حول .. ولا أعرف من المصاب ومن المصيب .. إنها مصيبة نفسية اجتماعية وجودية !! .

* * *

وفي اليوم التالي صحوت أحسن حالا وأهدا بالا .. لقد استطاع النوم الساحر أن يتحقق المعجزات في رأسي وقلبي وجسمى .. لقد عقدت صلحًا عاما بيننا ، وقفت بتطبيع العلاقات بين فكري ووجوداني ورغباتي كلها .. ووجدت وجهى مشرقا .. ونظرت من النافذة .. ورأيت قطعة السماء التى فوقى زرقاء صافية .. ومن بعيد وجدت شجرة صغيرة .. أوراقها خضراء .. وبلغت فيها زهرة أو زهرين .. وعصفورة أو عصفوريين .. ورأيت وراء كل شئ صورتها الجميلة الفاتنة .. نعم صورة «فاطمة» نفس الصورة التى أعجبتني يوم قلت لها : آه لو ترين الذى أرى .. أنت لا تعرفين كم هى جميلة عيناك .. كم هى ناعمة شفتاك .. كم هى مضيئة جيئنك .. كم هى غامرة ابتسامتك .. كم هى فادحة جريمتى لو فكرت في الزواج منك .. أتزوجك لأعطيك ماذا؟ وكيف أعطى ومتى؟ .

وبسرعة خاطفة تحول الوجه إلى درجات لونية بين الأسود والأصفر والأخضر. وكيف أنها ابتلعت شفتيها وقلبت عينيها ، وخرجت من تحت شعرها عاصفة اكتسحت كل شئ وأقامت حاجزا تراقبا رعديا مطردا بيننا .. وقررت أن أقفز من السرير لأقول لها هذا الذى رأيت . لأسعدها هي الأخرى . وأنه ليس صحيحا أننى أفك فى المجرة .. فهذا ترف لا أقدر عليه .. ولست إلا حاملا لميكروب المجرة ولكنى لست مريضا بها .. إننى مسحاح يحمل دoseية قضية عدد من الموكلين ..

ولكن معها الحق كله في عدم الثقة بي وعدم الاطمئنان إلى ما أقول فأنا
كثير التقلب .. وهي تغيبني عندما تقول لي : إنني لا أهتم بها تقول في
الدقائق العشر من وجودنا معا .. فقط أهتم بالدقائق العشر قبل عودتنا إلى
البيت .. فأنت تتغير كل عشر دقائق .. وتكون قريبا من نفسك جدا عندما
يبدو عليك الإرهاق والرغبة في النوم .. فالذى يعود بك إلى البيت هو «أنت»
ال حقيقي !! .

صح . كانت زوجة نابليون إذا وجدته جالسا مسترخيا راحت تطالبه
بالكثير .. وكان يستجيب . ولكن إذا نهض واقفا ، توقفت عن الكلام وعن
طلب أي شيء .. لأنه إذا وقف رفض . فكذلك هي ترى أنني عندما أكون
مرهقا راغبا في التمدد والاسترخاء والنوم أكون أكثر استسلاما لرغباتي
الحقيقة .. وأكثر صدقا . ولذلك فهي تؤجل تصديقى حتى يغلبني التعب
ويستدرجنى النوم - ما أخبرها .. وما أضعفنى ! .

قلت لها : قولي لي يا حبيبتي ! .

- أنا؟ حبيبتك؟ .

- قولي لي .. عندما فكرت في الهجرة إلى استراليا .. كان معنى ذلك أنني
أريد ألا أسمعك وألا أراك .. وهذا يحدث كل يوم . فعندما نفترق لا أراك ولا
أسمعك ولا أمسك .. ولا أجده أنت في حاجة إلى أن أتحسن وراء أفكارى
لأواجه ندك العنيف .. وأظافرك النافذة إلى أعماقى .. هذا يحدث كل
يوم .. ولكن الذى لا أقوى عليه هو خيالك .. الذى يعود إلى رأسى وأنا
نائم .. ويجدد مشكلتى معك .. ومشكلتى أننى أحاول أن أجعلك خيالية
مثلى .. وأنت واقعية جدا .. أنت جراح ماهر .. أعصابك من حديد ..

ودموعك من جليد .. لا تدرين دمعة واحدة على مريضك الذي هو أنا ..
 إنني أرى أصابعك تمسك قلبي وتزعمه وتطهره وتخرجه من أحشائى لتملئيه كل
 يوم بهاء بارد .. حتى أكون في هدوئك .. وأنا أراك ، وأرى الموت بين
 أصابعك .. ولكنك واثقة من عينيك ومن يديك ومن مريضك هذا ..
 أريدك أن تكوني مثل .. أحاول .. وقد تجحصت بعض الوقت .. ولكن لا
 أكاد أتركك حتى يعاودك كل شيء .. وأنا معجب بك .. وأحسدك على ما
 أنت فيه ، وأحسد نفسي على هذا الطيب الحبيب .. فكيف إذا سافرت أنسى
 صوتك وصورتك .. إن سقف غرفتي هو شاشة تليفزيونية كبيرة تجري عليها
 أحداث اليوم ، كل يوم .. الصوت يمكن نسيانه ، والصورة أيضا ، ولكن
 الذي في خيالي كيف ؟ .

قلت لها : هل تقولين شعرا ؟ .. عندي شهية مفتوحة .. هل تذكرين
 أبياتا قديمة لشاعر قديم .. يقول إن حبوبته تمنعها ثلاثة أسباب فلا تجيء
 إليه في الليل حتى لا يراها العوازل : جينها المضيء وصوت الأساور في يديها
 ثم العطر الذي يفوح منها ويفضحها .. أما جينها فيمكن أن تغطيه بكم
 فستانها .. وأما الأساور فيمكن خلعها .. ولكن ما الذي يمكن عمله في
 عطرها الذي يفوح منها في كل اتجاه ؟ .. يقول الشاعر :

ثلاثة منعتها من زيارتنا

وقد دجا الليل ، خوف الكاشع الحق .

ضوء الجبين ووسواس الخل وما

يفوح من عرق كالعنبر العيق

هب الجبين بفضل الکم تستره

والخليل تزرعه ، ما الشأن في العرق؟

قلت لها : ما رأيك؟

قالت : رأى تعرفه .. إنني لا أغير رأي .. لا أتلون ..
قلت : نسيت !

قالت : معك حق .. لأنك أكثر من شخص .. فالشخص الآخر الذي
كان يحدهنني اعترفت له بفلسفتي المحدودة في دنياي المحدودة أيضاً.

قلت : ما هو رأيك؟

قالت : رأى : إنني أصادق فيلسوفاً ، أحب شاعراً ، أتزوج تاجراً ..
قلت : أنت؟ ما الذي أفسدك على نفسك .. أنت؟

قالت : تلميذتك .. أنا لست إلا صورتك في مرآة صغيرة .. إنك
تسمعني وتتفقّع ، تراني وتصرخ .. إلى هذه الدرجة ترى صورتك بشعة؟

قلت : كاذبة ..

قالت : إنني لا أكذب إنها «الحقيقة» يا سيدى ! إنني أستخدم هذا السلاح
لمواجهة التقلبات في حياتك وحياتي .. إنها سلاحى الوحيد الذى استعملته
منك وتعلمتها على يديك ، وإذا كانت تكره وتستنكره ، فلأن الذى يؤمن
بالحقيقة ، ليس هو الذى يؤمن بالحب ، وليس هو الذى يعود إلى الهجرة ، ولا
هو الذى يحب ولا هو الذى يتزوج .. هل نسيت بيت الشعر الذى تكرهه
دائماً .. هل نسيت؟

قلت : نعم ..

قالت : أذكرك به وأعيده إلى مكانه من ذاكرتك .. فإنه أحسن أسلحتي
وأمضها في مواجهتك :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتنقى صولة المستأسد الضارى !

* * *

لقد رأيت صورتي في صورتها ، وسمعت صوتي من حنجرتها .. آه لورأى
كل إنسان صدى الذي يقول وصدى الصدى ، لفكرة ألف مرة قبل أن
يقول .. والمصيبة أن الذي يفكر لا يقول ، والذى يقول لا يفكر ! .

واجبن خوز ملائكة !

جريت كل أنواع العمل . . فـ الإجازة عملت عند أحد أقاربي . . إنه رجل يبيع الخيش والأشولة والقفف . وهو رجل غنى . وقيل إنه معجب بي جدا . . ولذلك يسعده أن أعمل معه . كأنى أحد أولاده . . بل هو يشعر أننى مثل أولاده .

وقيل لي يجب أن تنسى أنك تخرجت في الجامعة . . فالشهادة الجامعية مثل شهادة الميلاد أحتاج إليها أحيانا . . أو مثل شهادة التطعيم لا أحتاج إليها إلا نادرا . . فالشهادة بلا ضرورة ، لأن العمل الذي سوف أقوم به هو أن أكون سكرتيرًا له . فهو لا يعرف اللغة الإنجليزية . وللهجة الإنجليزية ضرورة لأنه يتعامل مع الأجانب . . قلت : موافق .

أما المرتب فليس مشكلة . . فهو رجل غنى ويعيني . ويعرف أننى في مستهل حياتى . واحتياجاتى كثيرة . وبالاختصار فهو ليس في حاجة إلى من يشرح ويقول له : كم تتكلف الكتب والبدل والسكن والمواصلات . .

وكان لابد أن أمر عليه في البيت . وأنظره حتى يفطر ويشرب القهوة ويتكلم في التليفون . هو في داخل البيت وأنا في الصالون . . أقوم من مقعد لأجلس على غيره . . وأحيانا أتشجع وأطلب لنفسى قهوة .

ومضت أيام ثقيلة وأنا في حالة من الضيق . ولم أعرف السبب . وحاولت أن أعرف . . ووجدت أن انتظاره كل يوم بهذه الصورة ، لا يريحني . وكذلك عندما أطلب القهوة فأخيانتها تجنيء وأكثر الأحيان لا تجنيء . وعرفت أن الخادم لابد أن يستأذن الحاج - هو الحاج .

وفي يوم سألت الخادم : لا قهوة ولا شاي إلا بإذنه ؟ .

قال : نعم .. لا تتضايق .. أنت رجل متعلم .. كلمة حلوة منك تفتح نفسه لك .. وتصبح حبيبه .

- يعني إيه ؟ .

- يعني إنه رجل بلدى يحب أن يتغاءل كل يوم بكلمات حلوة :
يا صباح الفل .. يا نهار القشطة .. نهارك ورد يا حاج .. منور يا حاج .. عارف الست بتاعته تفضل تقول له : يا فل .. يالوز .. يانور النبي .. ياصلاة النبي من اللحظة التي يصحو فيها حتى يخرج .. وعندما يعود وعندما يأتي وعندما ينام وحتى ينام .

- وهو يرد على ذلك فيقول ماذا ؟ .

- هو يرد ؟ ! .. لو الكرسى هذا انطق .. ينطق هو ..

- يعني أنا أقول له يا فل .. يا قشطة .. يا مهلبية وهو لا يردا .. أحسن .. يكفى إنه لا يلوى بوزه .. يكفى إنه لا يقول لك كلمة تعكر دمك طول النهار .. إنه رجل لسانه زفر .. مقرف .. ولكنها لقمة العيش .. أنت متعلم في استطاعتكم أن تقول ما هو أحسن وأجمل .. أكل العيش يا سعادة البيه .

- أنا سعادة البيه؟ .

- ولأنك البيه يا أستاذ ففى استطاعتكم أن تأكل عقله ..

وقدرت ألا أبقى في هذا المكان .. وسوف أنتهز أقرب فرصة لأعود من حيث أتيت . ولكن قلت لنفسي أجرب .. ولماذا لا أجرب؟ وفي يوم رأيت الحاج قلت : نهارك أبيض يا حاج.

قال لي : نهارك زفت يا أفندي ! .

- الشر بعيد يا حاج ! .

- عندي مغص !

- سلامتك ! .

- وأين هي السلامة إذا كان المغص لم يتركني ثلاثة أيام وجاك الدكتاتورة وأخذوا القرشين ولا فائدة .

- الحمد لله على كده يا حاج .. شدة وتهون .

- شدة وتهون .. والخسائر التي تصيبنى كل يوم بسبب ظهور النايلون .. النايلون أصابنا بالركود .. لا أحد يسترى القحف والمقاطف والأكياس الورق ولا الجوالات .. خراب مستعجل .. ليس هذا نايلون .. هذا «نيلة» زرقاء .

- ليس كل الناس قادرين على شراء النايلون .. إنهم قليلون جدًا يا حاج.

- طيب يا اخويها .. أنا لن أذهب إلى الدكان .. اذهب إنت وأريد أن

أرى الدنيا على وجهك .. أريد أن أعرف قدمك علينا .. اتوكل انت ! .
وتوكلت . ولم أر زبونة واحدا . وبعد الظهر . عدت إلى البيت . وندمت
على هذه التجربة . ولا أعرف حدود الندم : هل لأنني نسيت الشهادة ..
هل لأنني عملت مع أحد أقاربى . هل لأنه رجل جاهل لا يقرأ ولا يكتب .
هل لأنه نظر إلى حاجتي للعمل ولم ينظر إلى الذى تعلمته .. ولذلك لم يكن
يفرق كثيرا بيني وبين السعاة .. وكان إذا طلب مني شيئا أشار بيده . فأنظر
إلى حيث تتجه يده وأسأل : الجزمة ؟ .. السجادة ؟ .. هل أخرج ولا
أعود .. هل أنا دى أحدا ؟ .

ولكنه لا يشرح معنى هذه الإشارة ويتركنى أجتهد ..
ثم كان يقول : مadam لا تفهم ما أقول : طيب هات المقشة ! .
الله يرحمها خالتى أطيب الناس وأرحمهم .
سألتني في يوم من الأيام : ماذا ت يريد أن تعمل ؟ .
قلت : لم أحدد بعد .
قالت : مثلا .. مثلا ماذا ت يريد ؟

قلت : أسوأ شيء أن أعمل مدرسا . فهي مهنة شاقة وتطعم الناس خبزا
فقط وعليهم أن يأتوا بالملح والأرز والسكر والزيت من وظيفة أخرى ! .

قالت : وإذا لم تعمل مدرسا ؟ .

قلت : أبيع وريشنا للجزم .

قالت : صحيح ؟ .

قلت : أى والله إن عددا من زملائي يفعلون ذلك ويكسبون . ومن الممكن أن نعمل معا .

قالت : ولماذا اختاروا هذه المهنة ؟ ..

قلت : لأنهم هم الذين يصنعون الورنيش في البيت . ويكسبون كثيرا فالورنيش الموجود في السوق سيئ جدا .. مغشوش .

قالت : وكم يكفيك من المال ؟ .

قلت : ألف جنيه ..

قالت : أدفعها لك ..

وأتفقنا مع الأصدقاء الذين يصنعون الورنيش في بيوتهم عن السعر وحدود المكسب . المكسب كبير . ولكن ظهرت مشاكل : كم عدد العلب والزجاجات المطلوبة ؟ كم عدد الورنيش الأسود والأحمر والأصفر . ما هو العدد بالضبط ؟ .

وبدأت أنظر إلى أحذية الناس .. وذهبت إلى أحد المقاهي ولاحظت أن الأحذية السوداء أغلى .. وأن بعض الأحذية تحتاج إلى ورنيش ، وببعضها إلى بويه وببعضها إلى الإثنين معا .. وذهبت أطلب ٧٠٪ أسود و ٢٠٪ أحمر .. و ١٠٪ أبيض وأصفر .. وظهرت مشكلة أخرى : من الذي يوزع الورنيش . ولابد من عمولة أو نسبة للذى يوزع البضاعة .. ووجدت أن هذه النسبة تعادل ما سوف أكسبه بالضبط .. ونصحوني بأن أنقل الورنيش إلى البيت وأدعو الزبائن أو تجار التجزئة إلى أن يتسلموه من البيت .. ولابد من شراء علب كرتون لكي يضعوا فيها الورنيش .. بعض الناس يجبيشون إلى البيت في

غيابي وكانت والدتي وأخواتي هم الذين يبيعون ويفاصلون ويناقشون ويترافقون عندما يستشعرون بمحقاره الموقف .. حقارة السلعة ورداءة الزبائن . وفي يوم غالطوا والدتي في الحساب وفي عدد الزجاجات . وعدت إلى البيت فوجدها تبكي على حظى الأسود والأحمر .. وكيف أتنى أقيمت سنوات الدراسة والاجتهاد والتلتفو في الزبالة .. وكيف أتنى مسحت الأرض بتعجب أمي وسهرها معى وحولى ودعواتها وصلواتها .. وقررت أن أنقل البضائع إلى بيت خالتى . وفي يوم وجدت أمي شديدة البكاء والحزن : مالك يا ماما؟ .

- ولا حاجة يا ابني ..

- مالك ؟ ! .

كانت تزور إحدى قرياتها ووسط عدد كبير من الضيوف قالت لها إحدى السيدات : من نهار ما يسلامته ابنك توقف عن تجارة الورنيش وجربنا جربانة !! .

وكان لابد أن أعترف لنفسي أتنى فشلت . وأنى لست مؤهلا للتجارة والكسب من هذا الطريق .. بينما أصدقائي أصبح لهم محل معروف .. وأصبح المحل أنيقا .. وأضافوا إلى الورنيش أربطة الجزم وفرش الأسنان والمعجون والكريات .. وانفتح المحل الصغير على محلات أخرى يمينا وشمالا وظهرت أجهزة الراديو وماكينات الحلاقة والكافستات .

واعتذررت لخالتى عن ضياع الألف جنيه . وقبلت عذرى . وقالت لي : إنما أردت أنأشغلوك عن انتظار دورك في العمل في الحكومة .. فداك .. ألف وعشرون ألفا ..

طيبة أنت والله يا خالتى .. وخيان ابن اختك . فلم يبق إلا أن أعمل

في الحكومة . وجاء خطاب بتعييني في وزارة المواصلات . وفرحت بالتعيين . وخاصة أن المكتب على مسافة ربع ساعة مشيا على القدمين في طريق واسع .. به مكتبة ومقهى كبير وب محل عصير وب محل لبيع الجبنة وحصل النحل الواحد من أقاربى وفي الذهاب والإياب يمكننى أن أشرب القهوة عند خالتى .. لولا أن ابنتها الجميلة في مثل سنى ولم تتزوج ، وأخشى أن تظن أننى أتردد من أجلها . ثم إننى قلت لها وخالتى : إننى أشعر بأنها مثل اختى تماما .

وخلالى فهمت موقفى . ورأيت أن كلامى صحيح مائة فى المائة . فقد كان هذا هو شعورها عندما تزوجت ابن عمها . ولذلك كان زواجهما فاشلا تماما .. وهى التى طلبت الطلاق .. وأقنعته بأن يتزوج واحدة أخرى .. فهذا أفضل للإثنين . ولم يغضب ابن عمها ولا هي . وانفصلوا بهدوء . وتزوج . وهى رفضت أى رجل آخر .. وعاشت لابتها .

ولكن ابنة خالتى الجميلة الظرفية لم تقتنع وكانت تصاحك : أنسنا فراعنة؟ .. لقد كان أجدادنا يتزوجون بناتهم وأخواتهم وخالاتهم وعماتهم .. أى في استطاعتك أن تتزوجنى وأنا أصغر منك بعشرين سنة وستتزوج أمى وهى أكبر منك بعشرين سنة!

ومضت أيامى في وزارة المواصلات متشابهة .. أو أيامى كلهاتوائم .. ملاعها واحدة في الصباح والظهر والمساء : لا عمل .. لا ورقة ولا قلم .. ولا أحد يسألنى ماذا تعمل ، إن عملت .. والغريب أن كل الناس حولي يقلبون في أوراق كثيرة مختلفة الأحجام والألوان ويأكلون السنديون .. ويشربون الشاي طول الوقت .. ويدخل أناس يتكلمون ويتهامسون ويتفاعلون .. وينجذبون وتحمرون القهوة والشاي والعصير .. ولكن لم أر ورقة واحدة تخرج .. ووجدت جارى يذاكر لأنه في كلية الحقوق .. وجارى الآخر

ينقل المحاضرات لابنته التي في الجامعة . و الذي يجلس أمامي عنده دفاتر لأنه موظف في أحد محلات القهاش في الأزهر .. وهو يراجع الحسابات قبل تقديمها للضرايب .

وفي اليوم التالي نقلت بعض الكتب إلى درج مكتبي وأتيت بكرسي من البيت وربطته من رجله في المكتب حتى لا ينقله أحد ... أو حتى لا يسرقه .. أو حتى لا يجلس ضيف فوق المكتب .. وعندما زارتني ابنة خالتى جعلتها تجلس على مقعدي فكانت فرحة .. وفي ذلك اليوم أصبحت مشهورا جدا .. فقد جاء كل من هب ودب يحاول أن يرى أو يستظرف مع هذه الجميلة جدا . حتى رئيس استدعاى ثم سألنى إن كنت قد قرأت الصحف اليوم وعلمت أن السيد وكيل الوزارة سوف يزورنا .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه .. وسألت زملائي إن كان أحد قدقرأ شيئاً عن ذلك . لا أحد . وفوجئ الجميع بأن السيد وكيل الوزارة قد جاء يعتذر بنفسه لأن الذي قرأه كان عن السيد وكيل وزارة الداخلية - ولم يكن هناك سبب واضح إلا أنه أراد أن يرى بنت خالتى ! .

وقلت لها مخدراً هذه آخر مرة ! .

طبعاً أنا دخلت هذا المكان بشهادتى . ولو لا هذه الشهادة لما دخلت ولا قعدت ولا كان لي مكتب . ولكن ما فائدة هذه الشهادة للسكت الحديدية والتليفونات والأطوال والعقود والتسجيل .. والإحلال والإبدال .. إنها شهادة تدل على أننى دخلت الجامعة وتخرجت ناجحا .. ولا يهم ما الذى يمكن أن أفعله بها .. إنها فقط تأشيره مرور - ذهابا وإيابا كل يوم وتصريح بالوقوف في الطابور كل شهر عند الخزانة ! .

هذه هي بلادنا وهذه قدراتها وهذا قدرنا ومستقبلنا . ولا توجد وسائل أخرى لكي ننمو وإذا نمونا تقدمنا . وإذا تقدمنا تطورنا . وإذا تطورنا تحضرنا ، وإذا تحضرنا ظهرنا على وجه الدنيا . فيكون عندي بيت وزوجة وأولاد وفلوس في البنك أمان من الفقر والجوع والمرض . هل ألم بلدى ؟ .. لا ألم أحدا .. فلست الوحيد الذي على حجرها وعلى صدرها ويرضع من ثديها .. فهناك عشرون مليونا . لهم نفس الحقوق .. نحب مصر ومصر تحبنا .. لكن العين بصيرة واليد قصيرة . وليس أمامنا إلا أن نقبل .. أو نرفض .. وإذا قبلنا فتحن مثل ملايين المواطنين الذين يولدون في البيت ليدرسوا ويموتوا على مكاتبهم .

وهؤلاء الموتى لا يتولد منهم إلا القرف واليأس والبلاد .. وإنما المزيد من العجز عن الوفاء بشيء من احتياجات أبنائهما .. ومصر تعطينا بقدر الذي نعطيه .. فهي تجمع حصيلة عملنا وتوزعه بالعدل على الناس .. ولكن بعض الناس أذكي وأশطر وأقدر على الفهلوة والخداعة وخفة الدم واليد . وكل شيء له ثمن . وكل ثمن له ناس . وكل ناس لها ثمن .. فالموتى على مكاتبهم هم مرتبات .. «جرائم» .. وبعد ذلك معاشات .. والذين يقفزون من المكتب إلى الشارع إلى البنك إلى المانع إلى الشواطئ هممكافآت وهم وداع .. والقانون أين ؟ لا تفكري بهذه الكلمة .

فالقانون خادم مطيع للأقواء : أي الذين عندهم سلطة والذين عندهم مال . والمال أقوى من السلطة .. لأنك كموظف عندك سلطة ولو على الساعي ، ولكن ليس عندك مال .. والساعي ليست عنده سلطة ، ولكنه عنده مال يجعله قادرا على إيدائك من رؤسائك . كيف ؟ هذا الساعي يخدم

الرؤساء في بيوتهم ويكتسب منهم ومن غيرهم .. فهو أقرب إليهم منك .
 وأنفع لهم منك .. هذه هي القاعدة .

* * *

قالت لي كاميليا بنت خالتى : والحل ؟ .

قلت : المиграة ! .

قالت : معاً ? .

قلت : في هذه الحالة أوفق على الزواج . ولكن هل أملك توافق ؟ .

قالت : أوه .. هذه هي المشكلة .. فمنذ وفاة أخي وأمى ترى أنها تعيش
من أجل أن تبكي عليه وتقرأ الفاتحة عند قبره وتحس ذكراء السنوية . وأنا لا
أستطيع أن أتركها ، وهي لا تستطيع أن تتركه .

قلت : إذن ؟ .

قالت : نعود لتجارة الورنيش وأمواس الخلاقة والصابون والبارفان ..
ونعمل معا .. وعندنا دكاكين في عياراتنا الجديدة .. وأنا كنت أساعد أخي
الله يرحمه .. فعندى فكرة لا يأس بها عن التجارة والتعامل مع الناس ..
عندى فكرة أخرى .. أنت تبقى في الحكومة وأنا أتردد على الدكان وأكمل
تعليمي .. وأنت تعمل فقط معى بعض الوقت . وبنت خالتى التى لها محل
لبيع الجبن وال酥ل فى الريف عندها رغبة قوية فى أن تعمل معى فى القاهرة ..
أظن لم تعد عندنا مشكلة ! ما رأيك ! .

قلت : وزملائى ؟ .

قالت : أوه . زملاؤك ؟ وما الذي فعلوه من أجلك ..
من هم زملاؤك .. إنني لم أر واحداً منهم .. ولم أسمعك تتحدث عن
واحد منهم ..

قلت : إنه واجبي ! .

قالت : واجبك ؟ الفقر والتشرد واليأس وأن تدفن نفسك حيا وأنت في
عز شبابك .. إنني لا أفهمك .. والذى أفهمه لا أحترمه ! .

كلنا سياسيون : خلاطة فظيعة !

قلت له : ما رأيك نتحرّم معاً؟

قال : أنا وأنت؟ .. ولكن لماذا؟ أنا أفهم انتحارك أنت .. ولكن أنا انتحر لأى سبب؟.

- بمحاملة لي ..

- أجملك في الحياة ، فكيف أجملك في الموت ..

- لنقفز من ظهر سفينة .. في مياه الإسكندرية أو بور سعيد .. ويتتهى كل شيء .

- بالذخيرة !.

- إذن فلنقفز من طائرة؟.

- ولكن لماذا؟.

- يا أخي لأن الحياة لا معنى لها .. لا ضرورة .. لم نفهم شيئاً .. لم نقل شيئاً .. ولا أمل في شيء .. ولا أمل في أحداً.

- ولكنني أنتحر فعلاً .. فأنا أحارب من أجل قضية لن أكسبها .. وأنا على

يقين من هذا الفشل .. وكل يوم أتخيل أنني أقتلع أحجار الهرم واحداً واحداً
وأدق بها رأسى .. تصور كل يوم .. فأنما كما ترى أعيش بارتجاج في المخ ..
ولم أكن خلصاً في الحب ..

- لا أحد يخلص في الحب .. فالرجال كذابون والنساء أيضاً .. وإنما فقل
لي بالله عليك ، كيف أنت هكذا تبدو جيلاً ريقاً شهباً بطلاً لا مثيل لك في
الدنيا من أوطاً لآخرها .. وفجأة حين تختلف معها .. أقصد تختلف مع أية
واحدة تخبك أو تخبئها ، فإذا بك قرد قطع الحبل من يد القرداتى .. وإذا بك
تبיע الشكل وإذا بها لا تطبق أن تسمع اسمك أو ترى رسرك أو تشم
جسمك .. كيف يحدث كل ذلك في لحظة واحدة؟ هي ترك قرداً وأنت تراها
غولاً .. أين كانت هذه المعانى؟ هذه المعانى موجودة عندك وعندها ..
ولكن الوهم الذى اسمه الحب هو الذى جعل من القرد غزالاً ثم من الغزال
قرداً .. فأنت كذاب وهى أكذب منه .. بل إن المرأة كذابة بالغريزة .. ولا
تفرق بين الكذب والحقيقة .. إنها تجلس أمام المرأة بالساعات تضع الأحمر
والأبيض والأسود والأزرق .. أليس هذا كذباً تعمله بياقة .. وأنت ترى
ذلك سعيداً، ولو جاءت لك بعد أن غسلت وجهها أو بعد أن قامت من النوم
 مباشرةً لتخيلت أنها زعلاً .. لأنها لم تكذب كما اعتادت أن تفعل .. ومعنى
ذلك أنك ترى أن في كذبها دليلاً على العناية بك وعلى الحب .. فالصدق تراه
زعلاً ، والكذب تراه حباً .. فأنت لم تكذب على أحد .. وإنها أنت فعلت ما
هو طبيعى .. ولكن لأنك اعتدت على الكذب ، فإذا صدقت مرة قلت
لنفسك: اللهم اجعله خيراً ثم إن الكذب في الحب معناه الكذب في
الكذب .. كالممثل على المسرح .. إنه يتظاهر بالحب ، وهو لا يحب ،
ويموت وهو لا يموت .. فهو يكذب في موقف كاذب في مسرحية كاذبة ..

وليس هذا انتهاكاً يعيط، وإنما هو الصدق الذي تفرضه علينا الحياة التي لا تساوى شيئاً.. اسمع كلامي.. تعال لاختار مكاناً نموت فيه!.

- أنت كذاب.. بل أنت أكذب واحد في هذه الشلة.. هل تريد أن تقول: إنه يوجد سياسي واحد صادق!.

- طبعاً لا يوجد.. ففي السياسة كل شيء معقول.. لا شيء مختصر.. لا شيء سافل.. كل الأشياء حقيقة وكل الناس سفلة.. صبح ومائة ألف صبح! هل تعرف لماذا أنا قررت الانضمام إلى هذا الحزب.. لكي أكون واحداً «من» الناس.. واحداً.. «مثل» كل الناس.. واحداً يضيع بين الناس.. فقد تعجبت من أن أكون نفسي.. من أن أقنع نفسي بأنني مختلف.. متفوق.. أو يجب أن يكون مكانى أعلى.. في أول الصدف ولا أقف في الطابور.. أريد أن أقنع نفسي أننى من طينة غير الطينة.. ومن عجينة غير العجينة.. ولم أسأل نفسي على أي أساس بنيت هذه الأوصاف؟ لا أساس! ولكن هذا هو إحساس عندي.. وتعجبت جداً.. أما في داخل الحزب فأنا دخلت في «يونيفورم» - أي في الزي الموحد.. والفكر الموحد.. فأنا كالبيغاء أقول ما يقولون.. ولا أخرج عنه.. وعندما أنطق بعض الكلمات أضغط على حروفها ، لكي أؤكد لمن يسمعني أن لها معنى عندنا غير الذي عند الناس.. وأنا نعرف أسرار الكلمات.. وأننا وحدنا القادرون على تنفيذها.. شيء غريب.. في داخل الحزب: نحن ضائعون حاثرون بأثiron وأمام باب الحزب يقف الواحد منا وقد باعد بين ذراعيه وجسمه ليبدو عريضاً.. ويسب على أطراف أصابعه ليبدو أطول.. أي أننى أطول وأعرض.. أي أننى أشغل مساحة من هذا الفراغ أكبر مما ينبغي.. فلماين الحقيقة: هل تفاهتى الحقيقة في داخل الحزب ، هل نفحتى الكذابة خارج الحزب..

انهض .. تعال لكى تنهى هذه الحياة معا .. الآن .. فورا ! .

- يا أخي أنا أريد أن أعيش .. وكل شيء يدل على ذلك .. فأنا آكل بحساب وأتعامل مع الناس بحساب ..

قلت : تأكل بحساب .. تقصد الفول والطعمية والعدس والأرز وكلها نشويات .. هذا هو الحساب .. خوفا من زيادة وزنك ؟ ! وإذا فتح الله عليك وعلى أهلك : أكلتم الأرض بالبطاطس والخبز .. وكلها نشويات . فأى حساب ؟ .

قال : المهم أن يكون هناك حساب .. سواء كان الذى أبتلعه هو الأرض أو هو اللحم .. ثم أنظف ملابسى وأمسح المقاعد إذا جلست حتى لا تسخن ملابسى فلا تدوب بسرعة .. وأقتصر في القليل الذى أنفقه .. وأقتصر أيضا في النظرات والكلمات التى أقوها للفتيات .. فلست صيادا يلقى شباكه على أية فتاة .. فلا أنا أهرب من الفتيات ولا أشجع على ذلك . وأنما أعرف أن شرائين البنات نصفها دم والنصف الثاني صمع .. لا تكاد تنظر إليها حتى ترمى نفسها عليك وتسألك إن كانت حماتها على قيد الحياة . وتسألاها : من هي حماتك ؟ فتقول لك : الست ما متكم ؟ .. أو تقول : أحب أن أتعرف بأمال ؟ فتقول لها : ومن هي أمال ؟ فتقول : أختك ؟ وتصبح لها هذا الخطأ قاتلا : اسمها كاميليا .. وهناك يتحول دمها كله إلى صمع إلى « أوهرو » .. ولا تخضى أيام حتى تفاجأ بأنها دعت أختك إلى الغداء والعشاء وأعياد الميلاد .. وبسرعة مذهلة تتكون عصابة من بنات حواء تتآمر على زواجهك .. وما اجتمع رجالان إلا يتكون منها حزب وما اجتمعت امرأتان إلا تكونت منها عصابة .. والرجالان يتآمران على رجل ، والمرأتان على رجل أيضا .. وأكثر من ذلك أنتى متدين جدا .. أو محافظ .. وقد أدهشتني ذلك .. فمنذ

أيام راتني أختي الكبرى أصل العشاء فوقفت ورائي . . ولما فرغت من الصلاة
قلت لها : إن الرسول عليه السلام نهى الزينة والإسراف في وضع العطر . .
ولكى أكون دقيقا فإنه نهى عن ذلك في المساجد وقال : إنها نساءكم عن لبس
الزينة والتبختر في المساجد ، فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا إلا عندما لبست
نساؤهم الزينة وتبخترن في المساجد . . ويقال أيضا إن امرأة مرت بأبي هريرة
فكان له عطر قوى فسألها : إلى أين ؟ قالت : إلى المسجد ! فقال لها :
وتطيبت ؟ قالت : نعم قال : عودي إلى البيت واغتنلي فقد سمعت رسول الله
ﷺ يقول : لا يقبل الله صلاة من امرأة خرجت إلى المسجد وريجها تعصف ،
حتى ترجع فتعتسل ! . . ولقد غضبت أختي وهي تقول : أنا أحرثت
معك . . إن لم أضع عطرا تقل لي : ألا تشمين رائحة عرقك ، وإذا وضعت
عطرا قلت ألا تخافين من رائحة عطرك . ١٩ .

قلت له : وأنت لم يقل الرسول عليه السلام شيئاً فيك .. في القميص الأحمر والكرافطة الزرقاء والجزمة من لونين : أبيض وأحمر .. والمنديل المشغول عليه اسمك .. وشعرك المسبب .. لم يقل الرسول شيئاً في هذه الأنواع» ..

قال : أنوثة ؟ إنها أناقة . . الرسول قال إن الله جيل يحب الجمال . .
والشاعر قال كلاما بهذا المعنى عندما عاتبه أحد السخفاء مثلك فقال :

خلقست الحمال لنا فتنة **وقلت : يا عبادى اتقون ا**

وأنت جيل تحيي الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

قلت : أنت تحفظ من الأحاديث ما يعجبك . . ولا تحفظ ما يضايقك . .

وليس صحيحاً أنك متدين، كما تتصور ولا أنت محافظ متشدد كما تدعى ..

يقال أئمهم أتوا للرسول عليه الصلاة والسلام بشاب قد خضب يديه ورجله بالحناء فقال الرسول : ما بال هذا ؟ قالوا : إنه يتشبه بالنساء يا رسول الله ألم أمر الرسول بتنفيه أى إبعاده إلى مكان آخر .. فقالوا : يا رسول الله نقتله ؟ فقال الرسول : إنني نهيت عن قتل المصلين ١١.

ولولا هذا الحديث لقتلتكم ودخلت فيك الجنة ! .

قال : هذا تهريج .. اسمعني .. إنني لاحظت أنني متشرد .. وأنني حريص على الصدق والزهد والشفقة والشرف وكنت أتصور أنني غير ذلك .. ثم .. ولكنني أخاف .. ومن خاف سلم : وأنا أريد أن أعيش سالماً مسالماً .. فليس صحيحاً أنني راغب في الموت .. ولذلك لا أستطيع أن أجاملك وأموت معك .. ثم إنك كذاب أيضاً .. إن جيبيك ملء بالعاقير .. ولو كانت الحياة قد هانت عليك لتركت نفسك للمرض .. ولكنك تخاف المرض وتتجادى الألم .. وليست هذه من صفات الذين يريدون أن يصفوا حسابهم مع الدنيا .. أو الذين قرروا الفرار منها دون دفع الحساب .

قلت : لماذا لا تقتلني أنت ؟ .

قال : تريد أن تجعلني مجرما قاتلا لأعز أصدقاءي ؟ .

قلت : أعطيك هذا الشرف !

قال : أرد لك هذا الشرف !

فلت : انت چیان ! .

قال : وانت استاذى ! .

هذه المشاكل لها أصل . والأصل عند أستاذنا الفيلسوف أرسطو . فقد قال من ٢٥ قرنا : إن الإنسان حيوان سياسي .. يقصد أنه حيوان أولا وسياسي ثانيا .. أي أنه حيوان يعمل في السياسة أو سياسي في حديقة الحيوان .. أي أن السياسة هي الملعب الذي تظهر عليه الوحش في نعومة ورقه وأدب يدعون إلى الخير من أجل الإنسانية .. ومن أجل الأغلبية .. أو أحدهم الساسة المنافقون الذين يخونون أطيافهم ومخالبهم وأنانيتهم عن الناس .. فالسياسي إذن هو ذلك الكائن الذي يرتدي الجوانحات الحريرية فوق مخالبه والذي يضع طاقيا من الذهب بدلا من أسنانه .. أو الذي يتظاهر بالإنسانية وهو حيوان .. وقد فهم الناس منذ ذلك الحين أن السياسة هي الحياة ، وأن الحياة سياسة .. فانجذبوا بكل قدراتهم إلى العمل السياسي وتركوا الأعمال الأخرى .. تركوا أكل العيش والخدمة الوطنية .. ولذلك نجد الطبيب قد ترك العيادة إلى الحزب والمهندس والمدرس والشيخ أيضا .. لماذا ؟ لأن السياسة هي السلم الذي يرتفع بالناس .. فلا يبذلون جهدا .. وإنما يقفون عليه ، وهو يقوم بالباقي ارتفاعا وارتفاعاً واغتيالاً لكل القيم الإنسانية .

هذه هي الجريمة : فكل الشباب قد رفع شعار أنه حيوان سياسي .. فلا دراسة ولا قراءة ولا بحث .

غلطة راحت ضحيتها : العلوم والفنون والأداب والأخلاق فارتبتكت القيم والنظريات وخرجت مسامير وصواميل العلاقات الاجتماعية .. وأصحاب الناس ما أصحاب عباس بن فرناس أول عربي حاول الطيران فركب لنفسه أجنحة .. هذه الأجنحة لم تقو على احتمال جسمه فسقط .. ومن قبله سقط بطل إغريقي .. يقال أنه أصدق أجنحة بالشمع في جسمه .. فلما ارتفع واقترب من الشمس ذاب الشمع وسقط الكائن الأسطوري الذي تمنى أن

يرتفع . . ولكننه لم يستعد لهذا الارتفاع . . وكان في حاجة إلى قدرات ضخمة ، لم تعرفها الإنسانية إلا بعد ثلثين قرنا .

غلطة كبيرة جداً أن نوجه كل طاقتنا إلى ناحية واحدة ونهمل بقية النواحي لحياتنا اليومية والعائلية والقومية والإنسانية . . ولأن الهدف صعب . فكان عجزنا صارخا . . ثم إننا لا نشعر بهذا العجز . . وإنما نقول لأنفسنا : طبيعي أن نعجز لأن الهدف صعب . . والحقيقة أن الهدف ليس صعباً . إنه مستحيل . . مستحيل أن نطير بأجنحة قد لصقناها في أجسامنا يشمع من الكذب السياسي : الكذب على أنفسنا وعلى غيرنا .

رأيت فيلما فرنسيا للسخرية من المسلمين . . الفيلم عبارة عن طائرة في داخلها مسجد . . والمسجد من ورائه حمام للسباحة . . والطائرة متوجهة من مكة إلى واشنطن . . وفي مواقف الصلاة يجتمع الكابتن ويؤذن . . وبعد الأذان تتجه الطائرة إلى مكة . . ناحية القبلة . . وبعد أن يفرغ المسافرون من الصلاة تتجه الطائرة إلى واشنطن . فإذا جاء الظهر والعصر والمغرب والعشاء اتجهت الطائرة إلى مكة . . والمسافرون لا يصلون في موعد واحد . . وفي كل مرة يصل أحد المسافرين فإن الكابتن يتوجه بطاولته إلى الكعبة . . وبعد أيام من الطيراناكتشفوا أنهم ما يزالون فوق مكة ؟ .

هذه هي النكتة . وكان المنطق يقول : أن تتجه الطائرة إلى واشنطن . . والمصلون يتوجهون إلى مكة . أو لا يتوجهون مطلقاً . . وفي أماكنهم يصلون جلوساً ويتوجهون بقلوبهم إلى مكة . وتقضى الطائرة في طريقها الصحيح . . ولكن الغلطة التي أضحت الناس على المسلمين أن تتجه الطائرة كلها إلى مكة . . وهكذا فإنها لا تصل إلى أي هدف ! .

وكذلك الذين يتوجهون كلهم إلى السياسة . لا يتقدمون ولا يبرحون مكانهم ولا يبلغون هدفا .

فلم أكن جادا عندما فكرت في الانتحار .. وإنها ساذج عبطة .. فقد تصورت أنني إذا لم أنجح في أن أكون عضوا في اتحاد الطلبة . فلا معنى للاتحاد ولا معنى للعلم .. ولا معنى لحياتي الدراسية .. ولا حبي لبلدي ولا إخلاصي لديني .. وهذا الشباب .

ولابد أن أعتذر لكل الناس الذين أساءت لهم سلوكهم في الأيام الأخيرة .

واعتذر لعم محمود صاحب البوفة .. فالرجل كان وما يزال مهذبا . وإذا طالبني بفلوسه كان في غاية المخجل .. فليس صحيحا أنه كان وقحا جريشا .. وليس صحيحا أنه فعل ذلك لما علم أنني سقطت في انتخابات الاتحاد .

واعتذر للأستاذ « » .. فلم يكن يغمز ويهمز ويلمز .. والآية القرانية التي قالها صحيحة في كل زمان ومكان وتنطبق على كل إنسان فقد قال الأستاذ : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » !.

أو بعبارة أخرى : صاحب بالين كذاب .. أى إما العلم وإما السياسة .. فأنت لا تحب اثنين في وقت واحد .. وأنت لا تخدم سيدين معا ..

وذهبت لأمي أقول لها : اعطني رجلك أبيوسها ..

وصرخت أمي تقول : حرام عليك يا ابنى تضاعف عذابى وذنبى ! .

قلت : والله العظيم إذا لم تعطنى جزتك فسوف ألقى بنفسى من النافذة .. أنا غلطت في حركك .

فقالت : أبوس أنا جزمنتك يا ابني .. حرام عليك .. الله لا يسيئك ! .
وامسكت قلها وكتبت على خدي الأيمن : جزمة ..
وطلبت منها أن تبوس الجزمة ، بينما قبلت قدميها معتذرا : يا أمي أنا
عندى إحساس أنك تحبين أخي الأكبر أكثر .. أنا غلطان يا أمي ..
أعصايني .. اعذرني .. دعواتك يا أمي ! .

لقد كان الطبيب بقراط حكيمها عظيما . فهو أول من تنبه إلى أن الأطعمة لها
أثر السحر في حياتنا .. أى أن المعدة هي بيت الداء والدواء . وكان بقراط
يضع في جبيه الأيمن بعض السكر وفي جبيه الأيسر بعض الملح .. فإذا وجد
إنسانا قرفانا أعطاه السكر .. وإذا وجده مصهلاً لا أعطاه الملح .. إنه يريد أن
يكون الناس في حالة من اعتدال المزاج والسلوك .. هذا الاعتدال يبدأ من
المعدة وفي المعدة ! .

فهل لأنى لا أكف عن شرب القهوة السادة ؟ . هل لأننا في المدن لا
شرب إلا القهوة مُرة الطعم .. فكانت حياتنا عصبية مريرة .. وكانت
أفكارنا في لون القهوة وطعمها ! .

هل نحن لا نشعر بالسبب الحقيقى لليلأس والقرف والتشاؤم ؟ .

هل غالب على أفكارنا الخيال والوهم والاستغراق في المستقبل ونسيان
الحاضر والندم على الماضي ؟ . هل سبب ذلك أننا نشرب القهوة ونقلب في
الفنجان نتطلع إلى قارئة الفنجان وإلى كهنة في السياسة وفي الدين ! .

شطحات .. وشطحات ! .. ربها .

سأحاول النوم . فكل مرض علاجه النوم .. وكل نوم ليس عميقا هو أرق
متقطع ..

ولو عرف الحكماء كيف ينامون بعمق ، لنام الناس أيضاً بعمق .. ولكن أرق الحكماء يصبح قلقاً عندنا .. وصداع الحكماء يتتحول إلى ترقق بيننا . ومارأة الحكماء تتتحول إلى وحل في أرضنا وفراشنا .

، ولست حاكماً لأحد .. وإنها حاكم لجسمي هذا .. والصداع الذي في رأسي ليس إلا صدى احتجاجات وصرخات بقية أعضائي ضد عقل .. ضد طغيانه على بقية الأعضاء ضد حكم العضو الفرد ! .

يا بختة من عاش على حبـ جديـد !

أختى في الله ..

أحاول أن أجعل أفكارى مثل سبحة .. أربطها معا .. وأقدمها لك ..
أو أجعلها عقد ياسمين ألفه حول عنقك .. حول ذراعك .. وأحياناً أجذنـى
أجـردـ هـذاـ الخـيـطـ الرـفـيعـ منـ حـبـاتـ اللـؤـلـوـ أوـ حـبـاتـ الـيـاسـمـينـ وأـلـفـهـ حولـ
أصـبعـىـ .. وـأـخـيـلـ أـصـبـعـىـ هـذـهـ عـنـقـاـ لـأـىـ أـحـدـ أـرـيدـ أـنـ أـخـنـقـهـ .. أـنـ أـعـلـقـهـ
وـأـشـنـقـهـ .. وـلـمـ أـجـدـ أـحـدـاـ يـسـتـحـقـ هـذـاـ الشـنـقـ إـلـاـ أـفـكـارـىـ أـنـاـ .. فـهـىـ ولـدـتـ
لـتـمـوتـ .. وـأـنـاـ قـاتـلـهـاـ .. أـنـاـ الـذـىـ أـخـرـجـهـاـ مـنـ رـأـسـيـ وـأـكـلـهـاـ .. وـالـشـعـرـ الـقـدـيمـ
يـقـولـ : وـالـنـارـ تـأـكـلـ بـعـضـهـاـ إـنـ لـمـ تـجـدـ مـاـ تـأـكـلـهـ .. أـوـ كـمـ نـقـولـ نـحـنـ : الـقـطـةـ
تـأـكـلـ أـوـلـادـهـ .. وـكـذـلـكـ بـعـضـ النـمـورـ .. إـذـ اـنـفـرـدـ بـصـغـارـهـ فـإـنـهـ يـأـكـلـهـ ..
ولـذـلـكـ كـانـتـ أـنـشـىـ النـمـرـ أـشـرـسـ الـكـاثـنـاتـ عـنـدـمـاـ تـضـعـ صـغـارـهـ ..

وهـذـهـ المـعـانـىـ تـدـلـ عـلـىـ التـفـوضـيـ وـالـاضـطـرـابـيـ وـالـيـأسـيـ وـالـغـيـظـيـ فـيـ دـاخـلـ ..
أـنـشـىـ مـثـلـ فـرـنـ قدـ اـمـتـلـأـ بـأـرـغـفـةـ الـخـبـزـ .. وـتـنـطـلـ مـنـ الـفـرـنـ أـلـسـنـةـ تـرـيدـ أـنـ تـلـتـهـمـ
الـخـبـازـ وـالـأـرـغـفـةـ مـنـ بـعـدـهـ .. فـكـانـشـىـ أـخـبـزـ مـنـ أـجـلـ أـنـ يـكـونـ كـلـ شـىـءـ نـوـعـاـ مـنـ
الـفـحـمـ .. لـمـذـاـ ؟ـ ..

إن العملات الورقية التي أطبعها لا يستخدمها أحد .. أنا الذي رسمتها .. أنا الذي طبعتها أنا الذي وقعت عليها بإمضاءي .. ولكن أحداً لا يعترف بها .. إنني مثل أهل الكهف عندما صبحوا من نومهم بعد ٣٠٩ سنوات فاكتشفوا أن أمواهم لم تعد مستعملة ..

ونحن أمام نوعين من الكهوف :

كهوف أهل الكهف القديمة ..

وكهوف سكان الكواكب الأخرى في المستقبل ..

فالإنسان عندما يصعد إلى القمر سوف يعيش تحت قشرة القمر ، خوفاً من أشعة الشمس ، ومن الأشعة الكونية .. فسكان الكهوف هم الإنسان بعد مائة وبعد ألف من السنين ..

وأحياناً أجده العملات التي في يدي هي عملات الكهف القديم .. وأحياناً هي عملات كهف المستقبل . وفي الحالتين ليس لها مقابل في السوق .. لا أستطيع أنأشتري بها شيئاً . ولذلك أرى أن أموت بها أو أموت عليها أو أجعلها قماشاً حريراً وألفها حول مثل شرنقة دودة الفرز وأموت فيها أنعم وأرق ميتة . لماذا ؟ لأن أفكارى لم تظهر في وقتها أو في مكانها .. تأخرت جداً أو تقدمت جداً .. فالمسافة بيني وبين الناس طويلة .. إما أن أكون وراءهم بآلف كيلو أو آتني أمامهم بآلف سنة .

غريب أنا ؟ نعم ..

فهل أنت يا آمال غريبة .

هل تعرفين ما الذي كان قلمي يسبقني إليه ؟ كنت سأناذيك : يا آمال .. لولا أنني لا أستريح إلى إضافة «باء» الامتلاك هذه إلى أي شيء .. فانا لا

أملك شيئاً أو أحداً . ولا حتى نفسي .. صدقيني . لا فرق بيني وبين الناس الذين عليهم عفاريت .. أى الذين تتلمسهم الأرواح الشريرة .. أى الذين يشعرون بأن أحداً يضايقهم عند الحركة والتنفس والنوم .. تماماً كما ينحسر أحد في ملابسك .. فتحسين لأن صدراً يجثم على صدرك .. كان سيقاناً آخر تلتقط على سيقانك .. في داخل بطنك .. في داخل الجورب .. صدقيني في بعض الأحيانأشعر كأنني جالس على حجر أحد .. أو أن أحداً على كتفي .. أو أحداً قد وقف على رأسه فوق رأسي .. وأنني لذلك أمشي كما يمشي البهلوان في السيرك .. صورة غريبة؟ نعم!

* * *

وإليك بعض الأفكار التي هبطت على دماغي كأنها غربان تطارد حاماً .. أو كأنها خفافيش تطارد عصافير .. أو كأنها بعوض يطارد براغيث تحت كل شعرة من شعر رأسك وكلها تطن في أذني .. وأحياناً أشعر كأن قلبي يضخ نملاً ونحلاً .. وأحياناً كأنني عفريت تخراج النار من عينيه .. ولا أكاد أتخيل صوري هذه حتى يطير النوم من عيني .. فانا الخائف المخيف .. وأنا الجراد والمشنقة والضحية ، وصراخ الجماهير تطالب بواحد غيري !

وإليك بعض ما يدور في رأسى وحوهها خارجاً داخلاً : وهو معنى ودلالة ، فلا تمرى عليها بسرعة :

من السهل أن تسامح عدوا ، من الصعب أن تسامح صديقاً !

وأنت غنى يسعى إليك ، وأنت فقير يهرب منك الناس !

* * *

صعبه جداً هذه الحياة إذا لم يكن لك فيها صديق واحد - لا صديقة ! .

* * *

الحظ حلنى على رأسه كثيراً وطويلاً ثم ضاق بي .. فوقع منى على الأرض
ـ وهذه هي سقطة الحظ ! .

* * *

إن تحكم إلى ضميرك ، كالذى يقود سيارة ورجله على الفرامل دائماً ! .

* * *

كل ما تحتاج إليه في هذه الدنيا : الجهل والغرور والوقاحة .. وسوف يجيء
النجاح من تلقاه نفسه ! .

* * *

صدقني وراء كل رجل ناجح امرأة مندهشة لهذا الذي حدث ! .

* * *

لا يوجد سر للنجاح ، فالناجحون اعترفوا لنا بكل شيء ! .

* * *

الحب : هو تلك الفترة القصيرة جداً من عمرك بين حبك لفتاة جميلة وبين
التفكير في الزواج منها ! .

* * *

الكرامة ترف عند المرأة العاشقة ! .

* * *

الحب هو الخدعة الأبدية التي تلعبها الغريرة في الجمع بين رجل وامرأة تحت غطاء واحد لتمر الحياة التي نلعنها ! .

* * *

أنت أكثر مع امرأة إذا انفردت بك واحدة فقط : فإذا أنت أغضبت المحبوبة ظهرت لك الزوجة ، وإذا أنت أغضبت الزوجة ظهرت لك الأم ، وإذا أغضبت الأم ظهرت لك الحياة ! .

* * *

الذى يقول إن الحب يصنع المعجزات ، لا يعرف وجع الأسنان والفقرا .

* * *

الزواج ثمن يدفعه الرجل للحب ، الحب ثمن تدفعه المرأة للزواج ! .

* * *

الموت كالزواج : لا كلمة مني ولا كلمة منها ! .

* * *

أول سنة زواج تدخل من الباب . ثاني سنة من الشباك .. ثالث سنة من الباب .. رابع سنة من بيت الجيران .. خامس سنة لا ترى الأبواب والنماذد .. سادس سنة لا تجد سبباً لكل ذلك ! .

* * *

الزواج له شعبية عظيمة لأنه يجمع أعظم عواطف وأعظم مصلحة ! .

* * *

أما بعد الظهر فذهبت لساعٍ معاشرة موضوعها « التكيف الدافعى للحشرات والطيور والحيوانات » . . وفي أول المعاشرة ضايقنى جفاف الموضوع . . وتلخص الأستاذ المحاضر . . وهى من صفات الكثير من العلماء . . فهم أول الأمر يضعون النظرية الجافة ، وبعد ذلك يضربون الأمثلة . . وبعد النظرية وشرحها وبعد ضرب الأمثلة يكون الطلبة قد ناموا . . أو خرجوا . . ولو عكس الأستاذ المحاضر الوضع ، لأنعش وامتع المستمعين . . مثلاً يقول : إن التكيف معناه أن الحيوان يريد أن يتافق أو يتمشى مع الظروف التى يعيش فيها . . لماذا ؟ لأن الحشرات والحيوانات هى أجهزة دقيقة جداً . أحكم الله صنعها . فهى لا تعيش إلا في الظروف المناسبة تماماً لها . . فإذا تغيرت الظروف كان لابد أن تجد أسلوباً آخر لعيش . . ولذلك نجد الحشرات والطيور تهاجر من الشمال البارد إلى الجنوب الدافئ . . هذا في الشتاء . . أما في الصيف فهى تهاجر من الجنوب الحار إلى الشمال المعتمل البرودة . . وهذه الهجرة هى نوع من التكيف مع الظروف لكي تعيش هى وصغارها . .

فالحشرات والطيور والحيوانات تتكيف مع التغيرات لكي تعيش . .

وبعض الكائنات لا تجد نفسها قادرة على هذه الهجرة ولذلك صنعت لنفسها درعاً تقيها من الخطر الذى تتعرض له . . فالسلحفاة تسكن في درع متينة من فوق ومن تحت . . فإذا هاجمها حيوان أو طائر متوجش . . فإنها تسحب رأسها وتدخل في هذه الدرع . . وكذلك القنفذ . . إذا استشعر الخطر ، فإنه يتكون حول نفسه . . ويصبح كرة من الشوك يتدرج في أي اتجاه . . ولا يستطيع حيوان أن يأكله . .

أما الأرنب فهو يهرب من الشغل إلى جحره . . وقبل الهرب يشب الأرنب

على ساقيه ويشم رائحة العدو أو يسمع وقع أقدامه .. فإذا تأكد من ذلك راح يجري إلى جحره .. فيكون الهرب نوعاً من التكيف مع الموقف الجديد ..

وبعض الحشرات تعيش طول الوقت تحت الأرض .. تأكل وتشرب وتتنفس .. فالأرض هي التي تحميها من الخطر الدائم ..

وبعض الحشرات وكذلك الحيوان « تتلون » مع البيئة النباتية أو البيئة الترابية أو الحجرية . ويكون للفراشات أو العناكب أو الحرياء نفس اللون .. فلا يستطيع الحيوان الذي يهددها أن يميز لونها من البيئة التي تعيش فيها ..

وحيوانات المناطق الجلدية يتغير لونها مرّتين في السنة . في الشتاء تكون بيضاء رمادية .. وفي الصيف تكون بنية مثل الأرض والأحراش .

والحيوانات التي تربص بالحيوانات والحشرات الأخرى إذا اكتشفت ضحاياها بالصدفة . فإنها ترابط في المنطقة .. لأنها قد عرفت أين تسكن الضحايا ، وماذا تأكل وأين تتجمع ? .. ويسرعة يعرف الحيوان المفترس ضحيته وينقض عليها .. كان هذا الحيوان المفترس قد اهتدى إلى صورة فوتografية لفريسته وراح ينظر إليها من حين إلى حين ليعرف ملامح الضحية : شكلها ولونها ورائحتها وصوتها ..

وبعض الحشرات والحيوانات تلسع وتفرز سماً لن يتهجم عليها من الحيوانات المفترسة .. ويكون اللسع والندع ، هو آخر محاولة للنجاة من الموت ..

وبعض الحيوانات تلجأ إلى الحيلة والتهويش .. فتجد الضفادعة تماماً صدرها بالهواء فيكون حجمها أكبر ، ليخيف من يعتدى عليها ..

وبعض الطيور تنشر جناحيها وتهز رقبتها وساقيها وتطلق أصواتاً غليظة

لتخفيف الطيور الأخرى الأكبر . . وأحياناً نجد بعض الطيور تقوم بعمل احتكاك لأجنحتها فيكون لها صوت فحيح الأفاسى ليخفف الطيور الجارحة التي تتربيص بها ! .

وأحياناً نجد الطائر الذكر الواقف أمام العش حيث الأنثى والصغرى يتحرك بعيداً عن العش فيتظاهر بالسقوط على الأرض ليوهم الطيور المعتدية بأنه جريح وأنه سقط فريسة سهلة . . ثم يظل يتقلب ويتنقل بعيداً عن العش . . وفجأة يطير . .

وبعض القردة تطلق أصوات الخوف والإندار وتتجمع كلها وتتربيص . . والشعلب يتظاهر بأنه ميت ، ويطلق رواحه كرية . . حتى إذا اقترب منه الوحش الذي يريد الانقضاض عليه ، هرب من الرائحة وتركه . .

حتى الفراشات الصغيرة جداً تجذب إلى حيل بارعة ، وقد ارتسمت على أجنحتها عيون كثيرة ، هذه العيون لتضليل الطيور التي تريد افتراسها ، فتوه بها بهذه العيون ، لكن تشغله تماماً عن العيون التي في رأسها ، وعن الرأس أيضاً : وقد لا يؤدي هذا الخداع إلى نجاتها ، وإنما فقط إلى درء المخطر بعض الوقت ! .

* * *

هذا هو المعنى الظاهر لهذه المحاضرة . وهو كلام مفيد . . ولكن إذا عرفت يا آمال أن هذا الأستاذ هو واحد منا ، نحن الذين نرى حكمـة الله في كل شيء . . ونرى أن السلوك الحيواني هو أصدق وأوضح سلوك خلقـه الله . . فالحيوانات لا تكذب ولا تغش ولا تقتل إلا جائعة . . الأسد نفسه من الممكن أن يركبه طفل صغير فلا يلتفت إليه إذا كان شبعان . . وكل الحيوانات وكل

الزواحف لا تؤذى إلا إذا خافت . . أى إلا إذا توهمت أن أحدا سوف يعتدى عليها . . ولأنها لا تعرف لغتنا فهي تترجم كل حركة لا تفهمها بأنها عدوان عليها . .

ثم ما هي هذه الغريزة التي تجعل الحيوان يعيش ويدافع عن نفسه ويقاتل ويقتل . . أو يقاوم ويهرب . الغريزة ليست إلا برنامجا دقيقا قد أودعه الله سبحانه وتعالى ، هذه الأجهزة الدقيقة المحكمة : البرغوث والفيل والنسر . . كلها كائنات دقيقة جدا حساسة جدا رائعة جدا . كلها قد زودتها حكمة الله برنامج للعمل اليومي والعمل مدى الحياة .

هذه البرامج موجودة عندنا أيضا . . وقد أضاف الله إليها العقل والإرادة . فالعقل يتصرف ويجتهد في تطبيق هذا البرنامج وفي تعطيله وفي إصابته بالخلل أيضا . .

إذن فلابد أن يكون هناك هدف من وراء هذه المحاضرة - وأحب أن أقول لك إن أكثر من نصف الحاضرات من الفتيات المحجبات . . وكن يكتبن أو يسجلن كل ما قاله الأستاذ على أجهزة تسجيل . . واحدة فقط هي التي كانت تسجل ذلك صوتنا وصورة . . وأنت تعرفيها جارتك سوزى . . أنا أعرف أنك لا تحيينها ، وسبب ذلك أنك لا تعرفيها . . ولم يتسع وقتك لذلك . . ولكن لو عرفت ظروفها التي تغيرت والتي فرضت عليها أن تكون في حالة دفاع عن الجسم والنفس والاسم والوظيفة والعائلة . . إنها ليست هكذا خائفة ولا مذعورة ولا سيئة الظن بالناس . إنها الظروف القاسية عليها وعلى المرحوم زوجها وعلى أولادها البشامى وعلى أمها المريضة . . إنها مسكونة لم تعرف بالضبط ما هو التكيف الدفاعي الذى تستطيع أن تقوم به . . كيف تخنقى . . كيف تهرب إلى جحر . . كيف تظاهر بالموت . . كيف تنفع صدرها لتبدو

أكبر وأقوى . . كيف تطلق صفات كريهة على نفسها ليهرب منها الأولاد والبنات . . فليس صحيحًا أنها تمارس القمار وليس صحيحًا أنها تتفرج على الأفلام الجنسية العارية . . أبداً . . إنها من أنقى خلائق الله . . والله على ما أقول شهيد . . ولكنها الأساليب المختلفة التي يجب أن توهمنا بها دفاعاً عن النفس والشرف . . أعتذرها !

و يوم حاولت أن أصلح ما ينكرها لم يكن سبب ذلك أنني أحبها . .
وأنني . . وأنك . . وأنك . . أبداً . . والله على ما أقول شاهد عليم . .
فقط أردت أن أعلمك ما تعلمته من الآخرين . . أن يكون لديك عذر جاهز
لكل الناس . . عملاً بما قاله الشعراء الحكماء :

إذا كنت في كل الأمور معايبها صديقك، من تلقى الذي لا تعاتبه !

أو : لك عورات وللناس أعين !

أو ما قاله حافظ إبراهيم :

لاتسلم سيفي إذا السيف نبا صع من العزم والدهر أبي !

أو ما قاله الشاعر :

فمن ذا الذي مأساة فقط ومن له الحسنى فقط ١٩

حتى الأنبياء اخطأوا . . والقرآن الكريم الذي تحفظه دليل على ذلك . .

فآدم عليه السلام قال عنه القرآن الكريم : . . فنسى ولم نجد له عزماً . .

ونوح عليه السلام قال : إن ابني من أهلى . .

وقال القرآن : إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم .

وقال : قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لى
وترحمنى أكن من الخاسرين ..

وقال القرآن عن يوسف عليه السلام : وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ
أخاه في دين الملك .

وعن موسى عليه السلام قال القرآن الكريم : رب إنى ظلمت نفسي
فاغفر لى ..

وقال عنه القرآن لأنه قتل مصر يا : هذا من عمل الشيطان ..

وقال القرآن على لسان موسى : « فعلتها ، إذا وأنا من الضالين » ..

خسارة يا أخت ألا تخبي أختا في الله .. فما أحوجنى وأحوجك وأحوجنا
إلى إخوات وإخوة في الله .. يقرأون الكتاب الكريم ويقلبون في كتب العلم
ليعرفوا البرامج الحكيمية الأبدية التي أودعها الله أجسام الحيوانات وعقل وقلب
الإنسان .. فلا يتهم الحرياء بأنها متلونة ولذلك فهي منافقة .. إنها
لاتتفاق .. إنها تتقوى .. إنها تخاف وتتوارى من أجل أن تعيش .. ولا
أحد يتهم الصفادع بالنفحة الكاذبة والغرور والعنطرة .. إنها تتظاهر بها ليس
فيها ، وهي صادقة ، لكنها تعيش فقط ..

فلا أنت ظالمة ولا أنا .. وإنما نحن نحاول أن نتوافق وأن نتفاهم من أجل
أن نعيش ، وأن نعيش أفكارنا من بعدها .. فلنلقى ظللا على الغد وبعد
الغد .. وأفكارنا أطول عمراً منا .. وأفكار أسلافنا حية فينا .. فهم قد
عاشوا في مائتنا ، نحن نريد أن نرسى قواعد هذه السنة الحميدة .. وربما بخت
من نام على حب جديد ، وربما بخت من خلع من حذائه كراهية قديمة ..

أستودعك الله على أعمق نوم وأهناً حلم ، وعلى حب جديد لإنسان
جديد.. لواحدة في الله أو واحد في الله .. والله من ورائنا ومن حولنا ومن
 أمامنا نعم المولى ونعم النصير .. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ..

يَا نَاسٍ كَاتِبُونَا

أَخْرِي فِي اللَّهِ . .

يَا سَيِّدِي أَنَا غُلْطَانَةُ . وَغُلْطَتِي أَنِّي مُخْتَلِفَةٌ عَنْ وَالَّذِي وَإِخْرَتِي . وَلَكِنْ
مَا هِي غُلْطَتِي بِالضَّيْطِ . . لَا أَعْرِفُ . فَمَنْ حَقٌّ أَيْ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَنِي عَلَى
جَنْبِ وَيَقُولَ لِي : إِنْتَ عَامِلَةٌ فِي نَفْسِكَ كَدَهْ لِيَهْ ؟ .

مِنْ حَقِّهِ . كَمَا أَنْ مِنْ حَقِّي أَنْ أَقُولُ . وَأَشْرِحُ وَأَحَاوِلُ أَنْ أَقْعُنْ . وَيَسْتَهِي
الْكَلَامُ عَلَى أَنْ نَسْتَأْنِفَهُ فِيهَا بَعْدَ . . أَوْ عَلَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةٌ مِنَ الْكَلَامِ . لَا أَحَدٌ
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَقْنَعَنِي وَلَا أَنَا قَادِرَةٌ . اِنْتَهِي . وَلَكِنْ لَابِدَ أَنْ يَكُونَ كَلَامٌ . . أَمَا
الَّذِي يَحْدُثُ فِي بَيْتِنَا فَيَبْعِثُ عَلَى الْأَلْمِ . . فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَجَدُ زَوْجَةَ الْبَوَابِ
تَقُولُ لِي : اسْمُ اللَّهِ عَلَيْكَ . إِنْتَ مَتَعْلِمَةٌ وَحَلْوَةٌ ، وَلَكِنْكَ يَا بَشِّي لَنْ تَهْجُدَنِي
عَرِيسًا . . إِنْكَ تَطْفَشِينَ كُلَّ مَنْ يَقْرَبُ مِنْكَ . . حَرَامٌ عَلَيْكَ يَا بَشِّي ! .

بِالْذَّمَةِ أَقُولُ هَذِهِ السَّيِّدَةُ الطَّيِّبَةُ مَاذَا ؟ .

هَلْ أَقُولُ لَهَا : يَا خَالِتِي أَمْ شَاهِينْ لَيْسَ هَذَا كَلَامُكَ . إِنَّهُ كَلَامٌ مَامَا . .
إِنْ أَمِي تَبَالَغَ كَثِيرًا فِي مَخَاوِفِهَا . . وَتَبَالَغَ كَثِيرًا فِي أَنِّي لَنْ أَجَدُ عَرِيسًا وَلَنْ أَجَدُ
بَيْتًا آخَرَ غَيْرَ بَيْتِ وَالَّذِي . . وَأَنِّي هَكَذَا عَبَّهَ عَلَى أَبِي وَأَمِي وَإِخْرَتِي . .
هَلْ أَسْأَلُهَا : كَيْفَ عَرَفْتَ كُلَّ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ ؟ لَيْسَ مُعْقُولاً أَنَّهَا عِنْدَمَا تَرَانِي

كل يوم أنزل من التاكسي أو من سيارة إحدى زميلاتي وعيناي على الباب ..
ولا أتلفت يمينا أو شملا . وقد غطيت معظم وجهي .. هل من المعقول أنها
وهي جالسة أمام الباب وترانى دقيقة أو دققتين كل يوم تستطيع أن تعرف كل
ذلك . إننى أستمع إليها في أدب .. وأرد عليها بالقدر الذى يجعلها تفهم .
ويجعلها فى نفس الوقت تنقل رسالة إلى أمى معناها : إننى أعرف أننى اخترت
الطريق الصعب ، ولكنه المحتشم الذى يرضى ربى وضميرى . وما دمت قد
أرضيت ضميرى . فأنما راضية بما قدره الله لي .. وإنى لمن الصابرين ..
آمنت بالله .

وفي إحدى المرات وجدت الباب يقول : يا سيدة فاطمة السيدة الكبيرة
عندكم .. وقد جاءت لأن السيدة والدتك مريضة . وقد زاد مرضها اليوم ..
وأنت عارفة السبب .. الله يخليك ويبارك فيك اسمى كلامها .. ربنا
يسعدك يا بنتى ! .

هل أنا غلطانة ؟ إن الذين يكلمونى هم بالفضيبل الذين لا حق لهم في
الكلام .. إن أبي يجب أن يكلمنى وأمى وإخواتى .. إنهم يعرفون من الدين
والدنيا أضعاف الذي أعرفه .. لماذا لا يتكلم أبي .. لماذا لا ينادينى ويقول
لـى : تعالى .. اقفل الباب وراءك .. يا بنتى أنا علمتك الصراحة والحرية
واحترام الرأى .. أنا يا بنتى لا أحب أن تتحججى .. ولا أفهم معنى
الحجاب .. إن الفضيلة هي الساتر وهي المانع وهي الحجاب .. وليس كل
من كشفت وجهها قد تعثرت وتجردت من القيم الأخلاقية .. إننى لست
محجا ولكنى أرعى الله .. وليس كل محجة فاضلة .. فهناك محجبات
فاسقات .. أنا أعرف ذلك .. إنهن يشنن إلى الحجاب ! .

إننى أن يستدعينى والدى ويقفل الباب ساعة ومائة ساعة .. يقول وأنا

أرد . أرد وهو يرد .. وليكن بعد ذلك ما يكون . لماذا لا يكلمني .. لماذا لا يحاورني .. لماذا يترك هذا الحق لكل الزوار .. لكل الضيوف .. لكل الأقارب .. لماذا يتمحول كل الناس قضاء وأقف وحدى في قفص الاتهام .. وليس لي حق استئناف الحكم .. لماذا ؟ لماذا يجعلونني هكذا شاذة .. مبورة .. لأنني في بعض الأحيان أنظر إلى نفسي في المرأة ، أنكشن شعري .. هل لي قرون .. هل لي أنياب .. هل لي أظافر .. هل أنا بشعة إلى هذه الدرجة .. هل أنا ميكروب .. هل أنا فيروس ..

وفي إحدى المرات وجدت السيدات قد انفصلن عن الرجال .. ثم دخلوا جميعا غرفة نومي .. وفجأة وجدت أمي قد نزعت عن الحجاب .. وصرخت : هل هناك شعر أجمل من هذا ؟ حرير أسود طويل حتى الكتفين .. وشدت فستانى ومزقته .. هل هناك عنق أجمل .. أكثر استداراة .. أبنوس .. قشطة .. والعينان والشفتان .. والذراعان ؟ ! ..

ثم ما هو أبشع من ذلك .. ورفعت ثوبى فتعرت ساقاي .. أجمل ساقين .. هل كل ذلك تدفعه معها .. من خلق الله كل ذلك .. خلقه ليراه ابن الحلال فيتزوجها وتعيش معه بالحلال .. حرام عليك يا بنتى ! إن التي عندها فقط وجه جميل تقول : عندي وعندى .. والتي عندها عينان .. والتي عندها ذراعان .. وأنت ربنا أعطاك كل شيء .. فكيف تقربين ما أعطاك الله .. كيف تعيشين كأنك كفن أبيض .. انظروا إلى غرفتها .. كلها كتب وورق .. لا توجد لوحة ولا صورة لا شيء إلا سجادة الصلاة وصورة هذا الشيخ هباب .. وصورة هذا الزفت .. وهل هذه مناظر يراها الإنسان عندما يصحو من النوم .. أنت بوجهك النقي وعيونيك الجميلتين عندما تنھضين من نومك لا ترين إلا هذه العفاريت .. هل هذا إنسان .. هذه المخواجـ

الغليظة .. هذه اللحية .. هاتان العينان كلهما شر . ما الذى يعجبك في هذا القطران وفي هذا الطين .. ثم لا تريدين منى أن أبكي كل يوم بدلًا من الدموع دما .. هل تظنين أن الله راضى عنى لأننى ولدتك ، بل إنه غاضب أشد الغضب .. خلقت الله عقابا لي ، مع أنى لا أستحق هذا العقاب . لقد صليت وحججت .. وآمنت ولا أزال مؤمنة بالله أتقيه وأخاف منه وأرعاه فى كل صغيرة وكبيرة .. أستغفر الله العظيم ١ .

فهل قالت أمى شيئا ١٩ .

إنها فصاحتى وجعلت الناس تتفرج على ابتها التى لم تنطق بكلمة واحدة .. هل بعد هذا الذى حدث عشرين مرة قبل ذلك . يجعل على لسانى كلمة واحدة ١٩ هل أستطيع أن أرى أمى .. أنظر في عينيها .. إن أمى جزار يبيع لها بالكتيلو . لها أيض . ولها آخر . إن أمى أرادت أن تعلمدى مبادئ التجارة .. لابد أن أعرض السلعة على الراغبين في الشراء .. أغمرز وألمز وأهزر وأشار بأصابعى إلى شعرى وللى عنقى . وأتمايل وأتكسر لكي أفت العيون إلى قوامى وخصرى ولا أعرف كيف أركز على ساقى ١١ .

ولم يكن من عادتى أن أنظر إلى زميلاتى في الجامعة . ولكن بعد هذه العروض بالإكراء في بيتنا ، بدأت لاحظ ما الذى تفعله الزميلات ليعرضن جاھنن ويكلبن على الزيون ، حتى يطب ضحية لهن .. وقد عرفت زميلات بارعات في هذه الاستعراضات . ولكن لاحظت أن الزملاء لا يحترمون التى تتبدل وتعرض وتبالغ وتدعى وتحرض ثم تحفز .. أى التى تنصب شركا بعياتها وشفيتها ونهديها ومشيتها . لا أعرف ما اسم هذا المهاون الإنسانى ؟ لا أعرف احتقارا لإنسانية الإنسان أبغى من أن يجعل المرأة نفسها مصيدة . مطبا . شركا خداعيا . يسقط فيه الرجل . فإذا سقط واكتشف الحقيقة بعد

ذلك ، أیقн أنه ضحية . مخدوع . مغفل . كيف تستمر الحياة بين اثنين أحدهما استغفل الآخر . لقد سمعت زميلات ييکن دما لأنهن عرضن أنفسهن أكثر مما يجب . لأنهن «رخصن» الغالى من أجسادهن ومن قلوبهن ومن عواطفهن . . فمن أعطت يدھا بسهولة . سلمت ذراعها أسهل . . ومن أعطت ذراعها أهدرت صدرها وبذلت خضرها بجانا . . وراحت . يارت . . ضاعت . ولا تنفع الدموع . لا دموعها ولا دموع أمها . ولا أعرف إن كانت زوجة أى بباب قد يكت أو لطمت خديها حزنا على شيء من ذلك ! حاولت أن أشكو لوالدى تفاصيل ما حدث . تضايق فعلا . وكذلك إخوئي . ولكن لم يقل والدى شيئا . ولم يعرض على الذى فعلته أمى . وكأنهما قد اتفقا على كل شيء . هو الذى ألف وهى التى مثلت وأخرجت . وفضحتنى في غرفتى وعلى فراشى . ونفذت إعدامى . ولكن أحدا لم يترحم على شبابى أو عقلى أو إيمانى أو شرف . لا أحد !

إن المحكوم عليه بالإعدام يسألونه عادة : نفسك في إيه ؟ ! يسألونه عن آخر رغباته . . إن كانت له آية رغبة بعد أن انتهى كل شيء . وما قيمة الذى يقال ويأكله ويشربه إذا كان سيموت بعد لحظات . ومع ذلك فإنهم يكلمون هذا الإنسان الميت . ويسألونه ويتظروننه حتى يقول . . وفي بعض الأحيان تجد حتى الذى سوف يموت يحاول أن يسخر من الدنيا فيقول : أريد الإفراج عنى ! .

إنه المستحيل . ولكنه قلل . وضحكوا . وقد يقولون له : العجب غيرها . فيقول : زجاجة شمبانيا . . أشرب الشمبانيا وأكسر الزجاجة في دماغ الفتى !! .

أو يكتفون بقراءة حكم المحكمة ويسألونه إن كل يحب التعليق على ذلك . وقد يقول : إنه غلطان مجرم . . وإنه يستحق القتل لأنه قتل .

أى لابد من الكلام .. حتى ولو لم يكن للكلام فائدة ! حتى الله سبحانه وتعالى عندما خلق الكون قال كلاما . مع أنه سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى كلام . يكفي أنه يشاء .. يكفي أنه يريد ليكون كل شيء وفق مشيته .. طبق إرادته .. والله سبحانه وتعالى يقول : إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن .. فيكون !.

وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى للسيد المسيح : « أنت قلت للناس اخْتَذُونِي وَأَمِنُ الْهَمِينِ » .

يرد السيد المسيح : « إن كنت قلته فقد علمته ». والله تعالى يعلم كل شيء .. ما قال المسيح وما لم يقل .. ولكن الله يعلمنا أدب الحوار .. أدب المناقشة .. أدب أن نسأل وأن ننتظر الإجابة . أى لابد أن يكون كلام .. لابدا .

والله سبحانه يريد أن يعلمنا أنه حتى لو كانت قدرتنا عظيمة . فلا بد أن نقول كلاماً لمن تنطبق عليه هذه القدرة .. الأب لابنه .. الأم لابنتها .. السيد لخادمه .. الحاكم للرعية .. لابد أن يكون كلام .. حوار .. هذا الحوار هو دعوة لأن تشارك بالعقل .. بالتفكير .

إلا في بيته فلا أحد يقول .. لا أحد يكلمني إلا الباب وزوجته .. وكل الضيوف .. ومع الأسف لا يقولون من أدمغتهم .. إنهم يرددون كالبيغاوات ما قالته أمي . وما وافق عليه أبي .. ويكون المنظر مضحكا .. أرى أمي وهي تسمع نفسها على ألسنة ضيوفها .. وكذلك أبي .. وفي بعض الأحيان يخرج الضيوف عن النص ، فتتدخل أمي .. مثل آية « ملقة » في مسرح قديم تنبه الممثل إلى أنه لم يقل بالضبط ما كتبه المؤلف .. وأنالاحظ في بعض الأحيان ثورة صامتة على أمي التي لا تريده من أى أحد أن يتصرف في النص ..

ولذلك يسرف الضيوف في الخروج على النص لأنهم لا يقلون قدرة وفهمها عن المؤلف .. وأنا أسمع كل ذلك ويزداد أسفني وحزني .

قلت لأمي : هل أنا رجعت سكرانه أمس ؟ .

قالت : أخريسي - يا قليلة الأدب .. أنا عندى بنات تعمل كده ! .

قطع لسانك مجرمة ١١ .

قلت : يا ماما إينى أسألك .. أنت تكلميشي كأننى فعلت ذلك .. أو في نيتى .. ماهى غلطتى ؟ ما هى الإساءة لابنى وإخوتى وأسرتى .. هل لأننى في حالى ؟ هل لأننى لا أتكلم في التليفون .. هل غلطتى أننى لا أتفرج على الفوازير .. هل لأننى أكل قليلا .. هل غلطتى أن سلوكياتى عبرجة لكل من في البيت .. أنا لا أطلب مصروفا .. وإخوتى يطلبون .. إنى لا أطلب فساتين ، ولكن إخواتى يطلبون .. أنا لا استقبل الضيوف ، وكل إخوتى يفعلون .. أنا أغسل ملابسى وأكونها .. وأرتب فراشى .. ما الغلط فى ذلك ؟ . أنا لا أعرف من البنات إلا اللاتى يؤمن بالله ويختفن غضبه .. ماضرر ؟ ما الخطير ؟ . أنت تهربيني وتوجعني .. ولا أبكي أمامك .. هل هذه إهانة لك .. هل أنا عطلت نشاط كفيك وقدميك ؟ في استطاعتك في أي وقت أن تضربينى بالقلم وبالشلوت .. أنت أمى تعلمينى .. والجنة تحت أقدام الأمهات .. والله يقول لنا : « ولا تقل لها أى ولا تنهرها » صدق الله العظيم ..

فتقول : آدى اللي انت شاطره فيه ! .

وأقول : بل شاطره في دروسى .. وناجحة ومتغوفة .. هل مطلوب من طالبة أن تفعل غير ذلك .. هل مطلوب أكثر من أن أرفع رأسك ورأس

الشرف والفضيلة . . لماذا تخافين أن أبور فلا أتزوج مع أن أخواتي الأكبر سنا لم يتزوجن ولا إخوتي الذكور . . لماذا أنا بالذات يا ماما؟ .

• • •

• • •

آه لو مدلت أمي ذراعاً واحدة إلى الأمام . . لوجدتني على صدرها أبكي وأستغفرها . . آه لو فعلت مرة واحدة . . فما أحوجنى إلى ذراعيها وصدرها وإلى البكاء . . ولكن أمي لها قدرة عظيمة على أن تلتصق ذراعيها بجسمها ، وأن تجعل صدرها رخاماً ، وعينيها زجاجاً ، ولسانها كرباجاً ، وأن تجعل المسافة بيني وبينها جليداً شاسعاً . . فأراها صغيرة جداً وترانى ضئيلاً . . ويتهى الكلام - إذا كان هذا الذي قلناه كلاماً !

قلت لوالدى : إن الرسول عليه السلام قال : ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين . . وأنا أريد أن أطألك بوجه واحد ولسان واحد . . إننى تعيسة يا أبي . . فانا لا أعرف كيف أرضيك . . أنت علمتني . . ونحن احترمناك . . أنت أجبتنا ونحن أجبناك . . أنت وضعست لنا حدوداً ، هي حدود الله . . وأنا تمسكت بها . . ولما وجدت إخوتي يسخرون مني استغفرت لهم وانزويت . . ولما وجدت أمي تجعل مني خلوقاً شاداً انطويت على نفسي وأغلقت بابي ورحت أصلى . . تقول إنشى لا أضحك ، بينما إخوتي يضحكون . . فعلاً أنا لا أضحك ولكن سعادتني أعمق . . والسعادة بهجة بغير قهقهة . . بينما هذه القهقهة هي سعادة مزيفة . . هل رأيت أناساً يضحكون أكثر من الذين يتعاطون الخمر والخبيث . . ولكن أي ضحك هذا يا أبي ؟ من قال إن هذا هو الضحك الذي يسر الخاطر وينعش القلب ، وينخفف متاعب الحياة . .

أنت نسيت يا والدى أنتى ذهبت معك إلى المسرح و كنت أضحك أكثر من كل الناس .. إننى بشر .. هل لأننى أطللت الثوب والأكمام وأخفيت جانبياً من الوجه ، أكون قد حذفت كل هذه المساحات من إنسانيتى .. إننى فقط فعلت ما أمر الله به نساء الرسول ، أكرم النساء .. فقط هل هناك أعظم من القرآن .. إننى أقرأ القرآن .. هل هناك أعظم من الرسول وسيرة الرسول .. إننى أتأمل عظمته نبياً رجلاً وزوجاً وأباً وأخاً وأينا .. ومرضاً .. وهو ميت كما أنا ميتون .. قل لي يا أبي كيف كنت تذاكر القانون وأنت طالب .. وكيف أن المذاكرة أرهقتك وجعلت النوم والضحك صعباً عليك .. هل نسيت يا أبي ما كنت تقوله لنا .. إنك لم تر فتاة ولا اقترنت قبل أن تفرغ من التفوق في الدراسة .. وأن أمي هي حبك الأول والأخير ، كما أنك حبها الأول وحبها الأخير .. فيها الذى فعلته أنه غير الذى ألزمت به نفسك وزوجتك .. إننى أقرب إليك من كل إخوتي .. إننى صورة من أدبك وشرفك وفضيلتك .. إذا كان لابد أن تفرح فإنما الذى أفرحك ، وإذا كان لك أن تسعد ، فإنما سعادتك .. وإذا دخلت الجنة إن شاء الله ، فإنما أضيف إلى مقامك في الجنة ملايين السنين .. فإنما أحدى حسناتك !

أما الذى حدث بعد ذلك فهو بالضبط ما لم أستطع أن أحتمله .. الله .. ما أعظم عقلك .. وأصدق قلبى .. لقد رأيت دموع أبي .. و كنت واقفة من ذلك .. وأما الذى حدث بعد ذلك فأعظم وأروع .. الله .. الله .. لقد وجدت أبي هو الذى انهار على صدرى كأنى أمه .. بل أمه .. احتضنته .. وأبكي وأبكي .. الله الله .. سبحان الله .. تمنيت أن يميتنى الله ، لكنى أنتقل من هذه الجنة العارضة إلى الجنة الأبدية .. بل أؤكد لك أننى مت .. وأننى دخلت الجنة .. جنة الفناء فى حب أبي وصدقه وإخلاصه وجهه وجبه

وحبه لي .. لا نهاية لهذا الحب .. فما الذي قالته الدموع ؟ كثير جدا .. ما الذي قاله هذا الحسن ؟ قال كل الكلام الجميل الحكيم .. فالحمد لله كثيرا .

أما الذي قاله أبي عندما فتحت الباب ورأت هذا المشهد ، فأعفي نفسى من ذكره .. ولا أعتقد أننى سمعت كلمة واحدة مما قالت .. وأعتقد أن أبي حسدتني على هذه النعمة .. حسدتني على هذه القدرة الجبارية التى أملكها والتى استولت على أبي تماما - هذا ما قالته أمى .. مع أنى لا أملك إلا ما يملك .. و أنا معا خلوقان الله .. والله هو القوى .. وهو قادر على أن يؤلف بين القلوب .. وقد فعل . شكر يا رب !

وكان لابد أن يتركنى أبي دون كلمة . فقد قال كل شيء . وقلت . فهو يعرف ما الذى سوف تفعله أمى ب نفسها وبعد ذلك به وبأولادها .. إنها تبكى في غرفتها . وعندھا الضغط والقلب والمصران . ولو تركتها لقتلت نفسها بكاء وانهيارا . ولذلك فلابد أن يدركها . وعلى كل الإخوة أن يفعلوا ذلك .. إلا أنا . فأنا سبب كل المصائب .. وإذا تركت أمى البيت ، فاللوم على رأسى وحدي .. وإذا طلقها أبي - كما تقول كثيرا - فأنا المجرمة الحقيقية .. ويجب أن يوقفنى أخواتي عند حدى .. حتى لا أخرب هذا البيت من أجل ذوى الذقون الطويلة والعيون الجرئية تعلقت صورهم في غرفتى ليكونوا أول ما أرى عند الصباح ، وأخر ما أرى عند النوم . هؤلاء الإرهابيون السفاحون مصاصو دماء الشباب في كل بلاد المسلمين - إلى آخر ما تقوله أمى ..

أما المفاجأة التي زلزلت البيت فظهور طبيب لم يتوقعه أحد .. أنا الذي استدعيته . وجاء ولم يكن أحد يعرف أننى لم أخرج من غرفتى . فلا أحد يدق

بابى ولا أحد يدرى إن كنت نزلت أو طلعت .. فأننا على حربتى .

وسأله : من الذى طلبك ؟ .

قال : الآنسة فاطمة .

قالوا : ولكن لماذا ؟ .

قال : عندها نزيف فى أنفها .. و مغمى عليها منذ ساعات .

وعادت أمى إلى البكاء وأبى والختوى .. ورأيت الذعر في عيونهم
والشحوب في وجوههم .. والأيدي كلها متسابقة تشد الغطاء وتضع
الشيشب وتغلق النافذة وتفتح زجاجات الدواء ..

والله ما أسعدنى بمحكم .. والله لا أريد أكثر من ذلك .. ولكن لماذا لا
تكلمونى ؟ لماذا تهددونى بالباب وزوجته ؟ لماذا تفضحونى بالضيوف ..
كلمونى يرحمكم الله .. قليل من هذا العطف ، وكثير من العقل .. قليل من
القبلات والأحضان وكثير من المخوار والتفاهم .. كلمونى .. كلمونا ..
ناقشونا .. أسلونا .. ليس بالشتمة ولا بالعصا .. من يدري ربما
تغيرت .. ربما غيرت رأى .. ربما تغيرنا جميعا .. فلا يغير الرأى إلا الرأى ..
ولا يقلب القلوب إلا القلوب .. ولا يثير العقول إلا العقول .. فلا يفل
ال الحديد إلا الحديد .. ولا يقطع الماس إلا الماس .. إن الله سبحانه وتعالى قال
عن الكافرين : ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم .. أقصى درجات العقوبة إلا
يكون كلام .. إلا تكون مواجهة .. عين في عين .. ويد في يد .. وفكرة
لفكرة ..

هل أنتى كلمتى إليك ؟ لابد .. ولكن سوف أردد ما تعرفه .. ولكن لابد

من الكلام أني به الكلام .. وأنت تعرف إلى من أتوجه بهذه الأبيات .
وليس أعني الله . قال الشاعر القديم :

أحب مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعييب وأن أغتابا
وأصفح عن سباب الناس حلي وشر الناس من يهوى السباب
ومن هاب الرجال تهبيوه ومن حقر الرجال فلن يهابوا .

وردة في طريقها !

الصداقة : جسمان وعقل واحد ..

الحب : قلبان وجسم واحد ..

ولكن الذى أشعر به مختلف تماما .. فانا لا أعرف ، عندما أفكير فيك ، من هذا الذى يفكـر .. أى عقل هذا .. أى جسم هذا .. إننى أنظر إلى يدي وأقلبها .. وأتساءل أين هـى هذه الخلايا التي تحـبك ؟ .. كـيف أن ملمس يديك مختلف عن كل شيء آخر ؟ .. كـيف يحتضن كـفى كـفىك ؟ .. من أين تـحيى هذه المعانـى ؟ .. ما الذى قالـه خلاياك خلاياك ؟ هذه الأصابع التي تمـسـك القلم .. هي التي تمـسـك السـكـين .. والـطـبق والـفـنجـان .. ولا أـشـعر بشـئ .. ولكن هذا الشـعـور .. هذه الـيـقـظـة .. هذه النـهـضة .. هذه الـانتـفـاضـة كـله عندـما تـقـرـب يـدىـ من يـدـك .. ولا أـعـرف كـيف يتم ذـلـك .. والله يا فـاطـمـة ، لو قـطـعـت أنا يـدىـ وأـقـيـتهاـ في الهـواء لـتـحـولـت طـائـراـ يـحـطـعـ عندـ قدـمـيك .. على يـدىـك .. على خـصـلـةـ من شـعـرك .. والله ، يا فـاطـمـة ، كلـما رأـيـت روـادـ الفـضـاءـ في سـفـنـهمـ يـتـقـلـبـونـ وـيـتـطـاـيـرـونـ وـيـلـقـونـ بـالـأـشـيـاءـ فـتـظـلـ حـوـلـهـمـ ، أـحـسـتـ أـنـىـ لـوـ أـرـسـلـتـ يـدىـ .. عـيـنـىـ . شـفـتـىـ .. إـلـيـكـ لـظـلتـ فـرـاشـاتـ تـطـيرـ حـوـلـكـ .. تـطـيرـ وـلـاـ تـهـبـطـ .. تـدـورـ كـالـقـمـرـ حـوـلـ الـأـرـضـ ، وـكـالـأـرـضـ حـوـلـ الشـمـسـ .. تـدـورـ حـوـلـكـ .. عـبـدـاـلـكـ .. عـشـاقـاـ

لنورك .. أسرى .. سبايا نظرتك .. صدقيني يا فاطمة .. لو تعرفين الراحة
الكبرى التي خطفتها لأننى أفكرك .. لا أعرف كيف حدث لي ذلك ..
لا أعرف من أين جاءت هذه المعانى ..

دعينى أصف لك غرفتى .. وسامعينى إذا بالغت كثيراً في استخدام بعض
الكلمات الوهمية .. مثلاً : غرفتى .. إنها الآن غرفتى .. وأنا وحدى ..
وأنا وحدى لأننى أغلاقت الباب .. وأنا أغلاقت الباب حتى لا يدخل أحد
دون إذن .. هل تريدين أن تصبحى .. لا أحد في البيت إلا أمى .. هل
تخبين أن تصبحى أكثر وأكثر .. لقد كتبت ورقة على باب الغرفة باللغة
الألمانية تقول : الأستاذ مشغول .. ضع القهوة أمام الباب .. عد غداً ، فإن
وجدت القهوة في مكانها أرجو أن تصم بدلًا منها قهوة ساخنة .. فإن عدت
بعد غد ووجدتها في مكانها فضع قهوة جديدة .. فإن وجدتها فاقتح الباب
لأننى أكون قد مت سعيداً أفكرك فيك !.

هذه العبارة شاهدتها في أحد الأفلام الألمانية . أعجبتني وتنبأت أن
أكتبها .. أو أن أجدها مناسبة . وقد وجدت المناسبة . لو لا أن أمى لا تعرف
الألمانية ، لو لا أنه لا خدام عندي .. ولو لا أننى لا أريد أن أموت دون أن
أستأذنك .. فقد اكتشفت أننى أعيش من أجلك .. لا تخاسبى على هذا
الذى أقول .. إنها مفاجأة لك ، كما أنها مفاجأة لي .. لا تفسدى المفاجأة
بالسؤال عن الذى أصابنى .. لأننى لا أسأل نفسي .. إننى أستسلم لهذا
الزائر الرائع الذى استحلقه ليلاً ونهاراً أن يبقى : هذا الحب .. إننى أترك
القلم وأنظر إلى كفى .. إن كفى مثل ورقة شجرة .. شجرة الحب .. لقد
تحول لونها الأخضر .. إلى أبيض .. وردى .. لون الحب .. لون الدنيا في
عيلى من يحب .. إنه لونها .. لونك .. إن كفى تحولت إلى مرآة .. إلى

صوريك في مرآة .. شيء عجيب كلها أبعدت كفى عن عيني .. رأيت صوريك أكبر .. ولا أزال أبعد يدي حتى أرى عينيك في كفى .. ما هذا الخيال ما هذا الجلال .. أى نور .. أى سكون .. أىأمان .. أى سلام .. أى سعادة : عيناك .. وجهك .. وشفتك .. وعنقك وكتفاك وذراعاك .. أنت النور .. أنت السعادة .. أنت كرامة الإنسان .. أنت رد اعتبار لكل الناس يا فاطمة .. نعم كل الناس .. فالناس جميعاً قد أهينوا .. والناس تراب أحذية الأقواء والغشاشين والكلدانيين .. ماذا يقول الناس للناس .. إنهم ينجلون منك يا فاطمة .. إنهم لا يرفعون عيونهم فيك .. ولا يرفعونها عنك .. ثم يدورون حولك ..

إنهم يتحدثون عن عيد الأم .. وعن عيد الأب .. وعيد الربيع .. وعيد الطفولة .. والأعياد القومية ماذا يقولون .. إنهم يتحدثون عن «فكرة» الحب .. حب الأم وحب الأب .. وحب الوفاق العائلي .. والسلام القومي .. عيد الشجرة .. أى حب الحياة .. حياة ورقة .. زهرة .. ثمرة .. إنهم يفخرون بأن نسبة وفيات الأطفال قد نقصت ، لأن الوسائل الصحية قد انتشرت والعقاقير قد توافرت والأم قد تعلمت .. ولذلك يعيش الأطفال .. أى أنهم يحبون الحياة .. يحبون الطفل .. إنهم يتكلمون عن أنواع من الحب .. عن أنماط من الحب .. عن علاقات هي الحب .. إنهم يتحدثون عن وقف إطلاق النار .. أى منع القتل والخراب والدمار والكرامة .. إنهم يشيرون إلى السلام بين الشعوب .. أى أنهم يحبون الحياة .. ولكن هؤلاء الذين يقدسون الصفاء والوفاء والسلام هم أيضاً الذين يتحدثون عن قتل الأم لأولادها ، عن قتل الزوجة لزوجها .. عن الاغتصاب .. عن هتك العرض .. هل تعرفين يا فاطمة ما معنى ذلك؟ معناه

أن أناساً يحبون بعنف .. فيصبح العنف في الحب كالقتل .. تماماً كثما يعاني
واحد واحدة بعنف فتموت بين ذراعيه .. الأفاعي الكبرى تفعل ذلك ..
إنها لا تنهش الفريسة .. إنها تعانقها .. تعصرها .. تسحقها .. فإذا ماتت
أكلتها بعد ذلك .. ومن لا يعرف الأفاعى يخيل إليه أن هذا هو العشق .. إن
هذا هو العناق حتى الموت .. فتحن في عصر يشربون فيه الشمبانيا ثم
يسخرون الأكواب .. في عصر إذا قبل رجل امرأة فإنه يأكل شفتها .. يشهو
معالها .. وإذا قتلها دخل معها القبر ثم اغتصبها .. هذا هو الحب
المريض .. هذا العشق المجنون ..

ما المعنى فاطمة؟ .

إنهما يريدون أن يحبوا .. ولكنهم لا يعرفون .. يريدون أن يكونوا بشراً
مثلنا، فلا يستطيعون إلا أن يكونوا وحوشاً .. لماذا؟ .

إنهما عندما نظروا إلى «كيوبيد» إله الحب الإغريقي وجدوه يمسك جعبة
من السهام : سهام ذهب .. وسهام فضة .. السهام الذهبية يشبهك بها
قلبين .. والسيام الفضية يمزق بها قلبي .. غلطة الناس في زماننا أنهم
تصوروا أن هذه السهام حقيقة .. ولذلك إذا أحبو قتلوا .. وإذا كرهوا
قتلوا .. ولكن كيوبيد هذا لا وجود له إلا في خيالنا .. ألم أقل لك إن حبنا هو
رد اعتبار للإنسانية كلها ..

من قال إنني في حاجة إلى من يعلمني كيف أحبك؟ .. من قال إنني في
حاجة إلى سهام من ذهب أو فضة أو من حديد؟ .. نظراتك سهام ..
كلماتك ذهب .. بل نظراتك سهام ذهبية .. وأنفاسك سحر قديم ،
ولساناتك سحر حلال .. ما هذا الذي نراه تحت أقدامنا يا فاطمة .. كيف
تنشق الأرض .. وكيف تخرج منها هذه الزهور .. وكيف تحول الزهور إلى

طيور . . وكيف تصبح الطيور أوركسترا غنائياً موسيقياً . . ثم من هذا الذي يقف بين السماء والأرض قائداً لهذا الأوركسترا . . ففي أي اتجاه نمشي ، تتحول الدنيا إلى زفة . . أمشي إلى جوارك وأمسك يدي بيدي . . أخاف أن تفلتني من قبضتي . . أخاف أن أفلت أنا من قبضتي ، فأدور حولك . . وأدور بك . . وندور معاً . . هل تعلمين يا فاطمة أنتي معك لا أشعر بجسمى لا أشعر بوزنى . . إننى أحس أن الهواء يخترقنى والنور أيضاً . . لا أعرف من أنا . . ما أنا . . هل جسمى : وجه فقط . . عينان . . شفتان . . إننى أنظر إلى ذراعى هذه فلاراها شفة بالطول وذراعى الأخرى شفة . . ذراعى شفتان . . والصوت يتدفق ضوءاً منها . . ومرة أجدنى بالطول ومرة أخرى بالعرض . . ومرات لا أجدى . . ولكنك أنت هنا . . وهنا . . وهناك دائمها . . وأن وجودك يكبر ويتضخم ويتعاظم . . وأنت لست إلا رصيداً يضاف إلى حسابك . . شيء عجيب أن أشعر بأننى أوراق مالية . . وأنت غطائى الذهبي . . أنت الأصل وأنا الصورة . . أنت الرصيد وأنا شيكات قابلة الصرف وكلها حسابك . .

قولي يا فاطمة . . لم تشعرى ولو مرة واحدة أن رأسك يخترق السحاب . . وإننى أحاول أن أعرف مذاك . . فلا أستطيع . . وأنك بين الشرق والغرب ، وإننى أحاول أن أحيط بك فلا أستطيع . . هل الحب جعلك أقوى ، وجعلنى أضعف . . لا ترين يا فاطمة أن الحب ضد قوانين الطبيعة . . فانت خداع العين ، وخداع الأذن ، وخداع اللمس . . إننى أمسك ولا أجدرك ، أسمعك ولا أراك ، أراك ولا أسمعك ، أحيطك ولا أحطويك . . إن هذه الأوهام الجميلة هى الحقيقة الوحيدة في حياتى . . حياتك . . حياتنا . . كيف ؟ ! الحب لا يعرف كيف ولا يعرف متى ولماذا وأين . .

و يوم وجدنا على الطريق وردة .. جثة وردة .. وردة شهيدة .. يومها
أنتحيت أنت .. سبحان الله شجرة ورد تلقط وردة .. شمساً تلقط شعاعاً
منكسرًا .. سماء تعطف على إحدى النجوم .. ديواناً من الشعر يلقط
بيتاً .. يومها أحسست أنني هذه الوردة .. وأنني قتلت نفسي من أجل
أصابعك .. من أجل عينيك .. من أجل أن أنضم إلى حاشيتك .. أحد
رعاياك .. وأنا على الأرض كنت قد آمنت بأنني تراب عاد إلى التراب .. إلى
الحقيقة الأخرى المؤكدة : الموت .. ولكن لستك .. نظرتك .. أنفاسك
أعادتنى إلى الحياة .. لقد كان انحناؤك بعثاً .. أتررين يا فاطمة أنت مت من
أجلك .. مت فيك .. وعشت من أجلك .. عشت لك .. والآن أعيش
فيك : فكرة .. لمحـة .. لـسـة ..

لا تقول لي يا فاطمة مرة أخرى : إن الحب طمع يصبح طموحاً .

أبداً .. إنني لست طامعاً في شيء ، ولا من طموحى أن أحصل على هذا
الذى أطمع فيه .. ولا أن أجعل الطمع طمع حياتى .. أبداً .. فالإنسان
لکى يطمع .. لابد أن يطمع «في» شيء .. أو «في» أحد بعيد عنه ..
وأنت لست بعيدة عنى .. أنت هنا في أعماقى .. وأنا لا أطمع في أعماقى ..
ولا أنا طامع في نفسي .. ولا أنا أمل حياتى .. وما أبعد المسافة بين الأمل
والعمل .. ولكن هذه المسافات انتهت يا فاطمة .. لا مسافات .. لا
مفردات .. لا أمل ولا عمل .. فالذى يبـنـا لا يـعـرـفـ المسـافـاتـ .. الـغـيـرـاـ
الـمـسـافـاتـ .. ودفـنـاـ الطـمـعـ ووـحـدـنـاـ بـيـنـ الـأـمـلـ وـالـعـمـلـ .. فـأـنـتـ أـمـلـ الذـىـ هوـ
عـمـلـ .. وـعـمـلـ الذـىـ هوـ أـمـلـ .. بل حـرـفـ «الـواـوـ» لـيـسـتـ فـيـ مـكـانـهـاـ
الـصـحـيـحـ فـلـاـ «ـوـاـوـ»ـ بـيـنـ الـأـمـلـ وـالـعـمـلـ .. لـأـنـ الـأـمـلـ عـمـلـ وـالـعـمـلـ أـمـلـ ..

ولا تقول لي مرة أخرى : كما أن النار بداية النور ، فالحرمان بداية الحب .

أبدا يا فاطمة . فنارك الماءة هي نورى الأبدى .. والحرمان منك هو وجودك معى .. وأنا معك محروم منك ، وأنا محروم بوجودك معى .. حولك بك .. فيك ..

انظرى إلى الذين يزرعون الأشجار .. إنهم يكسرن فروعها ثم يغرسونها في الأرض .. من غير كسر الفروع لا أشجار جديدة .. ومن غير كسر الفروع لا حواء من آدم ..

وفي أسطoir الإغريق أن الإله الذى سرق النار من الشمس وأعطها للإنسان ، قد عاقبته الآلهة بأن خلقوا له « حواء » تتولى تعذيبه حتى الموت .. أخطأت آلة الإغريق يا فاطمة .. إن حواء كانت عقاباً يوم غابت عن دنيانا .. حواء هبة النساء يوم هبطت إلى أرضنا .. يومها ارتفعت أرضنا حتى صارت ساء .. و المحبون تحتهم وفوقهم ساء .. البخلاء فوقهم والجمال تحتهم .. وكل نجوم النساء عيون ساهرة .. وكل زهور الأرض ابتسامات ساحرة .. ولو لا حواء ما كان للنجوم لمعان ، وللنور ألوان .. أنت لست عقاباً لأحد .. وإنما غيابك هو العقاب ، لست لعنة النساء لأنباء الأرض ، وإنما رحمة النساء بأشقياء الأرض .. فإذا كانت النار هي التي سرقت من النساء ، فهذه النار عندما جاءت إلى الأرض أصبحت نورا .. بهجة .. انبعارا .. نور العين ، حتان القلب ، دم الأصابع ، بل عيون الأصابع ، ودفء الأكف ، عمق الأحضان .. وحدة الوجود ..

صدقينى إنى لا أقرأ ما أكتب .. ولا أسأل نفسي ما هذا الذى يقال .. فعلأ يقال .. كأننى لست القائل .. وإنما أنا متحدث رسمي باسم الوجود كله .. لقد وضعوا أمامى بياناً مكتوباً .. منشورة .. بلاغا .. أمسكت البيان وقرأت .. ولا أعرف حتى من الذى قرأ .. وإنما هو راديو يدار ..

ويقال فيه . . ولا أعرف من الذي يقول . . فقط أعرف من أقول . . وهذا هو المهم . . فالذي أسمعه مني أوافق عليه . . أؤيده . . وأصفق له . . فكل كلمة خيط حرير . . وكل الكلام كله أبيض حولك . . على قدرك . . يغطيك ويكشف مفاتنك . . إنه حرير يغطي حريرا . . إنها شفافية تخفى شفافية أعظم . . أنت مصباح وكل الكلمات فراشات حولك لا تحرق . . لأن ضوءك نور هادئ كالذى وصف القرآن الكريم : « .. المصباح في زجاجة .. الزجاجة كأنها كوكب درى .. يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » صدق الله العظيم - والله هو جبنا العظيم ١ . فأنت طاقة القدر المفتوحة دائمة . . في عيني وفي أذني وفي قلبي . . إنى منها إليك . . عليك . . إن هذه الطاقة تلتف حول رأسك ، كما تلتف الحالات حول رءوس القديسين . . نور حول نور . . وكما أن في الشمس بقعًا سوداء . . وهى ليست سوداء ولكن تغور بالنور ، فإنها تبدو للعين سوداء . . وأنت كذلك يا فاطمة . . لولا أنك لا تغورين ولا تشورين . . وإنما هي صورتى انعكست على عينيك . . في وجودك . . إنها طاقتى المشتاقة تدور وتشور في طاقتك النورانية كما يقول المتصوفون . .

آه . . لو تعرفين ما الذي في رأسي . . كذبت عليك الآن عندما قلت لك : رأسي . . فأنا لا أعرف أين هي . . إن كانت على كتفى أو بين جنبي . . أو بين أصابعى . . إننى مثل حوض زجاجى واقف على حيله مليء بالكتانات التى لا أعرف لها شكلا ولا لونا . . تطارد بعضها البعض . . قلبي يطارد عقلى يطارد ذاكرتى يطارد مخاوى يلاحق شوقى . . إليك . . غيرتى عليك . . والآن معركتى مع الذى وراء باب الغرفة وباب البيت وتحت النافذة . .

هل تضحكين؟ لقد أغلقت الباب بالفتح ١٩ .

تصورى مع أن الحب لا يسخر من شيء قدر سخريته من الأقفال
والمفاتيح والأبواب والنواذن والحدود والسدود والقيود والقوانين والشهام من
فضة ومن ذهب ٢١ .

وما دمت قد تحدثت عن الباب والشباك .. فمعنى ذلك أننى ابتعدت
عنك ، وأننى سمعت الطرقات الرقيقة على الباب .. إنها أمى يا فاطمة تقول :
الشاي يا ابنى دوختنى معاك .. رابع مرة أسعن لك الشاي .. افتح يا
حبيبي ١ .

آه يا فاطمة لو اتجهت بفكرك .. بقلبك من بيتك في الزمالك ونظرت إلى
بيتى في القلعة .. هذه اللحظة .. إذن لنقلت إليك عبر الفضاء كل هذه
المعانى .. حدث كثيراً أننا فكرنا في أشياء واحدة وسمعتك تقولين وسمعتى
أقول .. حدث وسوف يحدث .. فلا مسافات ولا أصوات ولا كلمات ..
إنى لا أنكلم بصوت مرتفع حين أفكر .. إنى أفكر لنفسى يتفسى في
صمت .. وكذلك الذى بيننا نفكر معاً لنفهم معاً ولنقول معاً .. حدث
كثيراً . تذكريين طبعاً؟ .

أمامى صورة سوف أعطيها لك يوماً .. هذه الصورة لفتاة كانت تمسك
وردة ثم تركتها .. الصورة تبين أن عطر الوردة يتذلى من أصابعها شفافاً كأنه
شعاعات رقيقة .. العطر له لون .. عطر الوردة هو لغتها .. كلامها ..
وكلامها مسموع للورود . وتراء أدق الكاميرات .. هل فهمت يا فاطمة؟ .

إنى كل يوم أجده يدك في يدى .. أجده كلمات الأصابع ، عطر
الأعصاب ، باى باى .. يقولها وجودك .. وأؤكد لك أن لو استعرنا

هذه الكاميرا لوجدنا خيوطا رقيقة تتد من عندك إلى عندي .. هذ الخيوط
 كلمات اعرضها شيء أو أحد مزقها ، فإنها بسرعة تلتسم .. ترتبط ..
 تشتت .. تتعانق .. وفي ذلك تأكيد لوحدة الوجود .. للغة الكون التي أو
 دعها الله سبحانه وتعالى قلوب الأتقياء الأصفياء .. الذين يتحدثون بنعمته
 وبفضله عليهم .. إن قلوبنا عناكب طيبة تفرز خيوطها وتعلق نحن منها ..
 إن خيوط العنكبوت هي شبكات الرادار .. تبعث وتلتقط .. وهي شبكة لها
 موجة واحدة تصدر من قلب واحد .. تنقل الذي أقول .. والذي لا
 أقول .. والذي تقولين ولا تقولين .. كل ذلك هنا .. في هذا المكان في هذه
 الغرفة من هذا البيت من هذه المدينة من هذا الكون من هذا السديم .. نحن
 صغيران جدا .. ولكن عظمة الله تتجلى في الكائن ذي الخلية الواحدة ، كما
 تتجلى في أعظم العبارقة وأضخم الأجرام السماوية .. نحن صورتان لعظمة
 الله .. لكمال الله .. حبنا صلوات الله لا تنتهي وامتنان لنعمته لا حد لها ..

* * *

أترك الآن .. فإني لا أزال أسمع صرخة أمي التي خرجت وترككتني وحدى
 معك وحدك في هذا البيت .. فامتلا بك البيت .. إن وجودك يحولني ..
 يحتويني .. يزاحمني .. فيها حاجتي إلى أن أنهض .. أو أفتح الباب أو أشرب
 أو آكل .. لأن الذي يرويه الحب ويشعه فلا شيء آخر يرويه .. يحتويه ..
 يحبه .. ١٩ .

حال: خصوص رسول الله..

حدروني منها . و قالوا : يجب أن تخترس من التي لم تقرأ إلا كتابا واحدا . وهي لم تقرأ إلا الكتاب الأوحد : القرآن الكريم . ولذلك فهي حجة في الشريعة الإسلامية . ومن الصعب أن أقنعها بأى اجتهاد . لأنها ترفض الاجتهاد . متشددة . . . حنبلية .

ووجدت أن كل هذه صفات تغرينى بأن أقابلها . وأن أناقشها . فكل هذه الصفات مزايا الفتاة في الرابعة والعشرين من عمرها . جميلة . فاضلة . ثم إنها على خلاف مع والدها ووالدتها . وأنا أيضا . فهذا يربان أن ابنتهما قد تعلمت وتخرجت . ويجب أن تتزوج قبل أن تعمل . فالزواج عمل عظيم . ومن يدرى ربها وجدت شاباً غنياً ، أغناها عن العمل . وهكذا تكون الزوجة الصالحة والأم الفاضلة . . . هذا رأيهم .

ولكن ماذا يحدث لو أن هذا الشاب الغنى لم يتقدم . وتقدم لها واحد من مثل حالها . . . ووافقت هي على هذا الفقير ورفضت الغنى - هذا ما لم يفكر فيه أبوها وأمها - ثم ماذا لو رفضت الزواج قبل أن تجد عملا . وقبل أن تجد نفسها في هذا العمل . وماذا لو قررت أن تواصل الدراسة وهي تعمل أيضا - أبوها فعل ذلك واثنان من إخواتها - هذا أيضا لم يفكر فيه أبوها . . . وأمها لا تحب أن تتشبه ابنتهما الكبرى بوالدتها ، فهو رجل !

ومعنى ذلك أننى موافق على أهم آرائهما قبل أن ألتقي بها في المكتبة العامة
قلت : أنت بنت حلال . أريد أن ألتقي بك وأن أجلس وأن أتحدث وأن أرى
ما الذى يفتح به الله علينا نحن الإثنين ..

أشرق وجهها ..

وبهذه المناسبة دعنى أصف لك آمال .. ولتكن هذا اسمها . الوجه
مستدير . أبيض لامع والعينان سوداوان لامعتان أيضا .. والشفتان لها لون
الدم ، بلا صبغة .. باختصار وجهها درجات لونية .. أما أهم الألوان جمِيعاً
 فهو هذا الصفاء والنقاء والبهاء .. سبحان الله .. ما أجملها وما أبدعها ..
وما أهدأها وما أكملها .. كل ذلك لأنها قرأت كتاباً واحداً وأمنت به
واستمدت من خلوده هذا الجمال الأبدي .. سبحان الله ..

قلت لها : ماذا تعملين هنا؟

قالت : إننى موظفة هنا بعض الوقت .. بأجر رمزى .. قلت : ولماذا؟

قالت : ولماذا؟ إن الرسول صل الله عليه وسلم قال : لأن يأخذ أحدكم
حبلًا ، فيذهب ف يأتي بحزمة حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس ،
أعطوه أو منعوه .

قلت : شيء عجيب .. أنا تصورت أن أمثالك مثاليون .. لا يمشون
على الأرض .. أقدامهم على الأرض ورؤوسهم في السماء ..

قالت : وهذا صحيح فانا بشر أمشي على الأرض ، وأنا مثالية .. فرأسي
مرفوع إلى السماء .. ومن قال لك إن الدين يدعو إلى الحياة الوهبية .. ففى
الإسلام واقعية مهذبة .. والشريعة هي تنظيم لهذه العلاقات الإنسانية وتقنين
لها .. والإسلام هو الدين الوحيد الذى نظم لنا حياة الدنيا كلها .. القرآن

الكريم يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .. والرسول عليه السلام يقول : « إن أحب شيء في هذه الدنيا : الطعام والنساء والطيب » .. فالمال جاء في القرآن قبل البنين ، وفي الحديث جاء الطعام قبل النساء .. ولا طعام بغير مال ولا بنين بغير نساء .. فلماين هذه الأوهام التي تتصورها . قمة الواقعية وقمة الفضيلة أيضا .

قلت : سؤال .

قالت : تفضل ..

قلت : وتنظرين إلى المرأة .. أو أنت لا تنظرين إليها ما دمت لا تضعين الأحمر والأبيض والأسود .

قالت : كان النبي ﷺ ينظر إلى المرأة . وكان ﷺ لا يفارقه حتى في المسجد : السواك (فرشة الأسنان) والمشط والمرأة والمكحلة .. وكان ينصح بتنظيف الأسنان . وله في ذلك حديث يقول : لو لا أن أشقر على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .. وكان ينظف أسنانه مرتين قبل النوم .. وكان عليه السلام إذا نظر إلى وجهه الكريم في المرأة قال : الحمد لله الذي سوى خلقى وأحسن صورتى ، وزان في ما شان من غيري ..

قلت : صدق رسول الله .. كما أنت على الموضة .. ترتدين فستانا آخر صيحات الموضة .

قالت : أبدا .. كان رسول الله ﷺ يرتدي ثوبين أصفرین ..

قلت : وفي أصبعك خاتم من البلاتين وليس من الذهب .

قالت : لا .. بل من الفضة . وكان رسول الله ﷺ يضع خاتما من الفضة .. هذا الخاتم أخذته أبو بكر ومن بعده عمر ومن بعده عثمان ثم سقط

من عشان في البشر .. إن أختي كانت تضيق بي في الصباح لأنني أقف أمام المرأة رغم أنني لا أفعل شيئا .. ولكنني لا أجده سببا لأن أذكر لها ما كان يفعله رسول الله ﷺ .

قلت : تنامان في غرفة واحدة .

قالت : كأننا ..

قلت : لم أفهم .

قالت : بل في سرير واحد ويفصل بيننا مسند طويل من أول السرير لآخره ..

قلت : لم أفهم .

قالت : لقد نهانا الرسول ﷺ أن تضطجع النساء بعضهن مع بعض إلا إذا كانت بينها ثياب تفصل بيننا .. وكذلك نهى الرجال أن يناموا معا إلا إذا كان بينهما فاصل - صدق رسول الله .

قلت : أرى معلك بوكيه من الورد فيها هذا؟ فرح؟ .

قالت : عزاء ..

قلت : تذهبين إلى العزاء ومعك باقة ورد؟ .

قالت : بل سوف أذهب إلى المقابر . وأضع الورد على قبر خالتى ، فاليم الأربعون لوفاعها ..

قلت : والأربعون عادة إسلامية؟ .

قالت : لا بل عادة مصرية فرعونية أو قبطية أو أوروبية .. عادة لا ضرر من اتباعها ..

قلت : والورود ووضعه على قبر الميت عادة أوروبية .

قالت : بل إسلامية . فقد مر رسول الله ﷺ بقبر رجل شرير . فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الرجل كان يأكل لحوم الناس . ثم دعا بجريدة رطبة فوضعها على قبره وقال : لعل الله أن ينخفف عنه ما دامت هذه الجريدة رطبة - وسوف أفعل ذلك بإذن الله أضع الورد وأبليه لعل الله أن ينخفف عنها . وسوف أزورها من حين إلى حين وألقى على قبرها بالورود أو جريدة النخل المبلل . .

قلت : من هي خالتك هذه . . هل هي التي كنت تسخرين منها .

قالت : أنا ؟ .

قلت : من أنها كانت بخيلة . .

قالت : نعم كانت بخيلة . ولكنني لم أسخر منها . فأولادها كثيرون وتکاليف دراستهم وحياتهم باهظة . قال ﷺ : إن الولد بمخلة جبنة . أي أن تربية الأولاد تجعل الأب حريصاً فلا ينفق ماله إلا على أولاده . . ويجعل حرصه على المال جينا واستسلاماً لأشياء كثيرة قد لا يحسبها . . فالهدف هو أن يكون قادراً على تربية أولاده . فلها العذر وعليها ألف رحمة من الله ! قال ﷺ : رفع عن أمتي : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . فهي يرحمها الله مستكرهة على هذا البخل والخوف . صدق رسول الله . .

قلت : تخين أن تخرج من هذا المكان ؟ .

قالت : لماذا ؟ .

قلت : الدنيا حر .

قالت : أنت حران ؟ .

قلت : بل أنت . . فأنـت ترتدين في عز الصيف فستانا من الصوف . .

قالـت : هذا صحيح . قال رسول الله ﷺ : لا تلبـسوا الحرير ، فإنـ من لبسـه في الدنيا ، لم يلبـسه في الآخرة . صدق رسول الله . .

قلـت : سبحانـ الله الذي أعطـاك راحـة البـال وهـدوء النـفس وصـفاء القـلب ووضـوح العـقل . . أما أنا فـغير ذلك تـاماً . أنت تـنظـرين إلى وجـهي ، وأـنا أـقلب وجـهي يـمينـا وـشمـلا . . شيء عـجيب . . إنـي أـ فعل ذلك حتى في الصـلاة . . قـلقـ عام . . بـينـا أـنت هـدوءـ تـام . .

قالـت : كان ﷺ يتـلـفت يـمينـا وـشمـلا وهو يـصلـي . . وكان الصحـابة يـفـعلـون ذلك أـيـضاً . بل إنـ بعضـهم كان يـشير بيـده إلى النـاسـ أنـ يـفـعلـوا كـذا وأـلا يـفـعلـوا كـذا . . حتى نـزلـت الآية القرـآنية الكـريمة تـقول : «قد أـفلـحـ المؤـمنـون الـذـين هـم في صـلاتـهم خـائـشـون» . صـدقـ اللهـ العـظـيمـ . فـلم يـعدـ عـلـيـهـ السـلامـ يتـلـفت ولا الصحـابة . . وقد جاءـ دورـكـ أـلا تـفعـلـ ! .

قلـت : عندـكـ عـرـوـسـةـ ؟ .

قالـت : مـنـ ؟ .

قلـت : لي . .

فضـحـكتـ وكـأنـها لا تـصـدـقـ ما أـقـولـ . قالـتـ : أنا لا أـصـلـحـ ولا أـنتـ . . فـتحـنـ أـخـوانـ . . رـضـعـناـ منـ ثـديـ وـاحـدةـ . . وـأـنتـ تـعـرـفـ ! .

قلـتـ : إـذـنـ وـاحـدةـ مـثـلكـ . .

قالـتـ : قالـ ﷺ تـزـوجـوا الـوـدـودـ فـلـانـى مـكـاثـرـ بـكـمـ الـأـنـبـيـاءـ يـومـ الـقيـامـةـ . صـدقـ رسولـ اللهـ . .

قلت : أنت لا تنسين لحظة واحدة أحاديث الرسول .. هل إذا نمت نمت تحلمين بكل ذلك .. أم أن الأنبياء والمؤمنات الفاضلات لا يعرفن النوم ..

قالت : أنت ذهبت بعيداً جداً .. كلنا بشر .. والأنبياء سادة البشر وعليهم كل أعباء الدعوة وكل هموم البشر .. ولابد أن يناموا . ويأرقوا ويقلقوا ويأكلوا ويموتوا .. القرآن الكريم يقول : «تجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون» .. «صدق الله العظيم» .. ينامون ولكن ليس كثيراً .

ثم راحت تضحك وأحر وجهها وظهرت الدموع في عينيها وأختفت رأسها .

فقلت : ما الذي يضحكك ؟

قالت : إنما تذكرت شيئاً . فقد جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبى الله موسى عليه السلام تساءل إن كان الله ينام أيضاً ؟ فأرسل له الله سبحانه ملائكة أصابعه بالأرق ثلاثة أيام .. ثم أعطاه زجاجتين فارغتين وطلب إليه إذا نام أن يجعل الزجاجتين في يديه متلامستين . وفي كل مرة يغلبه النوم تصطدم الزجاجتان . فيصحو من نومه خوفاً من أن تتحطمها : وغلبة النوم نهايتها فارتقطعت الزجاجتان وتحطمتا . وقال له الملائكة : لو كان الله سبحانه وتعالى ينام لانهارت السموات والأرض - سبحانه وتعالى - علوها كبيراً عنها يصفون .

وأخرجت زجاجة صغيرة من جيبي وقلت لها : ممكن أن أشرب ؟

قالت : تفضل .

قلت : هل تعرفين ما هذا ؟ .

قالت : لا . .

قلت : هذا ويسكى . .

وضحكـت مـرة أخـرى وـفـي وجـهـها كـلـ صـفـاءـ السـيـاءـ والـبـهـاءـ . . سـبـحـانـ اللهـ . .

ثم قـالـتـ : وـتـسـأـذـنـ أـنـ تـسـعـاطـيـ المـنـكـرـ ؟ لـقـدـ جـاءـ رـجـلـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ يـسـأـذـنـهـ فـيـ أـنـ يـزـنـيـ .ـ فـقـامـ الصـحـابـةـ يـرـيدـونـ قـتـلـةـ لـقـلـةـ أـدـبـهـ وـاـنـحـطـاطـهـ .ـ لـاـ مـؤـاخـذـةـ .ـ وـلـكـنـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ سـأـلـهـ :ـ أـتـحـبـ الرـزـنـاـ لـأـمـكـ؟ـ قـالـ :ـ لـاـ وـالـلـهـ .ـ فـقـالـ الرـسـوـلـ :ـ وـلـاـ النـاسـ يـحـبـونـ لـأـمـهـاتـهـمـ .ـ فـهـلـ تـحـبـهـ لـابـنـتـكـ؟ـ قـالـ :ـ لـاـ وـالـلـهـ .ـ فـقـالـ الرـسـوـلـ :ـ وـلـاـ النـاسـ يـحـبـونـ لـبـنـاتـهـمـ .ـ هـلـ تـحـبـهـ لـأـخـتـكـ؟ـ قـالـ :ـ لـاـ وـالـلـهـ .ـ فـقـالـ الرـسـوـلـ :ـ وـلـاـ النـاسـ يـحـبـونـ لـأـخـوـاتـهـمـ .ـ فـهـلـ تـحـبـهـ لـعـمـتـكـ؟ـ قـالـ :ـ لـاـ وـالـلـهـ .ـ فـقـالـ الرـسـوـلـ :ـ وـلـاـ النـاسـ يـحـبـونـ لـعـمـاتـهـمـ .ـ فـهـلـ تـحـبـهـ لـخـالـتـكـ؟ـ قـالـ :ـ لـاـ وـالـلـهـ .ـ فـقـالـ الرـسـوـلـ :ـ وـلـاـ النـاسـ يـحـبـونـ لـخـالـاتـهـمـ .ـ ثـمـ وـضـعـ الرـسـوـلـ يـدـهـ الـكـرـيمـةـ عـلـىـ كـتـفـهـ وـهـوـ يـقـولـ :ـ اللـهـمـ أـغـفـرـ لـهـ ذـنـبـهـ وـطـهـرـ قـلـبـهـ وـحـصـنـ فـرـجـهـ .ـ

قلـتـ :ـ أـنـاـ أـدـاعـبـكـ .ـ فـلـيـسـ هـذـاـ إـلـاـ دـوـاءـ .ـ وـقـدـ حـانـ موـعـدـهـ .ـ وـهـلـ
تـسـعـاطـينـ أـنـتـ أـىـ دـوـاءـ؟ـ .ـ

قالـتـ :ـ طـبـعـاـ .ـ فـقـدـ قـالـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ :ـ تـداـوـواـ عـبـادـ اللهـ .ـ فـإـنـ اللهـ لـمـ
يـصـنـعـ دـاءـ إـلـاـ وـضـعـ لـهـ دـوـاءـ غـيرـ دـاءـ وـاحـدـ :ـ الـهـرـمـ .ـ أـىـ الشـيـخـوخـةـ .ـ صـدـقـ
رـسـوـلـ اللهـ .ـ

قلـتـ :ـ أـرـيدـ أـنـ أـعـتـرـفـ لـكـ .ـ إـنـىـ أـرـاكـ فـرـيـدةـ فـيـ كـلـ شـيـءـ .ـ فـلـيـسـ بـيـنـكـ

وين زميلاتك وجه للشبه .. أنت أقلية نادرة . هل هذه من علامات الساعة . فقد قال الرسول عليه السلام :بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ .. فأنت غريبة بين المسلمين ، والمسلمون غرباء بين شعوب الأرض أيضا .

قالت : ألف مليون مسلم لا تدل على أننا غرباء .. ولكن الغرابة والغرابة هي ما نشعر به بينما .. ما يشعر به المسلم مع المسلم .. وما يشعر به المسلمون . إذا نظروا إلى مبادئ دينهم .. وقد حدثنا الرسول عليه الصلاة والسلام عن علامات الساعة .. أو قيام القيمة .. قال ﷺ : يأتي على الناس زمان هم ذئاب ، فمن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب - أى يحيى زمان يتصور فيه الناس أن يأكلوا بعضهم بعضا .. وقال أيضا : يأتي على الناس زمان يختار فيه الرجل بين العجز والفجور . فمن أدرك ذلك الزمان . فليختر العجز على الفجور .. وقال أيضا : يأتي على الناس زمان لا يأمرون فيه بمعرفه ولا ينهون فيه عن منكر .. وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : يكون في آخر الزمان قوم يحضرن السلطان فيحكمون بغير حكم الله . فعليهم لعنة الله . وقال عليه الصلاة والسلام : بين يدي الساعة يظهر الربا والزنا والخمر .. وقال عليه السلام : لا تأخذوا الدينار بالدينارين ، ولا الدرهم بالدرهمين ، ولا الصاع بالصاعين . فإني أخاف عليكم الربا .

قلت : أريد أن أسألك يا آمال ، يا أختي في الرضاعة وفي الله .. لقد مدلت لك يدي . ولكنك لم تصافحيني ؟ فما هذا ؟

قالت : عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : إنني لست أصافح النساء ! .

قلت : وهل تصدقين مثل هذا الحديث ؟ إن الأحاديث التي نسبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بمئات الآلوف .. وكثير منها مدسوس

موضوع . وهذه حقيقة مؤكدة يعرفها علماء الحديث . . إذن فأنتم تصدقون الأحاديث التي تدعو المسلمين إلى نبذ أبناء الديانات الأخرى !؟

قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : لا تبدروا اليهود ولا النصارى بالسلام . وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أخيقه . هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه . . وقال ﷺ وكان آخر ما تكلم به عند موته : أخرجوا اليهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب . . واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور الأنبيائهم مساجد . صدق رسول الله .

قلت : صدق رسول الله في كل الذي قال ودعانا إليه . لو لا أن مثل هذه الأحاديث تتنافى مع التسامح الإسلامي . وتتنافى مع ما جاء في القرآن الكريم : لكم دينكم ولِي دين . . وجادهم بالتي هي أحسن . وقال للرسول عليه السلام : ولو كنت فظا غليظاً القلب لا نفضوا من حولك . . وقال له أيضاً : وإنك لعلى خلق عظيم . . بل إن الرسول يقول لنا : لو أن أحداً قال : كاذباً ، أشهد أن لا إله إلا الله لكان مسلماً . ولحرم علينا قتله . . وقد حدث أن استأذن جماعة من الأنصار في قتل رجل منافق . فقال الرسول عليه السلام أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قالوا : بلى . . فقال أولئك الذين نهانى الله عنهم ! .

ونظرت في ساعتها . ونظرت . . ومددت يدي إلى جنبي وأنخرجت سلسلة مفاتيح فضية . وقدمتها . فقالت : ما هذا ؟ .

قلت : والنبي قبل المهدية .

قالت : لا . . شكرنا .

قلت : قال صلى الله عليه وسلم : عهادوا تزدادوا حباً . صدق رسول الله ! .

فأخذتها وهي تقول : صدق رسول الله والشكر لله والسلام عليكم ..

قلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .. يا أيتها الوائلة ! .

قالت : الوائلة ؟ أنا ! .

قلت : لا تعرفين معنى هذه الكلمة ؟ لها معنى قديم عند العرب ..
فكانوا يصفون شاعرة اسمها « أم حكيم » بأنها امرأة « وائلة » .. أي أنها
وصلت الجحش بالكمال ..

قالت : أنا ؟ أستغفر الله واستغفره وانت أيضا ..

قلت : أستغفر الله ! .

آخر حدود التضحية !

كل واحد يقابلنى يسأل : مالك ؟ .

أقول : لا شيء .

- سلامتك ؟ .

- الله يسلامك .

- مالك ؟ .

- لا شيء ! .

.....

إذن فالضيق والحزن والقرف واضح على وجهي . وقد استعنت بمنظر أسود حتى لا يرى الناس عيني . ولا أعرف ما الذي أخفىه عن الناس . فنحن قد تناقشنا في كل شيء في حياتنا وحياة الناس . والخلاصة : أنا غير راضين عن أي شيء وعن أي أحد . ولا أمل في شيء أو في أحد .. في هذا البلد .. والحل هو الخيل . قال تعالى : واعتصموا بحبل الله جيئوا ولا تفرقوا . صدق الله العظيم .

ولكن الناس لم يعودوا يرون حلا ولا حبلا وإذا قلت لواحد . منهم جاء في

القرآن الكريم . . فإنك تسمع صوتا مفاجئا . . هذا الصوت هو أن نافذة قد أغلقت في وجهك حتى لا تكمل كلامك . . إذن فالناس يقفلون الأبواب والشبابيك والطرق . . إنهم يحبسونك ويعتقلون أنفسهم ، ليظلوا هنا دائما ، وييكونوا دائما ويخزنوا دائما . . فهم في حالة حداد مستمر . وكل واحد يتلقى العزاء مع أنه هو الميت !

أما أنا فقد قررت وانتهى .

ولا أستطيع أن أظل طول حياتي أنتظر شفاء والدتي الشفاء من عند الله . وهي مريضة من عشرين عاما . ولا أستطيع أن أبقى في مصر حتى يتخرج إخوتي الصغار في الجامعات . وبعد التخرج سوف يمسك كل واحد منهم جزءة قديمة ويلقى بها في وجهه . . والمعنى أنني أنا الذي اشتريت لهم الجزم . وقد أعادوها إلى صاحبها .

ونسوا تعبي وسهرى واشتغالى ليلا نهارا وحرمانى من كل شيء من أجل أن يكملوا تعليمهم . وأخواتى البنات يجب أن أنتظرن حتى يتخرجن ويتزوجن . . وتقفل كل واحدة بباب غرفتها عليها وعلى عريسها . وأظل أنا كلبا أمام الباب . . فلماذا أنتظر العالم كله ؟ أى حق لهم عندي ؟ من الذي أوجب على كل هذه البهيمة . . ثم ما الشمن ؟ ما المكافأة ؟ إن أبي وأمى لم يلقيا امتنانا من واحد من إخوتي . . فهل أنا ألقى هذا الامتنان المفقود ؟ ولماذا يكون الأخ الأكبر هو المضحى الأكبر ! لماذا أموت لكي يعيشوا ؟ لماذا أضيع عمرى كله في انتظارهم . . لماذا أبدى شبابى من أجل أن يتحققوا شبابهم . . فلا أنا أب ولا أم . . وإنما أخ . . واحد من الإخوة .

أبدا . . لن أموت من أجل أى إنسان آخر . . لن أنتظرك أحدا . . لن أضحي . فهناك حدود للتضحية وهناك حدود للتعاطف والمجاملة .

أنا رأيت واحداً من إخوتي يمدد يده يسرق الفلوس من تحت مخددة أمي ..
الفلوس التي تحتاج إليها لشراء الدواء . وهو يعلم لأنّه طالب في الطب ..
الطبيب سرق الدواء من فم المريضة؟! فهل هذا الطبيب سيشكّرني في النهاية
لأنّي عملت مريضاً وصبياً في دكان ومزارعاً . لكنّي آتى لإخوتي ببعض
الفلوس تساعدهم على شراء الكتب .. مغفل وحمار وجاهل - أقول هذا
لنفسِي ، إذا انتظرت يوماً واحداً . انتهى ..

ولم أصل إلى هذه المعانٍ بسهولة . لقد تعذّبْتُ كثيراً جداً وأنا أنتزع نفسي
من أحضان إخوتي .. أو على الأصح وأنا أنتزع إخوتي من أحضاني .. فانا
أحبهم هذه نقطة ضعفي . أحب إخوتي وأخواتي وأحب أمي .. والله
العظيم إنّي أتعذّب من أجلهم .. إنّي أخجل من هذا الحب . وأحتقر
نفسي بسبب هذا الضعف . وأتمنى لو كنت جراحاً ومددت يدي إلى جوف
وأخرجت قلبي ودسته بالجزمة .. فهذا أضعف ما في جسمي .. إذا مرضت
أمي مرضت .. إذا مرض إخوتي وأخواتي مرضت .. وأكون أول من يصحي
.. أول من يدق الباب .. ويسأل : الجميلة كيف حالها اليوم؟ .

والجميلة هي آية واحدة من إخواتي . أو أقول : الشاي جاهز يا هانم ..
الفول طازة يا عروسة .. الطعمية سخنة يا أعظم دكتور في العالم .

هل تتصور أنّي بغيوني لا أرى القرف على وجههم .. هل تتصور
بغيوني أنّي لا أتنبه إلى ما يقولونه .. مثلاً : ياه .. الدوشة دي كلها على
شوّية الفول دول .. على طعمية؟ .

فلا أرد على هذا الكلام بأنّ أقول : أنا غلطان .. أنا قفرت من عز النوم
وارتدت ملابسي وخرجت ومشيت نصف ساعة ذهاباً وإياباً لكنّي أشتري
أحسن فول وأحسن طعمية؟ .

متى الغفلة والغباء والبلاء .. كأنني خادم طردوه قبل ذلك . ولكن الخادم صعبان عليه العشرة . فهو يلقى نفسه تحت أقدامهم . وهم ينفضونه كأنه تراب . ذباب . لم أنتبه إلى ذلك . وإنما أنا أحب إخواتي . وهذا هو الحب وبهذلة الحب . أما الآن . فقد تغير كل شيء . ولم أعد أرى إلا تصحيحتي البلياء من أجل هؤلاء الأندال . عرايس ؟ وأنا مالي ؟ دكتورة ؟ وأنا مالي .. عاطلون باطلون ؟ وما شأني فكل إنسان يجب أن يبحث عن مستقبله . وكل واحد يلقي من الدنيا ما يستحق . وقد نالوا من تعني وعداني أكثر مما يستحقون .. ثم إن أمي ليست أمي وحدي .. إنها أمهم أيضا . ويجيب أن أختفي لتصححوا ضمائرهم فلست خادما لأحد .. لم أولد خادما . ولا يصح . انتهى .

وكأنني ذهبت أودع دنيا الأصدقاء والزماء .. وكأنني أردت أن أراهم مرة واحدة ولآخرة مرة . ذهبت أستمع إلى محاضرة عنوانها « هجرة الطيور » .. لا أعرف بالضبط ما الذي سوف يقوله زميلنا في محاضرته .. ولكن الكلام عن الهجرة عند الطيور أو الحيوانات أو الإنسان هو أنساب كلام وأحلام . قررت أن أدخل المحاضرة متاخرا ، لكي أجلس في آخر المدرج . وللفاجأة أن الحاضرين كان عددهم قليلا جدا . ووجدت الصدف الأمامي خالي . جلست . وجاءت زميلة وزميلة وزميل .. وكان عددها حوالي الأربعين . لم أتابع المحاضرة من أوها . فقد كنت غير قادر على التركيز .. وأظن أنه تحدث عن أنواع الهجرات الموسمية عند الطيور .. والحيوانات .. وهجرات الشعوب والقبائل والأجناس .. وظاهرة الانتشار من أجل الطعام والتكاثر .. وخلاصة ما قيل هو : أن الهجرة سلوك طبيعي . لو لا الهجرة ما امتلأت القارات .. ونحن على أبواب هجرة جديدة من كوكب الأرض إلى الكواكب الأخرى ..

ورغم تباعد الناس في المدن والقرى ، فإن نوعا من «الأنحاء» الإنسانية تجتمع بين الناس .. أو تربط بينهم أو تشغلهما .. أى أن للناس اهتماما مشتركا - الفكرة لا يأس بها . فمهما تباعدنا ، فهناك شيء ما يربطنا . هذا الرباط هو جوهر الإنسان . فالإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده . لابد من الأسرة . المدينة . الدولة . العنصر . الدين . مفهوم . مفهوم .

وعندما تحدث عن «الخمام المطوق» صحوت من سرحانى الشديد .. فهناك نوع من الخمام له طوق من الريش الملون حول رقبته . هذا هو طوق الخمام . وفي الأدب العربى كتاب من الشعر اسمه «طوق الخمام» لابن حزم . وهو كتاب في الحب والعشق والبعد والقرب والقبلات والأحضان .. ولابد أن يكون الشاعر الأندلسى قد اختار هذا العنوان ليقول : إن هذا هو أجمل ما في الخمام .. أو أنه يريد لشعره أن يتشر مثل هذه الخمام التى كانت مواطننة يابانية .. ثم نقلها الإنسان إلى الهند ثم إلى دول حوض البحر الأحمر . وانتقلت إلى يوغوسلافيا في أوائل هذا القرن .. ثم إلى النمسا وإلى السويد وبريطانيا في متتصف هذا القرن .. وهى تنتقل مع الإنسان من مكان إلى مكان لأنها تعيش على الإنسان . تعيش على الحبوب والبذور التى تساقط في بيته أو أمام البيت . فهى ليست طائرا بريا .. وإنما هى طائر داجن مستأنس .. فهى لم تهاجر . وأما الإنسان هو الذى قام بتهجيرها . وانتشرت بسرعة . والذكر والأنثى يتبدلان النوم على البيض حتى يفقس . الذكر ينام على البيض نهارا . والأنثى تنام ليلا .

أما هذا الطوق فله قصة .. يقال إن سيدة عجوزا يخيلة كانت عندها خادمة . وكانت تعذيبها كثيرا وطويلا وعميقا مقابل مبلغ مبلغ ١٨ قرشا في السنة .. فذهبت الخادمة تشكو إلى الآلهة هذا الظلم والعذاب . وسمعها كبير الآلهة

زيوسى . وقرر أن ينتقم لها . فجعل هذا الطوق في عنق الحمامة . وجعل للحمامة صوتا هو : ديكا - أوكتو .. ديكا .. أوكتو .. وديكا في اللغة اليونانية معناها عشرة .. وأوكتو .. معناها ثانية .. ثم أصبح هذا اسم الحمامة في اللغة اللاتينية .. فالحمامة المطروقة تفصح السيدة العجوز ليلا ونهارا .. عشرة وثانية .. عشرة وثانية .

حتى الطيور تهاجر .. أو حتى الطيور يمكن تهجيرها لكي تعيش وتنتشر وتكاثر .

وفي التوراة في سفر أرمياء الإصلاح الثامن : أن طائر اللقلق يعرف موعد هجرته .. والباهمة والستونو المزفقة قد حفظت مواعيد هجرتها .. أما الإنسان فلم يعرف .

وهذا الطائر المطروح يعيش هانئاً آمناً .. يستطيع حياته ويبيض وينام على البيض ويتكاثر وله قصة وله أسطورة خالدة .. فهو الذي يعلن في رشاقة وأناقة أبسع صور العذاب والهوان .. إنها أجمل فضيحة وأرق مأساة .. وهذا الطائر في موسم الخصب يعلو في الجو .. يعلو .. الذكر والأنثى .. ثم ينشر جناحيه ويترك نفسه يهبط على شكل حلزوني لترى الأنثى جمال الذكر وجمال الوانه وريشه الطويل .. تماماً كأنه أحد أبطال الففر جاء بخطيبته وطلب إليها أن تترجع عليه وهو يقفز من فوق يدور حول نفسه قبل أن يهبط إلى الحمام - استعراض للرشاقة والقوه والجمال .

لابد من الهجرة . ولا أظن أن شيئاً سوف يحدث لأحد بسبب سفري .. أو سوف يبكي ويترحم على .. ولكن لن يؤدي غيابي إلى مرض أمي .. فعندما أولاد كثيرون .. حتى لو مت .. فسوف تبكي .. ولكن الدموع لا تقتل المرأة .. فلم أسمع أن أمًا ماتت لأن ابنها أو أحدًا من أبنائها قد مات .. ولكن

سمعت أن آباء قد ماتوا . . فالآم تبكي . والدموع تفريج للهم والغم . ولكن الآباء يكتمنون حتى يتفسروا مرة واحدة . ويكون الانفجار في القلب أو في المخ .

فالحزن يقتل الرجل ولكنه يطيل عمر المرأة . . في استطاعتك أن تقلب عينيك في الذين حولك . . وأكثر الذين يذهبون إلى المقابر نساء . . فالرجال قد ماتوا . وأخواتي وأخواتي . . سوف يجدونني قد صرت جميلة ورقيقاً وكريماً . . وسوف تخرج صوري من الأدراج وتتعلق على الجدران . شكرنا . . لا أزال أذكر عندما سافرت أختي مع عمتها إلى السعودية . وعاشت هناك سنة . كنا نتذكر خطاباتها ليلاً وبهاراً . . وكل واحد يخترع عنها قصة . وكنا نضحك الضيوف على تصرفاتها . . غابت عن العين . ولم تغب عن القلب واللسان . وسوف أكون كذلك . . سوف أكون أجمل وألطف وأحب ذكري لهم جميعاً .

فليهذا لا يودعني كأني جندي ذاهب إلى القتال . وأنا جندي فعلاً . إن أحدها لا يمسك الجنود ويمعنهم عن أداء الواجب . . يودعنيهم ويكون عليهم . . فليبيكوا . فقد أضحكتهم كثيراً . فليلة كروني فقد اعتادوا على رؤيتى . . اعتادوا على أن يجدوني ، فليهذا لا يعتادون على أننى لم أعد هناك . . إن بكاءهم كبكاء على خادم مخلص . . خادم بلا أجر . . بل خادم يدفع لهم أجراً مقابل أنهم تفضلوا عليه وتكروموا وجعلوه تحت أقدامهم - تصوراً .

اللعنة على ضعفي . اللعنة على قلبي . والآن عرفت لماذا أرفض أن أكون زوجاً . لأنني أرفض أن أكون أبي . فأنا ضعيف أمام الأطفال . فالأطفال ذل وهوان . . وقد رأيت ذل أبي وهو أن أمى من أجمل هؤلاء الأبناء الذين لا امتنان عندهم لأحد ! .

ألا لعنة الله على هؤلاء الفلاسفة الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» اللعنة عليهم . إنهم أصحاب هذه النظرية التي تأثرت بها دون أن أدرى . عندهم نظرية يقول بضرورة «التبني الروحي» النظرية تقول : إن كل قادر يجب أن يساعد ضعيفاً ، إن كل غنى يجب أن يساعد فقيراً . وتكون مساعدة الفقر والضعف نوعاً من الشكر لله . . ولا يصح أن يمن عليه . ولا أن يحتقره . وهناك نوعاً من التبني ، التبني الجسدي والتبني الروحي . . والتبني الجسدي أن تساعد الناس مادياً ، والتبني الروحي أن تساعدهم عقلياً وروحياً على النجاة في الدنيا والفوز في الآخرة .

والرسول عليه السلام قال لعلي بن أبي طالب : يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة . . وقال عليه السلام أيضاً : المؤمن أخو المؤمن من أبيه وأمه .

وقال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : فمن تعنى فإنه مني .
وقال تعالى لنوح عليه السلام : إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح . .
وقال تعالى : فإذا نفح في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسائلون .

وقال السيد المسيح عليه السلام للحواريين : جئت من عند أبي وأبيكم .
وقال تعالى : ملة أبيكم إبراهيم .

وقال عليه السلام : كل نسب ينقطع يوم القيمة إلا نسيبي .

وقال عليه السلام أيضاً : يا بني هاشم لا يأتيك الناس يوم القيمة بأعمالهم ، وتأتوني بآنسابكم ، فإني لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

ويقول تعالى : آباءكم وأبناءكم لا تدررون أهتم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله .

صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم . ولكنني معذب يا رب . لا

أستطيع . انتهى . فاض الكيل . وتتدفق الدم كله في رأسي . فإن لم أطفيش من هذا البيت وهذا البلد ، فسوف أنفجر وأموت .. وأعتقد أن والدى قد انفجر وتناثر ومات .

وليست له صورة في بيتنا .. ولم أسمع له حكاية ولا نادرة في السنوات السبع الماضية .. نسيه أولاده ، وانشغلت زوجته بهموم أولادها ومرضها .. فضاع الرجل الذى أوجدنا وأقام هذا البيت وله معاش وله أرض وخواتم من الماس وأساور من الذهب في يدي والدى تظهر في المناسبات .. وأغلب الظن أنها سوف توزعها على بناتها قبل الزواج .. يرحمه الله أبي .. إن أمى كانت على استعداد أن تذبحه وتقطعه ألف قطعة إذا كان ذلك يطيل عمر أولادها .. إن العناكب والعقارب تفعل ذلك .. فالإناث تأكل الذكور لكي تصبح قادرة على إطعام صغارها بعد ذلك .. وبعملية حسابية تكون الطبيعة قد حذفت ذكرا . ولكنها أضافت عشرين .. انتهى دور الذكر .. انتهى دور الأنثى بظهور صغار جدد ..

إنى أيقنت تماما .. أن أمى لم تعد زوجة ولا تقوم بدور الزوجة لأبي من ثلاثة عاما .. فقد أصبحت أما بعد طفليها الأول .. وتأكدت أمومتها طفلها بعد طفل .. وهي على استعداد لأن «تخربنى» أنا أيضا .. إذا كان ذلك يطيل عمر أولادها الآخرين .. وإلا كيف لا ترى أمى عذابى وتعيبى ومرضى وتضحيتى بنفسى من أجل الأولاد .. إنها لا ترى إلا أن الأولاد يجب أن يعيشوا .. الصغار يجب أن يكبروا .. والمريض يجب أن يشفى .. الطالب يجب أن يتخرج والبنت يجب أن تتزوج .. فماين أنا من كل هؤلاء .. أنا لست إلا «بدل فاقد» والفاقد هو أبي ..

لا بأس .. آسف جدا .. إنها أريد أنقذ نفسى من خالب حبك .. أريد

أن أنشل نفسي من أنينك عطفك .. أحببتك طول عمري ملاكاً طاهراً
عطوفاً ولا أطيق أن أراك عقرها يأكل زوجه .. ثم عقرها استدار ليأكل أكبر
أبنائه .. وخصوصاً أني صورة من أبي .. ولذلك كان من الضروري أن
تضحي بي .. آسف جداً يا أمي إنني تركت أما حانية طيبة .. أما من الذي
عليه الدور .. فهذا شأنك .. ولا أعتقد أن أحداً من إخواتي أو إخواتي لديه
أدنى استعداد لأن يموت من أجل الآخرين .. إنهم أفضل مني كثيراً.

ولأنني لا أريد أن أضعف ولا أن أتردد .. فقد حلت حقيقة صغيرة ..
وتركت خطاباً مغلقاً لكل واحد من إخواتي وأخواتي .. ووضعت خطاباً لأمي
في قلب مصحف ذهبي جميل ومعه صورتي .. وتنبأ للجميع السلام
معاً والوفاق معاً .. وإلى لقاء قريب .. في خطابات وصور .. أو في أي مكان
آخر خارج مصر .. أو يوم القيمة ..

هل سمعت أنا صوت أمي تنادي .. تنادني .. هل تصرخ من الألم ..
هل جرس التليفون كان يرن .. هل هو صوت أحد من إخواتي أو إخواتي ..
أو هو صوت طفل في الشقة المجاورة .. لم أعد أسمع .. لأنني قررت ألا
أسمع وألا أتوقف .. وسوف نقى إخوة في الدم وفي الله .. وعندما ألقى
بنفسه من فوق مثل الحمام المطوقة واستعرض قوته وريشه ومالي ، سوف
يعجبون بي جداً ويؤكدون لكل الناس .. أنني أخوه .. أحب الأخوة إليهم
وحينئذ لن أصدقهم ! ..

شِرِّدَ رَأْيَ خُودَ احْمَدَ جَمِيعًا !

قررت أن أواجه أمي وإنخوتي وأن أناقشهم قبل سفرى إلى الخارج . كرهت أن أبدو كأننى هارب .. مع أن من حقى أن أفعل ما أشاء . وأن اختار حياتى ومستقبلى .. وأختار الأصدقاء والأعداء .. ولكنى لم أختر أمى وإنخوتي .. ولكنى قررت أن أحقق ما كنت أتمناه طول عمرى .. تمثيت أن أكون «القيطا» .. لا أب ولا أم ولا أخ .. ولا أدعى قرابة أحد .. ثم إننى لست مدينا لأحد .. قررت أن أعود إلى سالف مشاعرى .. ألا أكون لأحد أو من أحد أو إلى أحد إننى مختلف عن إخوتي .. مختلف تماما .. ويجب أن أظل كذلك . ولكنها أمى هي التى أرضعنتى الاتفاق والتفاهم والتضحية من أجل إخوتي .. لماذا !.

لا أعرف .. وهى فعلت ذلك بكل إخوتي .. من أجل أن تبقى الأسرة والبيت .. يعنى يجب أن نموت من أجل بقائنا معا .. ومن أجل أن يبقى (حسنا) بكسر الحاء فى الدنيا - أي صوتنا وبقية مشاعرنا .. والدنيا هى الأسرة وهى إخوتي وأخواتى وأمى - أما الأب فقد انتقل إلى الله .. وكان انتقاله سريعا .. أخذها من قصيرها .. كأنه اكتشف فجأة أن الأسرة هى أكبر أكذوبة .. وأنها وهم نذبح من أجله كل الحقائق .. معه حق .. وسوف

أستأنف هذا الحق والدعوة له .. أو الإقناع به .. أو أجاهر به فقط ، دون أن أدعو إلى نفت هذه الأسرة وكل أسرة أخرى .

فوجئ إخوتي بأنني أتيت لهم بكمية من الجهازه . وقلت هذا هو «العشاء الأخير» أي آخر ما تناوله السيد المسيح مع تلامذته قبل أن يخونه واحد ويسلمه إلى الرومان ليعدبوه على الصليب .. وإن كنت أنا لست المسيح .. فلن يعدبني أحد .. وإنما أنا الذي قررت أن أحاكم الجميع وأن أعلقهم على الصليب . وأعدتهم .. فقد تعذبت بهم كثيرا .

قلت لهم : إنني مسافر غدا إلى استراليا . هذا قراري النهائي وإن لم يكن هذا القرار مفاجئا لأحد . فقد تناقشتا فيه كثيرا . و كنت أنا الذي أفتح باب المناقشة ، تمهدًا لتطبيق هذا القرار .. الذي هو قراري . وقد وفرت عليكم حفلة الوداع .. فأنا الذي أقمت الحفلة لنفسي .. آخر لقمة عيش معًا .. إنه عيش وسكر وليس عيشا وملحا . فقد شبعنا عيشا وملحا . وإن كنت لم أر لذلك أي أثر في علاقتنا جيما . وسوف أكتب وأبعث بأخبارى لكم .. حتى لا تشعروا أنني هربت .

كانت أمي أولى المتكلمين . وبسرعة جاءت الدمع : كيف يا ولدي ؟
وتتركني وحدي ؟ معقول هذا القرار المفاجئ .

قلت : ليس مفاجأة يا أمي .. فأنا فكرت في ذلك من ستين .. ثم إخوتي قد تركتهم ما شاء الله قادرین على ملء الفراغ .. افرضى أننى فيبعثة دراسية في الخارج .. افرضى أننى مجند في الجيش .. مثل مئات الآلوف من شباب مصر الذين يحاربون ويدافعون من أجل الوطن .

قال أحد الإخوة : الأخ الأكبر يهرب .. يقفز من الطائرة .. من السفينة

قبل أن يصل إلى الشاطئ .

قلت : والله يا أخي أنا لست الأكبر .. أنا الذي ارتضيتك بهذه المنصب الشرفي .. فأنا أكبر منك بنصف ساعة .. وهذه الدقائق الثلاثون لا تجعل مني أبا وتجعلك وأنت طويلا عريضا هكذا إبنا .. إن أكثر الناس ينظرون إليك ويقولون إنك الأكبر .. ومع ذلك فأنا الذي حولت الدقائق الثلاثين إلى ثلاثين شهرا أو ثلاثين عاما لكى أكون الأخ الأكبر بحق وحقيقة .. على كل حال جاء دورك لتتولى دور الأخ الأكبر .. وأنت قدّها وقدود .

قال : لا أفهم ..

قلت : يجب أن تفهم .. تعمل وتتوظف وتكتسب وتصرف على نفسك وعلى إخوتك الصغار . أنت رجلا ؟ أنا فعلت ذلك ووضحت من أجل الجميع .. وتخلفت في دراستي ستين .. والسبب أنتم طبعا .. هل أنت في حاجة إلى أن أحكي الحكاية .. والكارثة التي وقعت فيها جيئا بما جلعني لا أذهب لامتحان ؟ .. لا داعي ..

قالت إحدى الأخوات : أنا كنت متوقعة ذلك .. فأنت في الشهر الأخيرة لم تكن هادئا .. كنت عصبيا جدا .. لا تطيق أحدا هنا .. وإذا كلمك أحد شخطت فيه .. وإنما كنت أقول إن أخانا قد وجد له واحدة .. أو رحلة .. أو اتّخذ قوارزاً ليبعد عن الأسرة .. لم يكن عشمنا فيك .

قلت : أنت وهي وهو آخر من يتكلم .. إن النظر إليكم جميعا يبعث على القرف واليأس .. أنا كرهت الآباء والبنوة والأخوة بسيّركم .. إنني تحملت الكثير جدا على أعصابي .. لكى أنظر إليكم .. وتحملت فوق ما يطيق البشر لكى أبتسם في وجوهكم .. لكى آخذ من قوتي وأعطيكم .

قالت : من فضلك لا داعي لأن تسخر منها .. ت يريد أن تصافر يا أختي .
لم يطلب إليك أحد أن تبقى .

قلت : أنا أعرف .. أن هذه هي النتيجة .. أنا أعرف أن هذه هي نهاية التضاحية .. والعرق والتعب .. نهاية ما قدمت راضيا مرضيا .. ولكن أحب أن أقول لك وها وله أيضا أحد الأسباب الحقيقة .. هل نسيتم «مذبحة الإسورة» .. عندما وعدت أمي بأن تبيع إسورتها لكي تعطى لكل منكم ألف جنيه . ومرضت .. هل تذكرون .. وهجمتم جميعا على ذراعها وهي المريضة تنزعون الإسورة منها .. وكان كل واحد منكم يخاف أن ينفرد بها . وأن يبعها وأن يحصل على مبلغ أكبر من الآخرين .. هل تنسون كيف كاثرتم على الأم المريضة . ووقعتم فوقها .. تريدون أن تقطعوا يدها .. ذراعها .. أن تقتلوها .. المهم أن تحصلوا على الإسورة .. يوم أسود من تاريخ هذه الأسرة .. والأمومة والبنوة .. يوم احتقرت فيه كل ما هو إنساني .. لأنه كذب في كذب ..

لحظة واحدة أن هؤلاء هم الإخوة الذي يجب أن أضحي من أجلهم .. لماذا؟ من أجل أي هدف .. إخوتي؟ وإيه يعني .. دمي ولحمي .. وإيه يعني .. لقد عشنا على الكذب وشبعت كذبا .. وقد فطمته نفسى .. وأريد أن أسافر لكي ألتقي بنفسى .. فقد انشغلت كثيراً عن نفسى .. أنا على موعد غرامى مع ذاتى .. فياروح ما بعدك روح ..

أمى قالت : كده يا ابنى . ما الذى غيرك ..

قلت : أولادك يا أمى ..

قالت : صغار لا يعرفون ..

قلت : من هو فيهم الصغير .. إن أصغرنا عندها واحد وعشرون عاماً .. هم لا يعرفون .. ولكننى أعرف يا أمى .. أنت مطالبة حتى الموت بالتصحية ولكننى لست مطالباً .. أنا لم أسعد لحظة واحدة بأننى الكبير ، ولكنك أنت يا أمى التى أصدرت قراراً بتعيينى رجل هذه الأسرة وكبيرها .. إنه مرسوم ملكى منك أنت .. وكان لابد أن أطيعك يا أمى .. وأنا مستعد أن أغيش وأموت من أجلك أنت .. أما هؤلاء فقد جاء دورهم لأن يعتمدوا على أنفسهم .. يكفى أنك قدمت لهم البيت والمأكل والشرب والمصروفات .. ولكن مصاريفهم الخاصة يجب أن يحصلوا عليها بالعمل بعض الوقت أو كل الوقت ..

انتهى ..

قالت : ما الذى انتهى يا ابنى؟ ..

قلت : قرارى يا أمى ..

قالت واحدة : ولماذا أنت غاضب هكذا .. صحيح أنت ضحيت ..

ومن حرقك أن تفكـر في مستقبـلك . و من الواجب علينا جميعاً أن نعمل كما عملت أنت . معك حق . أنا شخصياً سوف أعمل .

قلـت : لـست غـاضـباً عـلـيـك .. أنا غـاضـبـ على نـفـسـيـ أـكـثـر .. وـأـنـاـ إـذـاـ كـنـتـ أـبـدـوـ غـاضـباـ أـمـاـكـمـ ، فـأـنـاـ أـكـثـرـ غـاضـبـ عـنـدـمـاـ أـكـونـ وـحـدـيـ .. وـفـيـ التـورـةـ قـصـةـ غـرـيـةـ لـلنـبـيـ نـوـحـ عـلـيـهـ السـلـامـ .. فـبـعـدـ أـنـ أـقـامـ السـفـيـنةـ عـلـىـ الشـاطـئـ وـالـنـاسـ يـسـخـرـونـ مـنـ رـجـلـ يـبـنـيـ سـفـيـنةـ بـعـيـداـ جـدـاـ عـنـ المـاءـ . وـلـكـنـهـ هوـ الـوـحـيدـ الـذـيـ يـعـلـمـ بـأـنـ الطـوفـانـ سـوـفـ يـجـبـ وـيـرـفـعـ السـفـيـنةـ وـيـنـجـوـ هوـ وـأـلـادـهـ .. وـنـجـاـ نـوـحـ وـأـلـادـهـ زـوـجـاتـهـ وـلـحـيـوانـاتـ .. وـعـنـدـمـاـ اـسـتـقـرـتـ السـفـيـنةـ عـلـىـ جـبـلـ أـرـارـاتـ فـيـ أـرـمـنـياـ نـزـلـ نـوـحـ وـأـلـادـهـ وـلـحـيـوانـاتـ .. وـتـقـولـ التـورـةـ :ـ إـنـهـ نـامـ وـاسـتـغـرـقـ فـيـ الـيـوـمـ وـتـقـلـبـ فـيـ نـوـمـهـ وـتـعـرـىـ وـضـحـكـ مـنـهـ بـعـضـ أـلـادـهـ ..ـ فـلـمـاـ صـحـاـ مـنـ نـوـمـهـ قـيـلـ لـهـ إـنـ اـبـنـكـ (ـ حـامـ)ـ كـانـ يـضـحـكـ عـنـدـمـاـ رـأـكـ عـارـيـاـ وـرـاحـ يـعـرـيـكـ أـكـثـرـ وـابـنـكـ (ـ سـامـ)ـ هـوـ الـآخـرـ ضـحـكـ .. وـلـكـنـ اـبـنـكـ (ـ يـافـثـ)ـ هـوـ الـذـيـ غـطـاكـ .. وـفـدـعـاـ عـلـىـ اـبـنـهـ حـامـ وـأـلـادـهـ أـنـ يـكـوـنـواـ سـوـدـاـ .. وـعـلـىـ أـلـادـ سـامـ أـنـ يـكـوـنـواـ صـفـراـ .. وـعـلـىـ أـلـادـ يـافـثـ أـنـ يـكـوـنـواـ بـيـضاـ .. إـنـ أـلـادـ نـوـحـ لـمـ يـقـدـرـواـ عـنـاءـ وـالـدـهـمـ وـلـمـ يـمـتـنـواـ لـاـ بـذـلـ .. فـكـيـفـ يـمـتـنـ أـحـدـ لـأـخـيـهـ .. لـاـ أـحـدـ .. وـبـمـتـهـيـ الـصـرـاـحةـ لـيـسـ عـنـدـيـ اـسـتـعـدـاـ لـأـنـ أـهـدـرـ شـبـابـيـ مـنـ أـجـلـ أـنـ تـحـفـظـواـ وـتـنـعـمـواـ بـشـبـابـكـ .. فـكـلـ وـاحـدـ يـفـكـرـ فـيـ مـسـتـقـبـلـهـ .. وـقـدـ فـكـرـتـ .ـ وـأـنـتـمـ فـكـرـواـ .. آـسـفـ لـاـ أـقـصـدـ أـنـ أـنـصـحـ أـحـدـاـ ..

ـ قـالـتـ أـمـيـ :ـ وـلـكـنـ اللهـ يـاـ اـبـنـيـ لـمـ يـأـمـرـ بـذـلـكـ .. وـلـاـ رـسـوـلـهـ يـاـ اـبـنـيـ .. تـتـرـكـ أـمـكـ وـتـحـرـقـ قـلـبـهاـ عـلـيـكـ .. بـدـلاـ مـنـ أـنـ تـخـفـفـ عـنـهاـ ..

ـ قـلـتـ :ـ يـاـ أـمـيـ أـنـتـ تـعـلـمـيـ أـنـيـ أـكـثـرـ أـلـادـكـ حـبـاـ لـكـ .. وـأـنـيـ مـسـتـعـدـ أـنـ أـمـوـتـ مـنـ أـجـلـكـ أـنـتـ .. وـلـكـنـ لـاـ يـرـضـيـكـ أـنـ أـضـبـعـ هـنـاـ .. فـيـ الـبـيـتـ وـفـيـ

هذا البلد . . انتهى لن يكون لي عيش هنا . . كثيرون فعلوا ذلك . . أنا عندي رأى . . عندي نظرية . . وأريد أن أهاجر بها . . وأجرب حظى . . فمن يدري ربما عدت مرة أخرى إلى مصر أحسن حالاً وأكثر إسعادةً لك . . فالإنسان عليه أن يسعى ، والباقي على الله . . والنبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه سوف تبقى الهجرة ، وأنه سوف يهاجر الناس من مكان إلى مكان . . وسوف يستأنفون حياتهم في المكان الأنسب والأرحب . . ولو لا الهجرة ما عاش الإسلام . . ولو لا الذين هاجروا وانتشروا ونشروا ، ما كان في الدنيا كلها خير . . والرسول عليه السلام هو الذي قال : « لا تقطع الهجرة حتى تقطع التوبية ، ولن تقطع التوبية حتى تطلع الشمس من مغربها ». أي مستحيل أن تقطع الهجرة إلا إذا أشرقت الشمس من الغرب وهذا مستحيل . . إذن فسوف يبقى الإنسان يتقلل من مكان إلى مكان ، وسوف يخاطئ ويتب ويتوب عن ذنبه . . فالإنسان لأنه بشر يغلط ، ولأنه طيب فإنه يستغفر ويتب إلى يوم القيمة ، فإن كانت هجرتي هذه خطأ ، فدعيني أجريب ذلك بنفسى ، وسوف أتوب إن اكتشفت غلطى . . ثم قال رسول الله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » !

قالت واحدة : كأنك غاضب علينا جميعاً . . ولذلك قررت أن تعاقبنا بأن تسافر فجأة . دون أن نعرف إلى أين . وماذا ستعمل . . ومتى ستعود . . معقول هذا التحول العنيف وبصورة مفاجئة . كأنك « شايل » منا جميعاً . كنت أظنك أعقل وأرحم وأكرم !

قلت : منك أنت بالذات هذا صحيح . . كلما نظرت إليك . . إلى وجهك المادي الجميل ، زادت دهشتي كيف خرج هذا السم القاتل من شفتوك . . آه لو تعلمين كم أحببتك . . والله أحببتك كثيراً . . وحددت

عليك من سوف يتزوجتك . . و كنت أحلم في يوم من الأيام أنت إذا تزوجت
فسوف أستأذنك في أن أعيش معك . . فأنا أرى فيك نفسى . . فطبعاً عك
وأفكارك أقرب إلى تفكيري . . وكثيراً ما تختارين نفس الأشياء التي اختارها . .
و كنت أقول لنفسي لو تزوجت أنا في يوم من الأيام فسوف تكونين أعدى أعداء
زوجتي . . وإذا كان لابد أن اختار بينك وبين زوجتي فسوف اختارك أنت . .
وسوف أكون أسعد الناس عندما أتبني كل أطفالك . . آه لو تعلمين ما الذي
كنت أفكر فيه من أجلك . آه لو تعلمين . . والآن يجب أن أصارحك . .
أنت تعرفين مدى حب خالتى لي . . وحبي لها . . هل تعلمين أن خالتى قد
أودعت كل ثروتها باسمى في البنك و اشترطت ألا تسلّمها إلا عندما يبلغ
السادسة والعشرين أي بعد أيام . . لا داعي لأن أقول لك كم هو المبلغ الذي
أودعته . . هل تعلمين أنه كان في نيتها أن أعطيك كل هذا المبلغ عند
زواجك . . لكنى تكونت في غرفة في بيتك . . أو يكون هذا المبلغ ثمناً للشقة
المجديدة التي باسمك . . والله على ما أقول شهيد . . ولكن . .

أمى تقول : ما هذا يا ابنى الذى تقوله . . كأنك قررت قبل سفرك أن
تعنى الأسرة كلها . . يا ابنى حرام عليك . . أنا لست قد هذا الكلام . .
ارحني . . ارحنا جميعاً . ألا ترى الدموع في عيوننا . . أنت لم تكن كذلك . .
والنبي يا ابنى حسدوك . . عين وصايتها يا ابنى . . يارب من الذى رأنا معاً
آخر مرة . . اللهم صلى عليك يا نبى . .

قلت : أناأشكرك ، مع الألم الشديد . . فقد ضربتني في دماغي ضربة لم
أفق منها حتى الآن . . وهكذا احتفظت بفلوس خالتى . . و كنت بسبيل أن
أعطيها لمن لا تستحق . . أنت قد نسيت . . ولكن لابد أن أذكرك بها
فعلت . . و سوف أفعل . . أما اليوم فهو يوم « تقطيع الحبال » . . هو يوم

جيلفر في بلاد الأقزام عندما نام فريبطوه بالحبال في كل شعرة من شعرات رأسه ورموش عينيه وشاربه . . لابد أن أقطع كل ذلك لكي أستوى جالسا . . ولكي أسرع مسافرا . . أما ذلك اليوم الشنيع الذي لا أنساه لك يا اختي وأجدنى مضطرا إلى أن أشكرك . . في ذلك اليوم اقتحمت باب مكتبي وصرخت قائلة : هيء دى الملايم اللي أنت اشطرت عليها في عيد ميلادي . . ملا لييم . . عشرون جنيها من مرتب واحد يتناقضى ثلاثين جنيها تسمى بها ملايم . . ولم يكن ذلك واجبا على . . وإنها هو ذوقى وحبي لك . . كل ذلك في لحظة واحدة تبدى . . أنت وصورتك ورسمك واسمك وجسمك وحبك . . أنا ؟ بعد كل ذلك . . أنت تكسرین الباب لتقولي كلاما يكسر قلبي ويهدم عقل . . وينسف حياتنا وما فيها من جسور وخيوط . . إننى آسف على ما كان . . كفى ما كان . . وأرجو لكم جميعا حياة أفضل ونسيناها أسرع . . وإن كان لابد من نصيحة فهي : لا تموتوا من أجل أحد . . لا من أجل أب ولا من أجل ابن . . تجربتى أمامكم تذكروها . . والعنوها . . وانسوها . . والآن استرحت . . قد صفيت حسابي وأقفلت دفاترى . . وإذا لم يكن عندكم مانع فدعونى أعانقكم إذا أردتم أو أصافحكم فقط إذا شئتم . . أما أمى فسوف أبلل تراب شبشبها بدموى . . وسوف أحمل بعض هذا التراب في زجاجة معى إلى استراليا : بركة . . وذكرى . .

أرجو أن تتركوني مع أمى وحدنا . .

وقلت : لا تكسفيني يا أمى . . هذا هو شيك بالملبغ الذى تركه خالتك . . إنه لك لعلاجك إذا مرضت . . ثم إن الأعيار والصحة بيد الله . . والسعادة أيضا .

المحتويات

| | |
|-----------------------------|-----|
| كلمة أولى | ٥ |
| في مهمة عاجلة | ١٧ |
| وأنا لا أطلب المستحيل | ٢٧ |
| كلاب وذئاب | ٣٧ |
| نهاية كل نكتة بايختة | ٤٧ |
| المصاحف فوق السيف | ٥٧ |
| ولكذلك .. لم تسمع كلامي .. | ٦٧ |
| لا خلاص من الأقفال .. | ٧٧ |
| إلى الأخت فاطمة وغيرها .. | ٨٧ |
| على الناصية فوق مقعد .. | ٩٧ |
| الفضح والهوان والندم .. | ١٠٧ |
| أفكارنا المستعارة .. | ١١٧ |
| واجيبي نحو زملائي .. | ١٢٩ |

| | |
|---------------------------------|-----|
| كلنا سياسيون : غلط فظيعة | ١٤١ |
| يا بخت من عاش على حب جديد | ١٥٣ |
| يا ناس كلمونا | ١٦٥ |
| وردة في طريقها | ١٧٧ |
| قال : فصدق رسول الله | ١٨٧ |
| آخر حدود التضحية | ١٩٩ |
| غيرت رأيه فوداعا جمعا | ٢٠٩ |

رقم الإيداع : ١٩٨٩ / ٢٢٢٤
التقييم الدولي : ٢ - ٣١٠ - ١٤٩ - ٩٧٧

مطابع الشروق

الشارع: ٦٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٢٣٣٤٥٧٨ - فاكس: ٢٣٣٤٦١٢
بيروت: من ب: ٤٤٠٨٠٩٦ - هاتف: ٩٦٣٦٥٩٦ - ٩٦٣٧٧٧٨٦ - ٩٦٣٢٢٣٦

الخلاف للقنان : مصطفى حسين

دارالشروق

القاهرة : ٦٣ شارع منجليه العبدلي - زاوية المدرسة - بولاق مصر
منبـ ٢٢ الشارع راما - القنطرـ ١٠٣٧٩٦٤ - ١٠٣٧٩٦٥ - ١٠٣٧٩٦٦
مـ ٦٣٧٩٦٧ - ٦٣٧٩٦٨ - ٦٣٧٩٦٩ - ٦٣٧٩٧٠ - ٦٣٧٩٧١ - ٦٣٧٩٧٢

To: www.al-mostafa.com